بيت صغير في المدينة

عبد البديع عبد الله

رواية

فى هذه الساعة المبكرة من الصباح يدخل عم حسن العربجى الذى يبدو كأنه لم يستيقظ تماماً من نومه إلى الزقاق الصغير المسمى « عطفة الفرن » ويعرف باسم شهرة قديم هو « حارة قميص النوم » وبيده اللجام وبجواره يمشى الحصان عارياً ويبدو هو الآخر فى مشيته المتراخية كأنه يسير وهو نائم . ويقف عم حسن أمام باب المندرة التى يعيش فيها مع زوجته الجديدة ويترك حصانه بعد أن يضع حبل اللجام فوق ظهره ويدخل المندرة ويغيب لحظة قصيرة يعود بعدها إلى حصانه وبيده فرشة بلاط خشنة وقطعة من الصفيح المدبب يستخدمها فى حك جلد حصانه ويبدأ عمله من الرأس إلى الظهر ثم البطن والمؤخرة وأخيراً ينتهى بقوائم الحصان وتمتلىء الأرض بتراب مقشر كالردة . ثم يعود إلى نقطة البداية ، ويمشط بالفرشاة الخشنة جلد حصانه الذى يبدو كأنه قد أفاق فيصهل صهيلا منتشياً تخرج على أثره الزوجة وتحمل بين يديها « حلة كبيرة » مملوءة بالماء يسبح فوقها كوز قديم فى داخله صابونه وليفه تضعها الزوجة على الأرض أمام زوجها ثم تجلس على حجر قديم يستعمله أهالى الحارة استعمالات كثيرة فهو أحياناً مقعد وأحياناً « مدق » يدقون عليه الكفتة أو فول الطعمية دون أن يخشوا على بيوتهم من عنف الدق على الجدران القديمة التى توشك على السقوط لولا تماسكها العجيب . ويعود عم حسن إلى نقطة البداية مرة ثالثة ليحمم حصانه بالماء والصابون والزوجة تدخل بالحلة فارغة وتعود بها ممتلئة حتى يتم تنظيف الحصان فيبدو كأنه قد تهيأ لمجهود يوم جديد فيلبسه عم حسن (الكسوة) ثم

يلجمه باللجام قبل أن يسحبه مرة أخرى إلى الأسطبل ليربطه فى العربة .

وبينما يؤدى عم حسن عمليته اليومية مع حصانه يفتح الباب الخشبى الكبير للمنزل القديم المسمى « بيت الطرابيشى » ويخرج منه صبى يرتدى « عفريته زرقاء » ويجر دراجته ثم يغلق الباب قبل أن يدس فى صدره السندوتشات الثلاثة المحشوة بالفول وهو طعامه فى الصباح والغداء وحتى يعود إلى منزله قرب صلاة الفجر . ويجر الصبى دراجته ويمشى بها بضع خطوات قبل أن يقفز عليها ويجرى ، وحينما يقترب من عم حسن العربجى يبادره بتحية الصباح فيجيبه الرجل بطيبة ورضا :

— صباح النور ياسى محمد أفندى .

وأحياناً يتحـــول النور إلى فل أو ياسمين أو ندا أو ما يخطر لعم حسن العربجى من أسماء حسب حالته ومزاجه ، ولـكن كلمة أفندى لا تتحول أبداً مع أن محمد ترك المدرسة وأصبح يرتدى العفريتة الزرقاء . أما زوجته فتقول دائماً نفس الـكلمات يسمعها منها وممن قبلها من زوجاته السابقات كأنهن أتفقن على ترديدها فى أذنه كلما مر أمامهن :

— مع السلامة يابنى . إلهى يكفيك شر طريقك .

وقبل أن يغادر الصبى حارته تفتح أمه النافذة وتتطلع إليه ساهمة وهى تشيعه بعينيها حتى يغيب عن ناظريها فتشيعه بعين ذاكرتهـا من الحارة إلى الشارع الصغير الضيق المتعين إلى شارع الترام الضيق المزدحم « كلوت بك » إلى كوبرى شبرا المـكتظ دائماً بالمارة من كل مكان

فى أرض مصر من أسوانها إلى بحرها إلى شارع شبرا الممتلىء بأعداد هائلة من مركبات الترام والاتوبيسات والدراجات إلى شبرا البلد حيث يضيق الطريق ويختفى العمران وتتسع الأرض على جانبيه يحدها شرقاً قضبان السكك الحديدية وغرباً شاطىء النيل حتى يصل إلى بوابة المصنع فينزل من فوق دراجته ويدخل من الباب الطويل الضيق الذى يقف عليه حراس مسلحون يرتدون البلاطى الصوفية الثقيلة ، ويحملون بنادقهم القديمة ويبدون فى ضخامتهم وجمود ملامح وجوههم كأنهم نوع آخر من الناس لا يحدثهم أحد ولا يتحدثون مع أحد .

تظل أمه تشيعه بعين ذاكرتها حتى يدخل من هذا الباب العجيب الذى لا تعرف ما وراءه فتدخل هى الأخرى وتغلق نافذتها .

هى تعرف الطريق جيداً من باب البيت إلى باب المصنع فقد ألحت على زوجها أن يصحبها معه إلى المكان الذى يذهب إليه ابنها منذ الصباح الباكر ولا يعود إلى حضنها إلا بعد مغيب الشمس بوقت طويل يكون الليل فيه قد أسدل ظلامه عليها فلا تراه بوضوح فى ضوء اللمبة الجاز نمرة خمسة التى تنير بيتاً يتكون من ثلاث غرف واسعة وأن كانت خالية إلا من بعض المراتب التى ينام عليها الاولاد وكنبه عربى وبعض الكراسى التى تستخدمها أحياناً كغرفة للضيوف وفى معظم الأحيان كغرفة مذاكرة لأولادها الصغار .

هى تعرف الطريق جيداً فما زالت تذكر اليوم الذى خرجت فيه مع زوجها من باب المنزل إلى باب الحارة إلى شارعها العتيق إلى الشارع

الضيق الذى تسير فيه الترام ووقفت بجوار زوجها على محطة الترام ثم صعدت إليها مع زوجها وظلت جالسة فى غرفة الحريم أكثر من ساعة حتى نادى عليها زوجها لتنزل بعد أن انتهى شريط الترام ووجدت نفسها تمشى فى أرض لها رائحة أرض الريف المتربة وبين حين وآخر ترى بقره تمشى فى استسلام وطيبة أو حصاناً يجر عربة مملوءه بالقش ، ويمشى فى تراخ وكسل بعد أن نكس رأسه فى التراب .

تعبت الزوجة من المشى حتى قال لها زوجها وهو يشير بعصاه إلى الباب الطويل الضيق الذى يقف عليه حراس مسلحون يرتدون البلاطى الصوفية الثقيلة ويحملون بنادقهم القديمة ويبدون فى ضخامتهم وجمود ملامح وجوههم كأنهم نوع آخر من الناس لا يحدثهم أحد ولا يتحدثون مع أحد .

— أهه ده المصنع يا أم محمد .

وأحست الزوجة بالخوف من هؤلاء الرجال فأمسكت بساعد زوجها وهى تسأله عن عمـــل هؤلاء الرجال فقال لها بلا مبالاه أنهم حراس المصنع .

هى تعرف الطريق جيداً وتذكره ، خصوصاً أنها بعد أن وصلت إلى هذه النقطة طلبت من زوجها أن ترى أبنها ولو لحظة واحدة فقال لها زوجها أن ابنها لا يستطيع الخروج من مكانه إلا إذا كان لن يعود مرة أخرى فهل تقبلين لابنك أن يطرد من عمله من أجل أن تتطلعى إليه لحظة واحدة ، وبالطبع ضغطت الأم على حنينها لأبنها وبلعت ريقها

وطلبت من زوجها ان تعود ، ولكن الزوج الذى كان يلاحظ التعب الذى وصلت إليه زوجته من المشوار طلب إليها أن تجلس قليلا فوق هذه القطعة الخضراء من الأرض وتستريح قبل أن تبدأ رحلة العودة إلى منزلها . ونادى الرجل على أحد باعة القصب الذين يحملون القصب فى العربات الكبيرة إلى المدينة ليفرغ فى أكواب العصير وأخذ منه «لبشة» قصب ودفع فيها قرشا وجلس بجوار زوجته يمصان القصب ويستمتعان بحلاوته ويرتويان بمائه بعد العطش الذى سببته رحلة لم تكن الأم تتوقع صعوبتها إلى ذلك الحد . ثم نهضت الأم بعد أن مر بالقرب منها القطار السريع بعرباته الكثيرة والقى عليهما كمية هائلة من التراب . وسارت بجوار زوجها إلى محطة الترام وهى تتصعب وتتمتم بكلمات حزينة عن تعب ابنها كل يوم فى مشواره البعيد :

— مسكين يا ابنى . كل يوم تمشى المشوار ده صبح ومسا

فرد الأب محتجا برقة .

— وبعدين يا أم محمد .. أكل العيش صعب

— أيوه . . بس ده لسه صغير

— لما يتعب وهو صغير عشان يبنى مستقبله أحسن ما يقعد فى حضنك لحد ما يكبر ويشيب .

— الأمر لله ..

عادت الأم إلى بيتها فى ذلك اليوم وجلست على «الشلتة» المفروشة فى

« الفسحة » وطلبت من ابنتها « عديلة » أن تعمل لها « لبخة » تضعها في كعب رجلها حتى تتمكن من أداء واجباتها المنزلية بعد أقصر مدة

* * *

دخلت الأم من النافذة بعد أن أغلقتها لتبدأ مهمتها الثانية في البيت عليها أن توقظ أبناءها الصغار الكسالى الذين يحبون النوم الكثير ليذهبوا إلى مدارسهم في المواعيد المناسبة والا تكرر ما حدث لابنها ابراهيم الذى تأخر عن موعد الجرس فجرى مسرعا إلى المدرسة ونسى طربوشه في المنزل فاستحق علقة ساخنة أمام التلاميذ عقابا له على إهماله ذاك الركن الهام من شخصيته وهو الطربوش الذى يجب أن يضعه فوق رأسه كل تلميذ خصوصاً طالب الشهادة الإبتدائية الذى يمكن أن يكون عما قريب أحد موظفى الدولة الرسميين .

بدأت الأم توقظهم وهم يتقلبون كأهل الكهف في غرفتهم وكل منهم « يزغد » أخاه الذى يستحوز بتقلبه على مساحة أكبر من المرتبة الممتدة على أرض الغرفة .

— أصحى يا ابراهيم .. يا واد يا ابراهيم قوم انت اتأخرت . مصطفى .. قوم يا حبيبي لتتأخر .. عبده ، قوم ياعبده .. يا عيشة قومى يابت الساعة بقت سبعة شوفي أختك صحيت وشالت أخواتك على أيديها . يا عديلة غيرى لرضا أحسن زمانه بال نفسه .خدى بالك لا يصقع . . يا ابراهيم .. ياواد يا ابراهيم قوم بقى .. يا كسلان .

وهكذا حتى ينهض ابراهيم .. وهو يزيل بيده النعاس عن عينيه ويحتج على أمه قائلا :

ــ يا سلام . اشمعنى أنا تقوليلى ياواد ومصطفى تقوليله يا حبيبى . . طب والله م أنا قايم .

فتجيبه الأم قائلة :

ــ عشان انت ما بتجيش الا كده .. غلبت أقول لك قوم مش عاوز .. أعمل لك ايه ؟

ــ مين ده اللى مش عاوز يقوم ؟

وبمجرد أن يسمع الجميع هذا الإستفهام ينهضون فوراً ويفرون من وجه الأب الذى يأتى لمساعدة زوجته فى إيقاظ أبنائه ثم يتابع حديثه إلى زوجته وهو يغمز لها كأنه يقول :

الكلام اللى حاييجى ده كده وكده .. تهـــديد فقط .. ثم يقول :

ــ ميت مرة قلت لك متتعبيش نفسك معاهم . هى كلمة واحدة واللى ما يصحاش هاتيله الخرزانة .

فتقول الأم . . أهم صحيوا خلاص .. العيال بتخاف ما تختشيش ..

ثم يحمل الأب ابنه الرضيع بين يديه . . ويداعبه فى الوقت الذى تكون زوجته تمد فيه لأولادها سندوتشات الفول فيأخذ كل منهم نصيبه ومعه « المليم » المصروف ويذهب إلى مدرسته أما البنات فينتظرن حتى

يسمعن جرس المدرسة فيجرين مسرعات قبل أن يغلق الباب .

وأخيراً يخلو البيت من الزحام ويبدو كأنه من مخلفات الحرب فيجلس الزوج على الطبلية وبجواره زوجته وبينهما طبق الفول وكوب من الحلبة أو « اللبان الدكر المنقوع » ليجلو صدر الرجل الممتلىء بالكحة والبلغم . وبعد الإفطار يخرج الرجل وتبقى الأم وحدها .. ترتب ملابس الأولاد الملقاة فى كل مكان من البيت وتلم المراتب وتكومها وتكنس الأرض وتمسحها ثم تدخل إلى المطبخ وتظل فيه حتى يعود الأولاد من مدارسهم ويحملون الطبلية من على السلم ويجلسون حولها ليتناولوا طعامهم بينما تقوم البنات بمساعدة الأم فى حمل الطعام إلى الطبلية قبل الأكل ، وغسل الأطباق بعد الأكل وفى هذا الوقت تجلس الأم لترضع طفلها وهى تشهد حركة أولادها فى الشقة التى تدير رأسها فتشخط فيهم ليهمدوا ، فيهمدو قليلا ثم يتابعون ضجيجهم ولا يهمدون إلا بعد حضور أبيهم ، وتفتيشه على كراساتهم .. يقرأ ما أخذوه اليوم ودرجاتهم ويسأل كل منهم لماذا لم يأخذ عشرة بدلا من السبعة أو الثمانية أو حتى التسعة ويدور عليهم بالخرزانة ويعطى كلا منهم ما يستحقه فيجلسون كل فى ركنه ويبدأون مذاكراتهم وأبدانهم ترتعش من صوت أبيهم الذى يذكرهم بقصة الطفل الصينى الفقير الذى كان يربط شعره بحبل فى الباب ويجلس بجانب مصباحه « لمبته » ليذاكر فإذا غلبه النعاس ومال برأسه جذبها الحبل فعادت إليه يقظته . فى هذه اللحظات يدب فى كل منهم نشاط كبير وحماس للمذاكرة وهدوء يسمع فيه صوت الإبرة إذا سقطت ولا يتخلله

إلا صوت الأب وهو يداعب الرضيع أو الطفل الصغير ويحمله على ظهره كالحصان ويدور به فى الغرفة المجاورة لغرفة المذاكرة . ويبقى الوضع على ماهو عليه حتى يطل الأب على أبنائه الجالسين كل فى ركن من أركان الغرفة والكتاب على ركبتيه فيودعهم بكلماته المنذرة :

— اللى مش حاينجح السنة دى حايروح على عباس الطعمجى يلبس مريلة ويخدم الزباين ويفضل طول عمره خدام . أنا ماعنديش حديسقط . ما عنديش فلوس أدفعها للساقطين .

ويخرج الأب وهو يدرك أن تأثير كلماته على أبنائه مؤكد المفعول فيذهب إلى عمله مطمئناً إلى نجاحهم فى آخر السنة . هكذا أعتاد أن يعاملهم وهكذا نجحت سياسته حتى وصل إبراهيم إلى الشهادة الإبتدائية ومصطفى إلى السنة الثالثة وعبد الكريم إلى الثانية ، أما رضا الطفل فلا عمل له إلا اللعب بين الأولاد والزحف بينهم دون أن يخشى أباً ولا أماً . إنه السيد الحقيقى فى هذا البيت .

والغريب فى الأمر أن الأب لم يكن يوجه كلمة واحدة إلى بناته مع أنهن يذهبن إلى المدرسة كذلك ويدفع لهن المصروفات كالأولاد تماماً ويأخذن واجبات ويحضرن الشهادات فى نهاية كل فترة ليوقع عليها ، ولكنه مع ذلك لم يفكر فى توجيه أنذار واحد شبيه بانذاراته الكثيرة إلى أولاده ، ولعله فى قرارة نفسه لم يكن متحمساً لتعليمهن فجلوسهن فى البيت سيوفر عليه المصروفات ويساعد أمهن فى شئون البيت وهذا الأمر يبدو طبيعياً ما دام مصيرهن إلى الزواج فالأفضل أن يجدن عمل المنزل .

لـكنه لم يقرر إخراجهن من المدارس لأن زوجته ألحت عليه أن يعطيهن الفرصة ليذهبن إلى المدرسة ويتعلمن حتى ترتفع قيمتهن فى عيون أزواجهن. لهذا أبقى عليهن فى المدارس رغم إحساسه بعدم الحاح ذلك عليه نظراً لأحواله المالية الضعيفة .

أما الأولاد فـكانوا يتسمرون فى أركانهم حتى يتأكدوا أن أباهم قد خرج عندما يسمعون صرير باب البيت الـكبير وهو يفتح ثم صريره ، وهو يغلق فيبدأ كبيرهم يتمطى ويتثاءب ثم يلقى الـكتاب جانباً ويقف ليؤدى بعض التمرينات الرياضية . بينما يذهب أصغرهم إلى دورة المياه ، أما مصطفى فيتسلل من الغرفة إلى السلم على أطراف أصابعه ليشترى « بمليم سودانى من المقلة » ولـكن أمه التى ترى كل شىء تفاجئه وهو يفتح باب البيت من نافذتها المطلة على « الحوش » فتبادره قائلة :

— رايح فين يا مصطفى ؟

فيقول بصوت هادىء :

— رايح أجيب سودانى من عند أحمد

فتطلب منه أن ينتظر حتى ترمى له « نكلة » فى منديل وتقول .

— وهات بنكلة لب لاخواتك . . وقول له يتوصى . . وخلى بالك يا مصطفى م السكة . أوعى تتأخر .

فينشرح الطفل لهذه الـكلمات التى تعطى خروجه من المنزل صفة شرعية فيقول .

— ما تخافيش يا ماما ..

ويغلق الباب ويركض من الحارة إلى الشارع إلى المقلة . وأثناء عودته يجد أخاه محمد آتيا على عجلته من عمله فيقول له :

— والنبي تركبني معاك ..

فيحمله أخوه أمامه على عجلته ويجرى به عائدا إلى منزله . وفى كل مرة تؤنبه أمه على ركوبه أمام أخيه لأنه تعبان من المشوار ، وفى كل مرة يسكت ولا يرد بينما يظل محمد يضحك ويقول :

— ده ما بيخرجش يجيب السودانى إلا علشان أركبه العجلة ..

فتسكت الأم ثم تسأل ابنها بحنان شديد :

— اسخن المياه عشان تستحمى يا محمد ..

ويقول لها :

— أيوة .. ثم يخرج من جيبه ظرفا مغلقا ويعطيه لأمه قائلا :

احنا قبضنا النهاردة يا امه .. خدى الفلوس دى ..

فتأخذها من يده وان كان قلبها متألما للمشقة التى يتكبدها ابنها ليأتى لهم فى آخر كل أسبوع بهذه الفلوس القليلة بينما يلعب الصبية الذين فى مثل سنه فى الحارة طول النهار وتقول له بحنان .

— ربنا يسعدك يا محمد .. احضر لك العشا على بال ما تسخن الميه ..

— طيب يا امه

ثم يدخل إلى غرفة امه ويحمل أخاه الصغير بين ذراعيه ويهدهده ويذهب إلى أخوته البنات ويعطيهن كيس اللبان المعتاد مع كل قبضية فيأخذنه شاكرات ويخفينه بين كتبين. ثم يذهب محمد إلى غرفة المذاكرة ويضع الطبلية ويجلس مع اخوته لتناول العشاء وفور انتهائه من العشاء والاستحمام يرقد فوق المرتبة وينـــام كالقتيل ويخرج شخيره مزعجا فيقول ابراهيم :

ــ يا ساتر .. محمد ده نايم كأنه قتيل

فتردد الام زاجرة

ــ اسكت ياولد .. لو كنت تشقى زيه مكنتش قدرت تصلب طولك ..

فيقول معاندا

ــ يعنى المذاكرة مش شقا

فتقول :

ــ اجتهد وانجح عشان متشقاش كده ..

ــ آدى احنا كل سنة بننجح عملنا إيه ؟

ــ لـكن لما تاخد الشهادة وتشتغل زى على أفندى تبقى تعرف فايدة التعليم .

وتتركه الام الى شئونها الـكثيرة وكلها متصلة بالمطبخ من غسيل لفف الأطفال إلى غسيل العفريتة بتاعة محمد إلى تسخين الطبيخ ، ويظل ابراهيم يحلم بالشهادة الإبتـــدائية والوظيفة الحكومية والبدلة والمنشة

فى يده والخروج صباحا والعودة ظهراً ثم الجلوس على باب البيت عصرا بالجلابية البيضاء والطقطوقة الصغيرة بجواره والبنت الخدامة تحمل إليه صينية القهوة أو الشاى حتى يحين المساء فيدخل بيته ويغلقه ولا يسمع منه صوت إلا صوت ساعة الحائط التى ورثها عن أبيه عن جده إلى آخر الشجرة وهى تدق كل نصف ساعة معلنة الوقت ويضبط أهل الحارة جميعا أوقاتهم عليها . . ترى متى أكون كملى أفندى ؟ .. متى آخذ الابتدائية ؟ الشهادة ؟ .

الفصل الثاني

كانت سارينة المصنع تصرخ بصوت طويل منذر وأسراب العمـــال تتقاطر عند بوابة المصنع وتمشى فى الممر الطويل الضيق وعيون الحراس على جانبى الممر تتفحص كل واحد منهم بنظرات شديدة النفاذ والجرأة والريبة حتى ينتهوا مرة أخرى إلى الساحة الكبيرة المؤدية إلى عنابر المصنع فيتفرقون كل إلى موقعه . وركن محمد العجلة بسرعة بجوار عجلات زملائه وأغلقها بالقفل وسحب المفتاح بيد رشيقة وجرى إلى العنبر .. لابد أن يصل قبل الأسطى حسنين بوقت كاف لينظف الماكينة والأرض ويدخل الأسطى فيراه واقفاً كالديدبان فيقول له بطيبة غير مألوفة عند زملائه الأسطوات :

— صباح الخير يا ابنى يا محمد ..

فيجيبه بسرعة وسعادة :

— صباح النور يا أسطى

كان محمد يحب الأسطى حسنين ويحترمه . وهو لا يعرف سببا لحبه هذا سوى أن الأسطى حسنين لم يصفعه مرة واحدة على صدغه أو قفاه ،

بالشلاليت كما يفعل غيره من الأسطوات مع صبيانهم ، وإنما كان يعامله معاملة المعلم لتلميذ نجيب وهذا ليس ضعفا من الأسطى حسنين ولا فرط انسانية منه فهو رجل له هيبة سواء كان جالسا على حرف الماكينة يشرب الشاى فى وقت الراحة أو كان واقفاً أمام الماكينة يعمل بهمة ونشاط .. دائما له نفس الهيبة تـ ن نظراته الصارمة ووجهه ذو الملامح الشديدة التركيز ووقفته النشطة .. كان يحبه ربما لأنه شديد الشبه بأبيه فى قوته وهيبته وتسامحه وطيبته .

وانتهى محمد من تنظيف الماكينة والأرض وأصبح المكان مناسباً لإستقبال الأسطى حسنين الذى كثيرا ما مدح اجتهاد محمد ونظافته وأنه غير كثيرين من العيال التنابله الذين يدخلون المصانع كالعجين الذى لم يخمر فلا ينفعون ولا يربحون ولا يجنى منهم الاسطوات الا وجع القلب وحرق الدم . كان الأسطى حسنين يقول له كلما كان رائق المزاج :

— يا سلام يا واد يا محمد يا ابنى .. انت بكره حاتبقى عال .. حاتبقى أسطى نضيف وتقف ع الماكينة لوحدك .. زيى كده ..

فينشرح صدر محمد بهذه الكلمات ويقول :

— صحيح يا أسطى ؟

صحيح يا محمد

— طب علمنى والنبى يا أسطى

— خليك زى م انت كده .. خد بالك منى .. خلى عينيك تراقبنى

كويس فتح عينيك وحط كل حاجة قدامك فى مخك واوعى تنساها ..
بكره تبقى أسطى كبير يا محمد .

ويفرح محمد فالأسطى حسنين وعده بمستقبل عظيم بلا شك ..
ومحمد لم يكن يتمنى أكثر من هذا المستقبل بل إنه كان يظن أن وصوله إلى مستوى الأسطى حسنين مسألة ليست سهلة كما يصورها الأسطى له فهو ما زال صبيا لم يخط شاربه بينما الأسطى حسنين رجل كبير وقوى وفوق ذلك فله شارب كالشوك وذقن دائمة النمو ، وزوجة وثلاثة أولاد ونظارة طبية يرتديهـــا وهو واقف أمام المكنة ، والأهم من ذلك أن الأسطى حسنين يقبض فلوسا كثيرة فى نهاية الأسبوع ويجلس على طرف المكنة بعد كل قبضية ليحسبها ويرتب الأرقام فى مخه ثم يطويها فى جيب العفريتة السرى ويذهب إلى منزله . فأين هو منه ! لا شك أن الأسطى حسنين يحبه كثيرا والا ما قال له هذه الكلمات الكبيرة المشجعة التى تحتاج إلى سنين طويلة لتتحقق . هكذا كان محمد يرى نفسه وهكذا كان يرى الأسطى حسنين .

دخل الأسطى جاد الله زميل الأسطى حسنين إلى العنبر وألقى تحية الصباح على زميله فقد إعتاد أن يصل بعد وصول زميله بعدة دقائق . ولكن لم يسمع صوت الأسطى حسنين وانما تناهى إليه بخوف صوت محمد يقول :

— الأسطى لسه ماجاش يا أسطى

فرد الأسطى جاد الله بصوته الخشن على كلمات الصبي بقوله :

— ليه .. حصل ايه ياواد يامحمد .. ايه اللى أخره .. اللهم أجعله خير .. الله ده حاجة توغوش ياواد .. ده الاسطى حسنين عمره م اتأخر .. ياترى فيه ايه ؟

— مفيش حاجة يا أسطى .. ادينى جيت اهه

كان المتحدث هو الاسطى حسنين الذى دخل بسرعة ووقف خلف المكنة ثم ادارها كأنه موجود فى العنبر منذ ساعة بينما راح الاسطى جاد الله يقول :

— خضتنا عليك يا أسطى

فيقول حسنين بأسلوب يفهم منه أنه لا يريد تضييع مزيد من الوقت فى الثرثرة .

— بسيطة يا أسطى .. الحمد لله

ويمسك بيده المواسير الحديدية ويدخلها فى المكنة فتخرج من الناحية الأخرى قطعا متساوية من المواسير « المقلوظة » ويظل محمد يتابعه باهتمام ويحمل إليه المواسير من الأرض ويمسكها بيده النحيلة فتظل ترتعش حتى يأخذها منه الأسطى بين يديه القويتين ويدخلها المكنة . لم يكن الأسطى حسنين يحب الكلام أثناء العمل ، ولم يكن يفتح فمه الا فى الصباح عند حضوره ، وفى الظهر عند استراحة الغداء مع زملائه

الأسطوات فيبدو بينهم كأنه رجل آخر كثير الضحك والتنكيت ، وفى المساء عندما ينتهى من عمله ويأخذ محمد فى يده ولا يتركه الا عند عجلته بعد أن يوصيه وصيته اليومية .

— خلى بالك يا محمد .. امشى على جنب .. ما تجريش قوى .. ماتنطش الإشارات عشان العساكر ميمسكوكش .

ويجيبه محمد برضا الشاكرين لهذه العناية الخاصة من معامه :

— ما تخفش يا أسطى .. ح أخد بالى كويس . مع السلامة يا أسطى

* * *

لم يكن الأسطى حسنين هذا اليوم كعادته فى كل يوم فقد جاء متأخرا عن موعده عدة دقائق .. وعندما جلس بين الاسطوات بعد الغداء ليشرب الشاى لم يضحك كعادته ولم يقل أى نكتة وإنما ظل ساكتا وعقله شارداً مع أنه منذ قليل كان يواجه المكنة بنفس النظرات النافذة والوجه الصارم والأيدى القوية .. ترى ماذا جرى له ؟ راح الأسطى جاد الله يسأله عما به ولكنه لم يتكلم حتى استحلفه جاد الله بالاخو والعيش والملح ما يخفى عنه شيئاً فانفجر الاسطى حسنين كالبركان الذى ظل مكتوما زمنا طويلا حتى وجد ثغرة ضعيفة فانفجر :

— منحول أبو الدنيا يا أخى . الواحد شقيان طول النهار زى الحمار والآخر أرجع البيت لا ألاقى لقمة حلوة ولا حتى كلمة حلوة و بسلامتها

طول النهار قال ايه .. فى أبو الريش عشان الواد قال ايه عيان والا أنا عارف ماله .. دى عيشة زفت بعيد عنك ربنا يتوب علينا من صنف النسا وقرفهم .

ويقاطعه جاد الله مهدئا :

— هدى نفسك يا أسطى حسنين .. مش كده أمال .. فيه ايه .. سلامة الواد .. مه النسوان برضه غلابة .. أنت فاكر أنك أنت لوحدك اللى بتشقى .. مه برضه قاعدة تكنس وتغسل وتطبخ وترضع .. مه برضه شقا ياأسطى ..

— ياعم بلا شقا بلا بتاع .. دول همه اللى خلاص اتنكسوا . . مبقوش ينفعوا ياأسطى .. تعبوا خلاص .. بيهربوا من شغل البيت ويدوروا فى الشوارع وقال ايه فى أبو الريش .. يعنى أنا كانت أمى ودتنى أبو الريش .. مه أنا اهه .. مامتش ولا حاجة .. عايش اهه وزى الحديد .. امال الكمون والينسون اتخلقوا ليه ؟

— بقى كده يا أسطى حسنين . . الحكاية مش زعل يعنى . . الظاهر انك عاوز تغير الصنف ؟

— أغير ايه يا راجل اعقل ده انا عندى تلاتة . . انما ارجع البيت ملاقيش لقمة آخد طبق واروح أجيب سلطة وطمية واتعشى وهى قاعدة تندب . . تبقى ده عيشة !! . اشقى طول النهار ومعرفش آكل لقمة حلوة ؟!

— صه معذوره برضه . . ما دام ألواد عيان تطبخ إزاى . . تلاقيها طول النهار دايخة فى أبو الريش لحد ما جابت له شوية دوا . . آه . . برضه معذورة . بإذن الله سليمة يا أسطى . . إنشاء الله حا ترجع النهاردة وتلاقى كل حاجة « ألسطة » .

ثم مال الأسطى جاد الله على زميله واستمر بينهما حديث همساً دون أن يفهم محمد شيئاً مما دار بينهما لكنه ضحك وامتلأ قلبه بفرحة حقيقية لأنه رأى الأسطى حسنين يضحك ، ويقهقه ويكح بشدة قبل أن ينهض إلى مكنته من جديد ويقف خلفها بعينيه النفاذتين ووجهه الصارم وذراعيه القويين وعند قدميه يقف محمد يحمل المواسير بيديه الضعيفتين وعيناه تتطلعان إلى المكنة التى تدور ويدى الأسطى حسنين وهما تدخلان فيها الماسورة فتقطها وتخرج من الناحية الأخرى « مقلوظة » ، ويحلم باليوم الذى يقف فيه أمام المكنه ويضع فى فمها الماسورة فتقطعها وتخرجها من الناحية الأخرى مقلوظة بعد أن يكون شاربه قد أصبح كشارب الأسطى حسنين وذقنه دائمة النمو وذراعيه مفتولان كذراعى الأسطى ، وبينما الأسطى حسنين مندمج فى عمله مر عليه الريس « فتوح » وأمسك بيده بعض المواسير المقلوظة ثم قال للاسطى حسنين : خلى بالك يا أسطى . . المواسير فيها رايش . . أضبط الصواميل كويس فيوقف الأسطى حسنين العمل ويقول للريس فتوح وهو يبتسم ابتسامة المعتذر :

— حاضر ياريس . . أشوفها . . من عينى .

وينحنى الأسطى حسنين على المواسير ويتأمل فيها ثم يمط شفتيه ويقول بعد أن يكون قد تأكد أن الريس فتوح أصبح بعيداً عن العنبر كله :

— رايش أيه يا أبن الرايش . . هو حد فيكوا يقدر يطلع شغل زى ده . . عجايب .

فينظر إليه محمد كالمعتذر لأنه لا يحب أن يرى أى مخلوق يسبب له الزعل ولكن الأسطى حسنين يقول . . محدش يقول كويس أبداً . . هم كده يا أبنى يامحمد .

فينتهزها محمد فرصة ليقول له :

— معلهش يا أسطى .

ويحمل الصبى المواسير بين يديه ليعطيها للأسطى حسنين ولكنه يعيدها مرة أخرى إلى الأرض بعد أن أشار له الأسطى بعدم حملها الآن وإعادتها إلى مكانها .

كانت الأصوات تتناهى من كل مكان مرحبة متملقة .

— صباح الخير يا باشمهندس . حمد الله ع السلامة يا باشمهندس . . نورت المصنع يا باشمهندس .

ويقف الأسطى حسنين مرتبكا ويتظاهر أنه يضبط المكنة وإن كان فى الحقيقة خائفاً ممتقع الوجه فهو لا يخاف أحداً فى هذا المصنع إلا هذا

المهندس الصغير الذى لا يعجبه عمل أى أسطى ودائماً يوجه لهم اللوم العنيف والزجر بأن أى عامل فى أوربا يطلع شغل أنضف من شغل الأسطوات اللى قدامه . . والغريب أنه دائماً يخرج فى الشغل عيب فنى لا يستطيع أى أسطى أن ينكره فيسكتون ويستمر هو فى النقرزة ثم يضرب الشغل برجليه ويقول :

— الشغل ده حنوديه وكالة البلح نبيعه بالوقة ياأسطوات .. عاوز أشوف شغل نضيف وإلا نقفل المصنع أحسن ونوفر فلوسنا .

غريب أمر المهندس زين . . والأغرب منه التحول العجيب فى شخصية الأسطوات أمامه . الأسطوات ذوى الهيبة والأيدى القوية التى تسلق أقفية الصبيان بالطلطيش والأرجل التى لا تمل الشلاليت .

غريب أن يتحول هؤلاء الأسطوات إلى صبية صغيرة خائفة ومرتعشة أمام الباشمهدس زين أبن صاحب المصنع الذى يرتدى البنطلون الأبيض والقميص الحريرى الأبيض ويفهم سر المصنع بدقة ويستطيع أن يحل محل أى أسطى ويخرج شغل أنظف منه . ومحمد لا ينسى أول يوم عاد فيه المهندس زين إلى المصنع بعد أن أنهى دراسته فى كلية الهندسة قسم الميكانيكا بألمانيا وعاد إلى مصنع أبيه وسار فى المصنع كالديك المنفوخ وراح يسخر من الأسطوات وسوء إنتاجهم فتقدم منه الأسطوات الكبار الذين رفعوا المصنع على أكتافهم كما قال فى ذلك اليوم وقال له إن العبرة ليست بالكلام ولكن بالعمل واحنا بنشتغل هنا وانت لسه بتلعب فى حوش المصنع والبيت

يعرف مين اللى مخلص فى شغله ومين اللى بيغشه ، فقال له المهندس زين أن هذا الكلام لا يساوى شيئاً واحنا مبيهمناش الإخلاص إنما يهمنا الشغل النظيف وعنك ما أخلصت فترك الأسطى المكنة محتجاً وقال للمهندس إنه مش حيشتغل وعليه إنه يروح يدور على أسطوات على كيفه وألا يجيب أسطوات من ألمانيا أحسن ، وبدأ يحتج بأن شغله هو أنضف شغل فى المصنع بل أن شغلهم هو أنضف شغل فى البلد كلها وأنه مش ناقص عيل لسه جاى من بره عشان يعلمه أصول الشغل . وطبعاً المهندس زين كان لازم يتهوش . لكنه لا أتهوش ولا حاجة إنما دخل ورا المكنة ومسك الشغل بتاع الأسطى على وراح يشتغل كأنه مولود ع المكنة ومسك شغله بأيديه ودار يوريه للاسطوات .. ويقول بصوت المنتصر :

— آدى الشغل يا أسطوات . . الماسورة ناعمة زى الحرير . . أنا مبسحرش ، بس بشتغل بعقلى مش مكنة واقفة قصاد مكنة . . وكانت النتيجة أن العمال أتكبسوا وخرج الأسطى على من المصنع ومدخلوش تانى . . من يومها والباشمهندس زين يثير الرعب فى كل المصنع .

غريب أمر المهندس زين . . ترى ما سر هذه القوة الغريبة التى قلبت موازين القوى فى هذا المصنع ؟ أمام عينى الصبى . . أيعود السر إلى أنه ابن صاحب المصنع ؟ كلا فصاحب المصنع نفسه رجل طيب ودود يدور بين الأسطوات ويحييهم ويضحك معهم فكلهم كما يقولون بنوا معه هذا المصنع على أكتافهم . . وميزان القوى فى هذا المصنع يقول أن أكبر رأس فى المصنع هى رأس الحاج زيدان صاحبه وأبو الباشمهندس زين ،

ويلى الحاج زيدان فى الأهمية فاروق بيه المحاسب ثم رئيس العمال «فتوح» ثم الأسطوات .. هذه هى الخريطة التى رسخت فى عينى الصبى منذ دخل المصنع إلى أن رأى المهندس زين . وهذه الخريطة هى التى رسبت فى خياله الصغير مستقبله بدقة فهو بعد أن يكبر ويقوى ساعداه وينمو شاربه ويتزوج ويصبح عنده ثلاثة أولاد سيقف أمام الماكنة التى يقف عليها الأسـطى حسنين ويصبح رأساً من الرؤوس الهامة فى المصنع ولا يستطيع أى شخص أن يوجه له كلمة إهانة أو زعل . فمن يكون هذا الباشمهندس الشاب الذى يصغر فى العمر كثيراً عن الأسطى حسنين ويبدو ذراعه نحيلا وجبينه ناعماً ولا أثر فيه لذقن أو شـارب .. من يكون هذا المهندس وبأى حق يتحدث بهذه اللهجة الآمرة الساخرة والجميع أمامه كالإبن المذنب أمام أبيه الغاضب ؟

كان لابد أن يجد جواباً لسؤاله فانتهز فرصة يكون فيها الأسـطى حسنين رائق المزاج ليسأله :

— يطلع مين يا أسطى الباشمهندس زين ده ؟

فنظر إليه الأسطى حسنين نظرة زاجرة ونظر حواليه ثم تمالك نفسه وقال :

— وأنت عاوز منه ايه يا محمد ؟

— أصله كده نازل شخط كأن محدش قده .

— له حق يا محمد .. الباشمهندس زين متعلم .. معاه الهندزة .. إنما

احنا واخدينها بالنظر .. أنا وأنا صغير كنت زيك كده ولما كبرت وقفت ع المكنة . . . انما هو واخدها بالعلم . . دخل الهندزه وخد الشهادة .

فسكت محمد وهو غير مقتنع أو غير فاهم لما يقوله الاسطى ، ولم يجد في نفسه الجرأة ليستزيد فى الأسئلة خشية ان ينفذ صبر الاسطى حسنين الذى لا يحب الكلام الكثير . ولكنه عندما عاد إلى بيته جلس إلى أبيه يسأله عن شهادة الهندزة فاندهش لأن أباه ضحك ضحكة مفاجئة وقبل ولده وهو يقول :

ـــ الهندسة دى يا محمد أعلى شهادة فى الدنيا . ما بياخدهاش أولاد البهوات

ـــ ليه يا آبا ؟

ـــ أصلها عاوزه صبر

ـــ بس ؟

ـــ أيوه

ـــ لكن الواحد ياخدها ازاى يا آبا ؟

ـــ ياخدها يابنى .. التلاميذ لما يدرسوا فى ابتدائى وياخدوا الإبتدائية، وبعدين يدرسوا ثانوى وياخدوا الثقافة ، وبعدين التوجيهية ، وبعدين يدخلوا الجامعة ويطلعوا منها مهندسين ودكاتره ومحامين .

— ياه .. ده باين عليها صعبة قوى

— مافيش حاجة سهله يامحمد .. لكن انت بتسأل ليه ؟

— لا .. مافيش

وسكت محمد مرة ثانية ، لكن عقله لم يسكت وقلبه لم يهمد فهو يريد ان يكون مهندساً . انه لم يعد يقنع بوظيفة أسطى .. انها ليست أعظم وظيفة فى الدنيا كما كان يتصور ، أصبح هناك وظيفة أرقى كثير بل وظيفة تهتز لها كل الوظائف وكل الناس .. وظيفة لا تلبس فيها العفريتة ولا تقف كالمصلوب أمام المكنة ومع ذلك يخشاك بها كل أصحاب العفاريت الزرقاء ولا شك أن الدنيا كلها تخشاك بها .. الهندسة كما يقول أبى أو الهندزة كما يقول الاسطى حسنين .. صحيح طريقها صعب قوى .. لكن لازم أروح له .. وضرورى ابقى مهندس .

الفصل الثالث

ظهرت نتيجة الشهادة الإبتدائية وطبعت الجريدة أرقام الناجحين وامتلأت الشوارع بالتلاميذ وباعة الصحف والكل فى سباق عجيب ليشترى الجريدة . وأسعار الجريدة تنقلك بسرعة إلى البورصة وحالها . قرش .. قرشان .. خمسة .. عشرة ، لا مانع ، الكل على إستعداد أن يدفع ويشترى الجريدة . والباعة يصيحون رغم الزحام الشديد حولهم . عشرة تلاميذ . . عشرون . . خمسون . . ومئات الأصابع تتخاطف الجريدة وتدور العيون باحثة عن الرقم .. خمسة آلاف ؟ نعـــم وقف ابراهيم وسط هذا الزحام وكاد ان يختنق فجسمه النحيل وقامته القصيرة وبنيته الضعيفة أشياء لا تمكنه من المصارعة ، ولكنه بقوة دفع عجيبة اقتحم الزحام وأصبح فى قلب الباحثين .. نعم ٥١٩٠ هذا هو الرقم .. نجحت .. أصبحت حاصلا على الشهادة الإبتدائية أصبحت تملك الشهادة التى يكتبها أفضل خطاطى البلد وعليها التاج وفيها اسمك واسم أبيك ، وتاريخ ميلادك بالسنة الهجرية والميلادية وفيها توقيع وزير المعارف الذى يشهد بأنك نجحت فى الشهادة الإبتدائية ، أمسك ابراهيم الجريدة فى يده وراح يصافح زملاءه مصافحة الند للند لأول مرة منذ دخل المدرسة أخيراً أصبح من خريجى المدرسة الذين سيكتب اسمهم على لوحة

الشرف فقد نجح بتفوق . لم لا يكون كلكل زملائه أولاد الأفندية الذين يرتدون ملابس أفخر من ملابسه ويركبون الترام فى تنقلاتهم من البيت إلى المدرسة وبالعكس ، بينما هو مضطر أن يقطع المسافة من البيت إلى المدرسة سيراً على الأقدام لأن الشارع الذى يسكن فيه لا يسير فيه ترام ولا أتوبيس وأنه إذا خرج من شارعه إلى وش الدنيا بعد أن يقطع مشوار كل يوم لن تكون المسافة بينه وبين المدرسة بعيدة تستحق أن يدفع فيها « الملاليم الستة » ثمن تذكرة الترام وهو لا يأخذ من أبيه كل يوم الا مليما واحدا ومن أمه سندويتش فول .

لم لا يكون ككل زملائه ، بل أفضل من بعضهم بعد أن نجح ورسب غيره من زملاء المدرسة وخصوصاً هذا الطالب المتعجرف الذى يقف دائماً مع شلة من أولاد الذوات يضحكون ويدخنون السجائر الراقية بعيداً عن عين الإدارة ولا يجرؤ أحد من المدرسين على التعرض لهم . الغريب ان هذا الفتى المتعجرف أحمد قنـــاوى ترك زملاءه متجهاً إلى ابراهيم مهنئاً ..

— مبروك يا ابراهيم ..

لكنه لم يظهر عليه أى تأثر أو حزن على رسوبه وكأن النتيجة لا تعنيه فى شىء وانتظر حتى يرد عليه ابراهيم ..

— الله يبارك فيك يا أحمد .. كنت أحب ...

لكن أحمد قاطعه بيده قائلا كأنه لا يريد أن يسمع ما سيقوله له ابراهيم ويؤثر على موقفه المتسيد .

ـــ إذا فكرت تدور على وظيفة ابقى تعال عندى فى البيت وانا أكلم لك بابا يوظفك عنده فى المصلحة .

فنظر إليه ابراهيم مغتاظا مبهوتا لا يعرف ماذا يقول له . . انه يريد أن يشعرك أنه غير مهتم بمسألة النجاح والرسوب .. وفى نفس الوقت يقدم لك مساعدة مجانية للعمل فى وقت لا يجد فيه أحد وظيفة .. ترى من يكون أحمد قناوى هذا .. أهو بحق صديق وزميل طيب ويخدعك مظهره وطبقته الإجتماعية باعتباره ابن واحد من كبار موظفى الدولة ، أو أنه خبيث يريد أن يقلل من قيمتك ويكسر من غرورك حتى وانت تحيا أجل لحظات عمرك على الاطلاق . فمتى تحصل على شهادة أخرى تعيش بها أياما أخرى من أجمل أيام عمرك ؟

ـــ هل تكمل دراستك ؟ .. هل يستطيع أبوك أن يساعدك حتى تكمل دراستك ؟ وهل أنت مستعد حقا لا كمال دراستك ؟ مستعد للبقاء فى بيتك القديم الفقير مع امك واخوتك وأبيك القوى الشديد .. تنهض بالأمر ، وتنام بالأمر لاخروج .. لافسح .. لالعب لابهجة .. ومرح الحياة الذى تخرق أذنيك . سماع قصص من زملائك أمثال أحمد قناوى إذا تواضعوا وتحدثوا إليك ، أو إذا هفك الشوق فتسللت إلى وقفتهم فى كل فسحة لتسمع دون أن يدرى بك أحد منهم كأنك كومبارس فى جوقة لا يشعر بها أحد ، أشياء أنت محروم منها فهل تستمر محروما ؟ . نظر ابراهيم إلى أحمد قناوى وقال وابتسامة ثقة وسعادة تعلو شفتيه :

ــ شكرا جزيلا يا أحمد ..

ومد له أحمد يده وقدم له كارت قائلا :

ــ خد الكارت ده فيه العنوان و نمرة التليفون اتصل بى قبل حضورك عشان أكلم بابا .

هذه المرة أمسك ابراهيم الكارت بامتنان وعاد لمصافحة أحمد بحرارة وهو يقول :

ــ متشكر قوى يا أحمد .. ربنا ما يحرمناش منك ولا من الولد .

فنظر إليه أحمد قناوى بثقة وقال :

ــ استأذن .. أكرر التهانى يا ابراهيم

ــ مع السلامة .. شكراً يا أحمد ..

* * *

فى البيت كانت الأم تبل الشربات وتملأ الأكواب وتدور بناتها عديلة وعائشة وأمينة على الجيران فى الحارة وتسقيهن شربات نجاح ابراهيم بينما تحمل بائعة ابنة عم حسن العربجى دورق وكوب وتدور على الدكاكين المنتشرة فى الشارع وتقدم لأصحابها شربات نجاح ابراهيم فى الإبتدائية وكثير من أصحاب الدكاكين يسأل عن ابراهيم هذا من يكون ؟ فتضطر بائعة إلى وصفه لهم ، ودائما تقول :

ــ ابراهيم ده .. ابن عم أحمد الحسينى .. الراجل الطيب اللى بيشتغل فى ورشة « صادق »

ويهز أصحاب الدكاكين رؤسهم يقولون :

— طيب يا بتمة .. قولى لأمه مبروك ..

ولكن باتمة لا تتحرك وانما تسأل هى الأخرى :

— يعنى ايه إبتدائية ياعم ؟

فيقول البائع :

— ياه .. ده حاجة كبيرة قوى يا باتمة

فتهز البنت رأسها علامة الفهم وان كانت لم تفهم شيئا لكنها تظل فى حالة اندهاش لأن ابراهيم صاحب هذا المولد لا يزيد على أى عيل من عيال الحارة الذين تلعب معهم « الاستغماية » و « الأولى » وان كان لا يقف في الحارة أبداً ولا تراه إلامرة واحدة وهو عائد من المدرسة أما عند ذهابه إلى المدرسة فلا تراه لأنها تكون نائمة . وكثيراً ماحاولت أن تستيقظ مبكرة لتشاهده ، وهو ذاهب إلى المدرسة ولكنها كانت دائماً تستيقظ متأخرة ..

في المساء كان الأب يدخل من باب الحارة وفى عينيه فرحة حقيقية ربما لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل .. منذ مات أبوه وحمل وحده فوق رأسه هم أسرته وأصبح عليه وحده أن يدبر لأمه وأخته الطعام وإيجار المسكن بعد أن ذهب أخوه أمين بعيداً عن الأسرة ولم يعد ، يعرف عنه أى شيء .

كان الأب يدخل من باب الحارة نشواناً فأقبل عليه بعض الجيران وراحو يصافحونه ويباركون له نجاح إبنه إبراهيم والرجل يرد تهانيهم ويشكرهم دون أن تسعفه الكلمات فيعبر عن امتنانه . بنظرات طيبة وحشرجة فى صوت مبحوح من فرط السعادة إلى دعوات فى فمه ودمعات فى عينيه .

دخل الأب منزله . وأخذ ابنه فى حضنه يبارك له ويحمد الله الذى بارك له فى أولاده وعوض صبره خيراً ، ثم جلس وأجلس إبنه بجواره وراح يسأله عن قراره :

— ودلوقتى يا إبراهيم ناوى تعمل إيه ؟ تكمل دراستك فى ثانوى والا تشتغل ؟

لكن إبراهيم لم يجب . واستمر صمته فترة غير قصيرة . كان الجميع يجلسون حوله أمه وأخوته البنات ومصطفى ومحمد أيضاً ورضا الطفل ، والرضيع على كتفى أمه . . واستمر صمته حتى كاد أن يشعر أنه أصيب فجأة بالبكم « ناوى تعمل أيه يا أبى ؟ » إنها كلمات تصيب بالدوخة ولا شك . أبى يكلمنى ويسألنى عن مصيرى ؟ أهذا معقول ؟ أبى الذى كان إلى عهد قريب لا يجيد وسيلة للحوار بيننا إلا العصا يتحول فجأة ويسألنى عما قررت بمستقبلى ؟ أهذا معقول أم أننى أحلم ؟ وماذا أقول ؟ كيف أجيب فى مثل هذه المواقف ؟ أنا لا أعرف ماذا أقول ؟ لم أتعلم ما يقال فى هذا الموقف ؟ لم ندرسه فى المدرسة ؟ ولماذا يسأل ؟ هل سبق

أن سألني عن مشروعاتي المستقبلة ؟ هل أخذ رأيي قبل أن يلحقني بالمدرسة؟ فلماذا يسألني اليوم ؟ أنا لا أعرف ؟ لا أعرف بماذا أرد .

عاد الأب ينبهه بهدوء قائلا .

ــ هيه . . ناوى تعمل إيه يا ابراهيم .

تنبه ابراهيم ، فقال :

ــ اللى تشوفه ياابا

فقال الأب بحنان حقيقى :

ــ لا ياابراهيم . مش اللى أشوفه . . ده مستقبلك يا أبنى ، وأنا مستعد طول م أنت ماشى فى المدرسة أعلمك واصرف عليك دم قلبى .

ــ يا ابا احنا كثير وإذا علمتنى مش حاتقدر تعلم مصطفى ولسه اللى حايطلعوا وعندنا بنات . . وأنا باقول الابتدائية مش وحشة لو قدرنا نلاقى شغل فى الأيام دى . .

فقال أبوه :

ــ يا أبنى اللى تشوفه . . وأنا أكلم على أفندى إذا كان يقدر يساعدك يبقى كويس وبرضه ندور على واسطة غيره ضرورى ربنا حييسرها . .

قالت الأم :

ــ خلى على أفندى على أنا . . أنا بعت لست أم عبده زوجته عشان أزورها النهاردة وهى تقدر تكلم جوزها . وتخليه يعمل كل جهده . .

فقال ابراهيم .

— وأنا كان معايا كارت من واحد زميلى بيقول إنه يقدر يساعدنى إذا جيت اشتغل . وراح يبحث فى جيبه عن السكارت ثم أعطاه لأبيه الذى أمسكه وقرأه فاتسعت حدقتا عينيه ثم قال :

— وساكت ليه يا ابنى .. حد يبقى معاه الكارت ده ويسكت ؟

فنظر ابراهيم إلى أبيه مندهشا وقال :

— فيه إيه يا ابا ؟

— فيه إيه ؟ ده انت معاك مفتاح العمل فى الحكومة يا ابنى . انت مقريتش السكارت ده ؟

— لا والله .. ده زميلى إدانى السكارت فأخذته .

نظر إليه الأب غير مصدق ثم قال :

— ده يا ابنى السكارت بتاع أبوه « فريد بك قناوى » مدير البريد

— وده يقدر يشغلنى صحيح ؟

— يقدر ؟ ده يقدر يشغلك فورا

وابتسم جميع من فى البيت سعادة وهم يجدون أن عمل ابراهيم أصبح أمرا سهلا بفضل هذا السكارت العجيب .

وتابع الأب حديثه :

— ياللا بينا .. كلم زميلك فى التليفون وحدد معاه موعد . . واستأذنه انى آجى معاك عشان أكلم والده

ـــ وفين نلاقى التليفون ؟

ــ مفيش تليفون غير عندنا فى الورشة .. تعالى

وخرج الأب مع إبنه وهو يقول لزوجته :

ــ انتى برضه تروحى لست أم عبده وتكلميها ..

ــ طبعا .. لازم نمسك الحبال كلها

ــ اهو كده

وأمام التليفون وقف ابراهيم يدير الرقم بارتباك شديد والعرق يتصبب منه وأبوه يقف بجواره أمام المكاتب اللامعة للموظفين الذين يملأونها بالسجائر والأوراق والتجهم .

ـــ آلو .. أحمد موجود ؟ .. انا زميله . ابراهيم الحسينى ... مساء الخير يا أحمد ... ممكن آجى أزوركم ؟ ... أيوه . ووالدى ممكن ييجى ؟.. ممكن ؟ ... آجى ... متشكر قوى ... مع السلامة .

فى الموعد كان ابراهيم وأبوه يقفان عند باب المصعد يسألان الحارس النوبى عن الدور الذى يسكن فيه أحمد بك قناوى ، ثم دخلا المصعد ومعهما الحارس الذى ضغط على الرقم تسعة وعند باب الشقة قال :

ـــ هنا شقة أحمد بك

فشكره الأب ، ثم تباطأ الحارس أمامهما حتى فتح الباب ودخلا فنزل .

جلس إبراهيم فى غرفة الصالون الفخمة وراح يتطلع إلى السجادة والرسوم والنقوش عليها ثم يتحسس بيديه نعومة القطيفة التى كسيت بها الكراسى ثم يتأمل الستائر والمرايات المعلقة والزهرية التى وضع فيها باقة من الورد الأحمر . . والطفايات اللامعة . . .

ما هذا العالم ؟ أهذا بيت أحمد ؟ أهذ معقول ؟ أين أنا منه . . المدرسة . . . الشهادة تصنع كل هذا ؟ وكيف لا يحزن هذا المجنون وهو يعلم أنه لو لم ينجح لضاع منه كل هذا العز ؟

وجده أبوه شارداً فراح يحدثه حديثاً أشبه بالهمس وهو يبتسم ابتسامة يشجع بها أبنه ونفسه :

— تعرف أحمد زميلك كويس ؟

— أعرفه م المدرسة .

— باين عليه ولد مؤدب وطيب وإلا مكانش قدم لك المعروف ده . أنت لازم تشكره يا إبراهيم لما ربنا يتم لك بخير .

فتح الباب ودخلت الخادمة وبين يديها صينية عليها فنجانان من الشاى ثم خرجت مسرعة بعد أن قدمتهما ثم فتح الباب ودخل زميله أحمد يرتدى بيجامة حريرية وفوقها روب دى شامبر نبيذى اللون وقال وهو يقف عند الباب بصوت جهورى :

— أهـلا

ثم تقدم وصافح الأب ثم إبراهيم قائلا :

ـــ أزيك يا إبراهيم . . هه . . نويت تشتغل . . كويس . . أنا كلمت بابا بخصوصك . . كان زعلان قوى عشان ما استأذنتوش قبل ما أوعدك بالعمل عنده لـكن فى الآخر وافق حايبجى دلوقت يسلم عليـكوا وتقدر تـكلمه من غير حرج . .

نظر إليه ابراهيم سعيداً وقال :

ـــ متشكر قوى يا أحمد

بينما راح أبوه يتطلع إلى السماء ثم يتجه إلى أحمد ويقول له بامتنان حقيقى :

ـــ أنا متشكر جداً ياأحمد بيه ، وأرجو أن تبلغ شكرى للبيه الـكبير . . وربنا ما يحرمناش منـكم . .

ـــ العفو يا سيدى

وفجأة فتح الباب فدخل رجل مهيب يرتدى بدلة كاملة وكرافتة ويضع البايب فى فمه . وقف الجميع حتى ابنه أحمد وقف وراح الرجل المهيب يتطلع إلى إبراهيم ثم ينقل بصره إلى أبيه ويبدو أنه قرر رأياً سريعاً فهز رأسه وابتسم ابتسامة متواربة وتقدم نحوهم ومد يده قائلا :

ـــ أهلا وسهلا . . الولد الشقى ده أحرجنى النهاردة مع أبنك . . أنتو معندكوش فـكرة عن الأزمة . . مفيش وظايف الأيام دى . .

فبدأ الأب يهتز وبدأت ابتسامته تبهت وراح يقول :

— والله يا بيه حضرتك لو تعرف حالنا تعذرنا قوى . . أحنا جينا متعشمين فى الله وف حضرتك .. وسعادتك إنشاء الله مش حاتخذلنا ..

فتدخل أحمد وقال بدلال

— عشان خاطرى أنا يا بابا دول ناس طيبين وأنا وعدت ابراهيم بوظيفة فى البريد .

فنظر إليه أبوه وقال بابتسامة منتشية .

— أنت دايماً ولد متسرع .. حاضر يا سيدى . .

ثم عاد إلى تجهمه وقال :

— أنا ح أبذل أقصى جهدى لمساعدتك . . اكتب طلب باسم سعادة مدير عام البريد باسلوب كويس وخط جميل وهاته لى بكره فى مكتبى الساعة تسعة صباحاً ، وانشاء الله يكون خير .

فنهض الأب وأمسك بيد البيه وأراد أن يقبلها لولا أن الرجل سحب يده وقال

— أستغفر الله

— ربنا ميحرمناش منك يا بيه ، ويبارك لك فى البيه الصغير ويخليك ليه ويتربى فى عزك

— شكراً يا أحمد أفندى

ثم نهض فنهضوا جميعاً وقال .

— منتظرك بكره يا إبراهيم

فقال أبوه :

— بإذن الله يا بيه ربنا ميحرمناش منك

كان ابراهيم يتصبب عرقاً مما حدث . . فقد أذهله أبوه فى تصرفاته كيف يفعل هذا أمام زميله الذى كان ينظر إليه إلى عهد قريب نظرة الند للند . . كيف يقلب أبوه الميزان بهذا العنف وتلك الحدة . . لمجرد أن البيه قال أن أبنه أحرجه مع صديقه . . أهو الخوف أم الذلة ؟ . . وكيف يقف من زميله بعد الآن موقف الند لنده ، وكيف يقف من أبيه بعد ماكان منه وقفة الأبن من أبيه . . أنه شىء يدير الرأس .

لكنه عندما وقف يصافح زميله أحمد وجد نفسه يردد بتلقائية كلمة الشكر متبوعة بلقب بيك :

— متشكر جداً يا أحمد بيه

وخرجا . . نزلا على السلالم . . بل نزلا من جنب الحائط كأنهما قد لصقا بالجدار وعندما وصلا إلى باب العمارة كان الحارس جالساً فلما رآهما لم يقف كعادته بل وضع رجلا على رجل ورد على سلام الوالد عليه بقنزحة وعدم اكتراث ، وعندماكانا يعبران الشارع أمسكه أبوه بشده من يده قائلا :

— حاسب ياولد . . مش شايف العربيات ؟

ولم يكن ابراهيم يرى شيئاً . . لا العربات ولا والده فلما وصل الترام أمسكه أبوه من يده بقوة حتى صعد فوقف بجواره فى الزحام قائلا :

— مالك ؟ فيه إيه ؟

— ولا حاجة . . بس عندى شوية وجع فى دماغى

وربت الأب على كتفه قائلا :

— لما تروح خللى أمك تعمل لك كباية شاى وليمون . .

— إن شاء الله . .

— وهبطا من الترام وسارا فى الطريق إلى البيت وعند باب الحارة كان عم حسن العربجى يجلس وأمامه تعميرة فنهض وراح يسلم باحترام على الأب ويبارك نجاح أبنه بينما خرجت زوجته من مندرتها على صوت التهانى . . وأخذت ابراهيم فى حضنها السمين قائلة :

— ألف مبروك ياسى ابراهيم أفندى

— الله يبارك فيكى ياست

ثم انفك من حضنها وسار بسرعة إلى أمه . . أنه لايريد أن يشرب شاياً ولا ليمون . أنه يريد أن ينام فهو منذ خرج من منزل زميله وهو يشعر بالدوخة ويرى العالم كله يدور به بعنف لا هوادة فيه . .

الفصل الرابع

كانت الأم تشرب القهوة مع الست أم زينب والمرأتان تتبادلان حديثا وديا عن الحال والأولاد ومشاكل الدنيا ، ويتبع كل جملة من احداها تنهيدة من الأخرى أو آهة تؤكد بها تعاطفها معما تقوله زميلتها: وبعد أن انتهتا من شرب القهوة أصرت الست أم زينب أن تقرأ لجارتها الفنجان إلى أن يعود زوجها الشيخ السويفى بالحجاب الذى طلبته الأم لحماية ابنها ابراهيم فى غربته بعد أن جاء تعيينه فى محافظة البحيرة بعيدا عن أمه مسيرة ست ساعات بالقطار القشاش .

وراحت المضيفة تقرأ فنجان ضيفتها وتبشرها بأنقدامها سكة مفتوحة وصرة من المال باقى عليها خطوتان وتصل إلى يدها ، والخطوتان فى اصطلاح قارئة الكف « يايومين .. يا أسبوعين .. يا بالكثير سنتين »..

وبدأت الابتسامة المتفائلة تعلو شفتى الام ويبدو — كما قالت — أن الدنيا بدأت تبتسم لها بعد سنوات شاقةمن العذاب تحملتها بصبر المؤمنين ليخرج من صلبها رجالا يعوضوها عن تعاستهافى حياتهامنذ تزوجت وأصبح لزوجها بيتان ينفق عليهما أحدهما بيتها والآخر بيت أمه وأخته الذى حمل عبئه

منذ وفاة أبيه وهروب أخيه الأكبر إلى حيث لا يعرف أحد عن مصيره شيئا هكذا أصبح الرجل يشقى النهار بطوله ويعود آخر الليل دائما مقطبا عابسا حزينا لأنه لا يعرف كيف يرضى الأم وكيف يسعد الزوجه وهو يمزق نفسه بينهما بلا جدوى .

يبدو أن الدنيا بدأت تبتسم لها فها هو ابراهيم يحظى بوظيفة ميرى سيسافر من أجلها مسيرة ست ساعات بالقطار القشاش إلى دمنهور ليعمل بمكتب البريد بعد أن فشلت مساعى الأب والابن لتقريب المسافة عند فريد بك . . فقد غضب الرجل من جرأتهما وراح يشخط ويهدد ويطلب منهم ان يحمدوا الله على الوظيفة حتى ولو كان فى «عنيبه» فطابور المنتظرين يقف بالمئات ولا يجد مكانا .. وقد حمدا الله وخرجا من غرفة فريد بك قبل ان يزداد غضبه ويصدر أمرا جديدا يلغى فيه تعيين ابراهيم الحسينى « طوافا » ببريد البحيرة .

يبدو أن الدنيا بدأت تبتسم لها وما عليها الا أن تحافظ على أولادها من العيون الكثيرة التى تحيط بهم وتحسدهم على النعيم الذى يقيمون فيه فأبوهم يدفع لهم مصروفات المدرسة فى بداية كل عام وهو الرجل الفقير ليدخلوا المدرسة ويتعلموا القراءة والكتابة بالعربى والانجليزى ويجلسوا فى البيت كالبنات وعيونهم منكسة فى صفحات الكتب حتى يأتى الامتحان وتعلن النتيجة وينتقل التلميذ من صف إلى صف وكل ما يجنيه الأب من جهده هو ورقة مكتوب عليها ان التلميذ قد نجح ونقل إلى السنة التالية

وستبدأ الدراسة فى العام الجديد فى يوم كذا ...

كان لابد أن توصى الشيخ السويفى على حجاب خاص لإبراهيم يصونه فى غربته ويحميه من عيون الناس ويزرع فى قلبه الحب لأهله ويحميه من كل مكروه سواء كان مرضا أو صديقا أو فتاة لعوبا . وصل الشيخ إلى منزله وأعطى الأم الحجاب بعد أن أوصاها أن تجمل ابراهيم يضمه دائما فى جانبه الأيمن تحت القميص ولـكن ليس ملامسا لجسمه .

وعادت الأم إلى بيتهالتجد إن كل شيء أصبح معداً لرحيل ابنها ولم تبق الا خلوة قصيرة بينه وبين أبيه يعطيه فيها بعض النقود التى ينفق منها الابن حتى يتسلم معاشه ، ويوصيه فيها بتقوى الله ومداومة الصلاة وتجنب أصدقاء السوء ، والمراسلة بانتظام ومصارحته بحالته والمحافظة على نفسه وماله فقد « أصبحت الآن رجلا يا ابراهيم ،ولن يكون عليك رقيب بعد الآن الا الله وضميرك ، فارع حرمة أهلك واخوتك وكن خير الأبناء لاصلح الآباء والأمهات « فمال ابراهيم وقبل يد أبيه ثم نهض وخرج إلى أمه واحتضنها وانهمرت الدموع من عين الأم تأثرا لفراق ابنها فكانت مقدمة لنهر من الدموع يتبادله المسافر والمودعون حتى حسم الأب الموقف فأمر بسرعة الانتهاء حتى لا يفوته القطار فبدأ كل طرف يلملم شعثه .

حمل ابراهيم حقيبة ملابسه فى يده وحمل له أبوه سبت الطعام وحملت الأم طفلها بين يديها وخرجوا إلى محطة مصر ، وكان الأب يفكر وكانت الأم تفكر وكان ابراهيم يفكر ، وتحرك القطار ، وعادت الأم وزوجها والطفل إلى البيت .

ظل ابراهيم جالسا فى مقعده حتى غابت بيوت المدينة وزحف القطار على الأرض الخضراء وبدأ نسيم بارد يلفح جبهته فانتبه من سرحة طويلة ووقف ليغلق النافذة الزجاجية ويلقى نظرة على رفاقه فى السفر . انها فئة خاصة من زبائن القطار كلهم يحملون استمارات سفر بالدرجة الثانية ، كلهم يرتدون الملابس الأفرنجية الكاملة وان كانت تبدو حينا أنيقة وجديدة وأحيانا قديمة ومترهلة . وبدأ أنين القطار والسفر يعمل عمله وبدأ المسافرون يتعارفون ويشكلون جماعات للسمر والتعارف يبدأ دائماً باستئذان دقيق ومتكلف عن الشباك « تسمح افتح الشباك ؟ إذا كان مغلقا أو تسمح اقفل الشباك ؟ إذا كان مفتوحا » ثم يتطور الحديث حسب نوعية السائل من حديث عابر عن القطار ومتاعب السفر إلى استفهام عن مكان السفر إلى أسئلة عن الحال ونوع العمل ليحدد كل من الطرفين موقفه من الطرف الآخر بدقة . هل يتقرب منه أو يتعالى قليلا أو يدير عنه وجهه كأنه لا يعرفه ولم يحاول منذ قليل الحديث معه . وركاب الدرجة الثانية هؤلاء إما موظف منقول بترقية أو منقول تأديبياً أو قادم من زيارة أو ذاهب فى أجازة وهكذا ، لكن ابراهيم خرج من هذه المواقف بتصور هام هو أنه أصبح واحدا من هؤلاء الذين يجلسون أمامه ويلبسون البدل ويضعون الطربوش على الرأس ، وكل ما يفرق بينه وبينهم هو أنهم سبقوه فى الشوط بزمن بينما هو على أولى عتبات الطريق . وأحس برضا عن نفسه، وأدرك أنه كان يحب أن يعمل بعيدا عن أهله لكى يعيش كما يعيش أمثاله من موظفى الدولة بعيدا عن نصائح الأب وهيبته الطاغية وزعيق الأخوة وضياعه فى بيت كبير لا يزيد فيه عن أى طفل من أطفاله . بل أنه أعطى

لعقله حقه فى التفكير ولخياله حقه فى التصور وراح يحسب درجته.. الحالية « التاسعة » والمدى الذى يمكن أن يصل إليه فاقتنع بأنه يمكن أن يصل إلى الدرجة السادسة وهو فى عمر مناسب وكل ما يجب أن يفعله هو أن يقبل الترقية في أى بلد من البلاد دون أن يفعل كما يفعل غيره من مدللى الموظفين الذين يرفضون الترقية لأنهم متمسكون بالقاهرة .

وإنتابه شعور غامر من الرضا عن النفس فمال برأسه على مسند مقعده وارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة وارتعش جفناه وهو يوشك على الاغفاء .

* * *

جلست الأم فى « الفسحة » تستجمع أنفاسها اللاهثة لا من التعب ولكن من الحزن على فراق ابنها ابراهيم وهى تندهش من نفسها وتبحث عن سبب حقيقى ومقنع لحزنها وجلوسها هكذا ويدها على خدها كأنها فقدت ثروة ، هل غاب الولد الا للعمل ؟ وهل تكره الأم سعادة أبنائها ؟ غير معقول . لكن البعد .. السفر هو المؤلم .. الا يمكن أن يجد ابنها العمل بجوارها ؟ أهذا صعب ؟ ألا بد أن يذوق الناس طعم المر قبل أن يذوقوا طعم الشهد ؟ الا يكفيها ما عانته من آلام فى التربية وضنك الحياة ليتجدد ألمها من جديد ؟ ترى أى عالم هذا ؟

ولكن الغريب حقا هو لهفتها المفاجئة على ابنها ابراهيم فهى تبدو كأن

يكتشف إحساساً جديداً . نعم أحبه . . وهل تكره أم ضناها . . لكنها لم تكن تتخيل إنها تحبه إلى هذه الدرجة وأن سفره سيزيده معزة فى عينها وهو الذى كان يعيش فى البيت وينال منها دائماً أعنف الكلمات تقريعاً له على كسله وحبه الشديد للنوم فى الوقت الذى يكون فيه أخوه فى الشارع فوق دراجته فى عز البرد وتحت لهيب الشمس ليأتى لهم بقرشين يسدون بها ركناً من أركان الصرف الهائلة . وهو الذى يلعب فى عطلة الصيف ويمسك الكتاب فى أيام المدرسة وكل ما يعود به فى نهاية كل مطاف هو شهادة تقول إنه نقل إلى الصف التالى وستبدأ الدراسة فى يوم كذا . . لم يكن لابراهيم قيمة فى نظرها سوى أنه ابن يأخذ الكثير وليت حالهم كان ميسوراً لتعطيه،أما والظروف كما هى فإن وجوده يثير فيها الضيق ويدعوها دائماً إلى تقريعه ولومه وتوبيخه لأتفه الأسباب .

لم تكن تتخيل إنها يمكن أن تصاب بلهفة عليه فور سفره ، ولكن ها هى التجربة تثبت لها عكس ما كانت تتصور وتفرض عليها حالة من الصمت لا يقوى على إخراجها منها كل ضجيج المنزل بأطفاله وبناته .

ولكنها خرجت من صمتها على دقات غير مألوفة تقرع بابَ بيتها فى حياء . . انها خادمة على أفندى الكاتب تسأل عما إذا كان بالإمكان أن تزورها الست أم عبده اليوم . وكا الرد بالإيجاب بالطبع ، لكنها لم يكف عن التساؤل عن سبب هذه الزيارة خصوصاً وأن العلاقة بين الست أم عبده قد تجمدت بعد أن ردتها الأخيرة خائبة وإلى حد ما مهانة من زيارتها

لهـا بخصوص توسيط زوجها على أفندى لمساعدة ابراهيم أبنها على التوظف فى الحكومة .

لم تنس ، وليس من السهل أن تنسى نظرات الست أم عبده لها وأشاحتها عنها واعتذارها غير المهذب بأن وظائف الحكومة ليست لقمة سهلة لكل من هب ودب فهى لا تأتى إلا بعد امتحانات ومقابلات وتحرى عن الشخص وأهله ، وهو ما اعتبرته الأم تعريضاً بها وبمكانتها فاضطرت إلى الرد بأن السؤال عنهم لن يضيرهم فهم طيبون من أصل طيب ، وإذا كانت المسألة مسألة امتحانات فهى تعرف أن ابنها ذكى ويصلح لأى عمل يسند إليه وكل ما يحتاجه الابن وجاءت لزيارتها من أجله هو كلمة حلوة تأخذ بيد ابنها لا كلام ناشف يحطم صبياً على أول الطريق .

لم تنس ما جرى ، وبالذات لحظة خروجها من بيت جارتها لم تقل مضيفتها كالعادة « ابقى تعالى . . أو خلينا نشوفك » . . وهذا يعنى أنها قطعت معها حبل المودة والجيرة . . لماذا تأتى الآن وتحاول وصله . ترى هل هو الندم ؟ أو المباركة والتهنئة على نجاح ابنها وتوظفه فى الحكومة ؟ أو أنها تريد الولد لابنتها سميحه ولهذا تريد أن تنسج العلاقة من جديد . ومهما كان السبب فلا يصح أن تكون لعبة فى يد الست أم عبده ترميها وقت تشاء وتحملها وقت تشاء . . ولكنها مع ذلك لم تتعود أن ترد ضيفاً . . ترى . . لو كانت أعطتها الفرصة للتفكير فاعتذرت بأى عذر مقبول :

دق الباب فطلبت الأم من أبنتها عديلة أن تفتــح الباب وإذا كان الطارق هو الست أم عبده فعليها أن تستقبلها وتجلسها فى غرفة القعـــاد وتخبرها بأن أمها ستأتى حالا . أما الأم فدخلت وخلعت جلباب العمل ولبست ثوب الخروج ودخلت لتسلم على ضيفتها التى أخذتها بين ذراعيها بالأحضان وملأت خديها بالقبلات وراحت تسأل عن ابراهيم وتتمنى له السلامة والنجاح وتعتذر عن عدم تمكنها من مساعدتها بأن على أفندى كان يمر بظروف صعبة فى عمله لدرجة أنه كان مهدداً بالتوقف عن العمل لولا أن الله سلم وسترهم . ولم ترد الأم . . فى تعليقها على هذا الاعتذار إلا كلمات قليلة منتزعة من قلبها الجريح وكرامتها المستعادة .

— كتر خيرك يا أختى . . ربنا معاه . .

ولم تجد الست أم عبده الحديث مشجعاً فابتلعت ريقها وراحت تسأل عن الواسـطة التى ساعدت ابراهيم فى تعيينه بالبريد لأنها قد تـكون فى حاجة إليها لزوجها الذى ظل أكثر من تسـع سنين بلا ترقية « وما دام عندكوا واسطة كبيرة كده يبقى الناس لبعضها يا أختى وربنا ميحرمناش منــكم » .

فى هذه اللحظة تنهدت الأم تنهيدة عميقة وأحست بالرضا يغمرها فقالت بعد أن ابتسمت ابتسامة باردة من حنجرتها :

— والله ياست أم عبده كان من عينى . . إحنا نتمنى لسى على أفندى كل

خير . بس أنا م أقدرش أرد عليكى فى الحكاية دى لأن والده هو اللى سعى له ف كل حاجة .

— يعنى مش ممكن تسأليه وربنا ميحرمناش منكم ويديم المعروف ؟

— حاضر يا أختى . أسأله وأرد عليكى .

شكرتها الضيفة ونهضت . وهى تقول :

— ذاكان سى ابراهيم يحتاج أى خدمة ف «لقانه» أبقى قوليلى ده سى على أفندى أما عرف أنه أتعين فى «لقانه» فرح قوى لأنه يعرف العمدة قوى . . أصله كان بيشتغل هناك وممكن يوصى عليه المدير والوكيل والعمدة ويخليه يعيش كأنه ف وسط أهله .. واهه الناس لبعضها يا أختى..

نظرت الأم إلى ضيفتها بعين نافذة وهى تزن كلامها قبل أن ترد عليها بدبلوماسية فطرية :

— فعلا يا أختى . . الناس لبعضها . . وانشاء الله لما ييجى سى أحمد أكلمه فى حكاية على أفندى .

فردت عليها جارتها مة .

— كتر خيرك يا أختى . . وبنا ما يحرمناش منك . .

وتبادلت السيدتان عناقاً حاراً وقبلات كثيرة على عتبات السلم ، وعندما همت الست أم عبده بالنزول قالت لجارتها :

— أبقى اتفضلى عندنا ياست أم محمد ..

فردت جارتها .

— إنشاء الله يا أختى .. مع السلامة .

وفى المساء جلس الأب يفكر فيما سمع من زوجته ويردد « هل حقاً يستطيع على أفندى أن يوصى العمدة ومدير المكتب ووكيله على أبنه إبراهيم . أم هى مجرد كلمات يزكى بها طلبه عنده » ؟ لكن الذى كان يشغله أكثر من غيره هو كيف يرد على طلب الرجل الذى أصبح يترصد له فى مجلسه عند باب بيته ويحاصره بالتحيات والسلامات ، وهو لا يجب أن يبدو أكبر من حجمه مهما قالت عنه زوجته ومهما نظر إليه الناس فهو أن كان ضئيلا فى سلم الدرجات الإجتماعية فهذا ليس ذنبه وإنما ذنب الظروف التى حملته صغيراً مسئولية أسرته وفرضت عليه الكثير من التضحيات لم يكن أعظمها خروجه من المدرسة وبحثه عن عمل ليسد رمق أمه وأخته وبعد ذلك زوجته وأولاده . وهو لا يعرف أنها ليست مسئوليته ويعرف أنه إذا كان فى سلم الهيئة الإجتماعية يقف عند السفح بل تحت السفح إلا أنه يعرف كيف يفرض نفسه فى أى جلسة ، على من يجلس معه أن يستمع إليه ويحترم رأيه الذى يؤيده دائماً بآية من القرآن أو حديث للنبى أو بيت من شعر شوقى أو حافظ أو جملة من هاملت لشكسبير التى قرأ ترجمتها أكثر من عشرين مرة ، وأعجب بها .

هو يعرف أنه ليس فى مستوى من يملكون درجة فى وظيفه ميرى

ولكنه يفتز بثقافته وعقله وحبه للقراءة مما يعطيه امتيازا ولا شك ويجعله بين أهل الحارة أشبه بشخصية الحكيم القديم الذى يستفتيه الناس فى أمورهم فيفتيهم كأن كلامه حق لا رجعة فيه .

هو يعرف قدر نفسه لذلك رفض أن يستر عن على أفندى حقيقة علاقته بفريد بك مدير البريد ، فالضعيف هو الذى يدعم شخصيتـــه بالكذب ولذلك قرر أن يخبر على أفندى بأنه لا يعرف فريد بك مدير البريد ، بل قرر أن يقول له أن صاحب الفضل فى توظيف ابراهيم بالبريد هو ابراهيم نفسه بصداقته لأحمد قناوى ابن فريد بك . وبذلك يخلص نفسه من حصار على أفندى ويصون ابنه من أى متاعب قد يثيرها ضده على أفندى الذى سيخشى ابنه ابراهيم لأنه صديق ابن فريد بك قناوى مدير البريد كله . وهكذا نتخلص جميعاً من ملاحقة على أفندى وزوجته أو أشباع فضولهما . لكنه لم ينس أن يتعجب ويندهش ويسب ويهجو القحة وقلة الحياء وعدم الإحساس عند الناس الذين لا يتورعون عن الاشاحة عنك عند الحاجة إليهم ثم يسعون إليه عند حاجتهم لك . أليس لهؤلاء الناس كرامة أم أنهم جميعاً كالبالونات المنفوخة بالهواء مظهرها فخم وحقيقتها لا شىء .

ولم تكن الزوجة مقنعة بسلوك زوجها فى هذا الطريق وكانت تتمنى أن تعذب الست أم عبده وزوجها حتى يدركوا حقيقتهم ويعيدوا النظر إليهم بعين جديدة ملؤها الإحترام والتقدير بعد التعالى والتهوين من شأنهم ،

لـكن الأب كان حاسماً فرفض أى مماطلة فى الوضوع قائلا أنه ليس فى حاجة إلى تدعيم كيانه بالـكذب . وهكذا أقفل بابا من الازعاج والفضول وبدأ يستمد لغده الواعد بالآمـــال بعد أيام وليالى طويلة من الألم والعذاب .

* * *

وأخيراً .. دخل محمد على أبيه معلنا أنه قرر أن يترك عمله فى المصنع لأنه بعد أن فـكر فى حاله ومستقبله وجد أنه ما دام يعمل هذا العمل فى المصنع فانه سيبقى إلى آخر عمره عاملا يرتدى العفريته الزرقاء ولن يتمكن من ارتداء البنطلون والقميص والجاكتة والطربوش أبدا .. وسيكون مستقبله فى أسعد الحـالات كالأسطى حسنين أو الأسطى عبده .. أما ما فوق الأسطوات من أعمال وهى كثيرة وهامة فلن تـكون فى دائرة إمكانه لأنها أعمال لا تأتى إلا بعد دخول المدرسة والخروج منها بشهادة الهندسة . ولذلك قرر أن يترك المصنع ويلتحق بالمدرسة ليبنى مستقبله .

كانت المفاجأة شديدة على أبيه فهو يعلم كم تعب حتى ألحق ابنه بالعمل فى هذا المصنع بمرتب ضئيل على أمل أن يزيد دخله مع الأيام .. لـكن الابن الذى يبدو أنه خلق من طينة لا تعرف الصبر يريد أن يسابق الزمن فهل يقف فى طريقه ؟

تنهد الوالد وقال لابنه أنه يبارك كل خطوة يقوم بها فى سبيل بناء مستقبله ، وأنه لا يتمنى من الدنيا الا سعادة أولاده جميعاً « ويا ريت

أغمض عين وأفتح عين ألاقيكم كاكوا فى أعلى المراكز بين الناس » .
ثم تساءل الأب . . هل يمكن أن يعود الابن إلى المدرسة مرة أخرى بعد
أن سحب أوراقه منها فى العام الماضى . . ؟ « أنا نصحتك يا ابنى وقلت
لك متتمرعش فى الخروج من المدرسة وانت لسه صغير .. ودلوقتى إزاى
ترجع لمدرستك تانى ؟ »

ولكن محمدا الذى يبدو أنه قد أعد لكل سؤال جوابه
قال لأبيه :

— ممكن أرجع المدرسة بسهولة .. أنا قدمت أوراقى فى المدرسة
الليلية . .

ثم اتبع بعد فترة صمت :

— ح اشتغل فى النهار .. وادرس بالليل ..

أحس الأب بشيء من الراحة يدغدغ أعصابه فابنه يفهمه بلباقه أنه
لن يتخلى عن دوره فى تحمل العبء مع أبيه ..

هكذا أثمرت التربية الصالحة .. وهكذا يكون الابن الصالح. ولكن
هل الأسلوب الذى يفكر به الابن صحيحاً أو هو واهم .. أيمكن أن
يلتحق بمدرسة ليلية وهو يضيع معظم يومه فى العمل ؟

قال الأب لابنه :

— ولكن ده صعب يامحمد .. عملك مرهق يا ابنى وأنا مستعد أرجعك المدرسة وتقعد زى بقية أخواتك وتتفرغ للمدرسة لأن صاحب بالين كداب يامحمد ..

فرد ابنه قائلا :

— لا كداب ولا حاجة ياابا .. أنا ح أسيب الشغل فى المصنع وح اشتغل فى الحكومة والشغل فى الحكومة أسهل بكتير من شغل المصنع .. وميضيعش اليوم زى دلوقتى أنا كلمت الأسطى حسنين الريس وقال لى انه حيكلم زميل له بيشتغل فى البلدية وحياخدنى عنده وحياخد باله منى زى الأسطى حسنين بالضبط .

قال الأب بشىء من الخوف :

— هو انت قلت للاسطى حسنين يا ابنى ؟ .. مش كان أحسن تصبر لما تمسك الشغل الجديد بايدك مش يمكن الاسطى حسنين يزعل منك .. والا يقول للريس ويرفدك ؟

فضحك الإبن ضحكة مطمئنة وقال .

— أنا ما باخفش من الاسطى حسنين يا ابا اصله مش زى بقية الاسطوات .. ده بيحبنى ودايما يقول لى ان مخى نضيف ولما أكبر ابقى زيه .. اسطى قد الدنيا . .

ثم اردف بعد برهة من الانتظار :

— الاسطى حسنين زعل عشان ح أسيب المصنع وقال انه كان نفسه يشوفنى وانا واقف على مخرطة قدامه .. لـكن لما عرف ان ده لمصلحتى سـكت وقال لى انه حيكلم زميله الأسطى امام عشان ياخدنى عنـده فى ورشة البلدية . . ويوم الحد ح أروح أقابله ع القهوة وكل حاجة حتخلص إنشاء الله .

لم يتمالك الأب نفسه من السعادة فابنه الأكبر .. الذى ما زال صغيرا .. يجنبه دائما الحرج ويجتهد ليخلق لنفسه مستقبله دون ان يطلب منه واسطة أو زيارة أو يريق ماء وجهه لصغير أو كبير .

لم يتمالك الأب نفسه من السعادة فتهللت أسارير وجهه واحتضن ابنه بحب وهو يقول :

— ربنا معاك يا ابنى .. ربنا يحقق لك كل أحلامك ..

ثم رفع بصره إلى السماء وتـكلمت عيناه كلمات كثيرة ...

الفصل الخامس

كانت البنت باتعة بنت عم حسن العربجى تنط الحبل فى الحارة حينما راحت زوجة أبيها تنادى عليها وتصرخ بأعلى صوتها دون أن تفكر البنت فى الرد عليها وأهل الحارة يتابعون هذه المباراة المألوفة بين البنت وزوجة أبيها كمن يتابع عرضاً «كوميدياً» . كانت زوجة الأب تتوعد البنت بأنها ستقول لأبيها فيضربها . . ستقول له أن البنت لا تسمع كلامها وأنها تعاندها ولا تساعدها فى شئون بيتها وتضيع نهارها كله فى الحارة فى لعب الأولى والاستغماية ونط الحبل وهى على وش جواز وستمسكها لأبيها . وهو يضربها (بقمشة) الحمير . . وكانت باتعة تسمع هذا الصياح وهى تنط تارة وتعد تارة أخرى عشرين تلاتين أربعين خمسين ستين سبعين تمانين تسعين مايه . كلنا سلطة وطعمية عند المعشة الفرجية . . . يا عشار يا بشار أخنق قطة وعلق فار واستنانى على باب الدار بالحلق والمنشار . . من هنا . . لأ من هنا ، وطابور الأولاد من ورائها يدافع عن نفسه السقوط حتى لا تعود الكرة عليهم . ثم تسقط باتعة فى اللعبة ويعود الأولاد والبنات إلى البدء من جديد ودائماً تجد البنت ما تفعله ، وتعود إلى القفز أو تجمع عدداً من الأولاد والبنات فى الحارة وتلعب (كلوا بامية) ثم تختفى فى أحد البيوت ويبدأ الكلب الحائر فى البحث عن المختفين . .

والغريب أن باتعة كانت تقابل كل أنفعالات زوجة أبيها بضحكة بليدة على وجهها دون أن تشعر أحداً أنها تعاند المرأة أو تخرج عن طاعتها ، فإذا تجرأت إحدى الجارات وقالت للبنت بشىء من الزجر أن تذهب لترى ماذا تريد زوجة أبيها ردت باتعة قائلة بنفس البلادة والسذاجة :

— أنا مالى يا أختى . . لما ييجى أبويا يبقى يدعك لهـا ضهرها . . وأنا مالى يا اختى . . دى ريحتها منتنة .

وتترك النساء المتطلعات من النوافذ يضحكن دون أن تميز سبباً معقولا يدعوهن إلى الضحك وتعود البنت مرة أخرى إلى الاندماج فى ألعابها بمفردها أو مع أولاد الحارة صبية وبنات ودائماً تنـــادى زينب بنت الشيخ السويفى التى تنظر إليها من النافذة بعين مشتاقة إلى اللعب ككل البنات والأولاد .

— تعالى يا زينب . . والنبى تيجى تلعبى معانا

ودائماً تهز زينب كتفها وتقول لباتعة

— لا يا اختى أحسن أمى تضربنى

أو لا يا أختى أحسن أبويا يشـــوفنى

فتشيح عنها باتعة عينها وتعـود إلى الاندماج فى اللعب وتظل زينب مسمرة فى نافذتها حتى بعد دخول كل النسوة إلى أعمالهن . .

وعينيها تكاد أن تخرج شوقاً إلى اللعب كغيرها من أولاد وبنات الحارة حتى تنظر إليها باتعة وتخرج لها طرف لسانها كأنها تغيظها لأنها لا تستطيع أن تلعب مثلها فتغضب زينب وتغلق الشباك فى وجه باتعة فتسرع باتعة إلى باب شقة الشيخ تدق عليه وتخرج زينب غاضبة تسألها عما تريد فتسألها باتعة بدورها عن سبب قفلها الشباك فى وجهها فتقول لها انها لا تحب أن يغيظها أحد أو يثير غيرتها « وإذا كنت بتطلعى لى لسانك تبقى كابتى يابتعة » .. فتضحك باتعة وتقول لزينب انها عبيطة لأنها تظن أنها تحنسها بينما كل ما أريده هو أن تنزلى وتلعبى معنا فى الحارة . فتعود زينب وتتمنع ثم تعرض عليها أن تأتى وتلعب معها فوق السطح :

ــ آه .. أبويا ميقولش حاجة لما ألعب فوق السطح لكن فى الحارة لأ

فتتركها باتعة قائلة انها لا يمكن أن تحضر كل عيال الحارة فوق السطح والا انهدم البيت على رؤوسهم جميعا وتتركها وتنزل إلى أصحابها بينما تعود زينب إلى نافذتها وتفتحها من جديد وهى تتطلع إلى باتعة وتبتسم .

وسرعان ما ينقلب المشهد بخروج زوجة أبيها فجأة وهى ترتدى جلابية بسفرة على اللحم فتبدوا كالكرومبة الثقيلة وهى تنقل رجليها ببطء حتى تصل إلى باب البيت فتمسك (القبقاب) بيدها وترميه بعنف صوب البنت باتعة التى تفاجأ به يصطدم بأحد الجدران المجاورة لها فتلتفت

بسرعة وهى خائفة ان تصيبها الفردة التالية التى تصوبها المرأة نحوها . فتتحاشاها بانحناءة ثم تمسك فردتى القبقاب فى يديها وتبدأ هى الأخرى فى تصويب سيل من أقذع الشتائم نحو زوجة أبيها بادئة بأهلها الذين لا أصل لهم منتهية بسب كل ما يتصل بعرقها من قريب أو بعيد . ثم تتوعد زوجة أبيها بأنها ستحتفظ بالقبقاب معها حتى يأتى أبوها ويرى كيف أن هذه المرأة المجنونة تريد أن تقتلها لتنفرد بعد ذلك بأبيها .. وبعد أن تنتهى من سيل الشتائم تبدأ سيلا آخر من البكاء على نفسها من هذه المرأة التى تريد أن تقتلها وتتذكر أمها الميتة لو كانت حية ما فعل فيها أحد شيئا ثم تنهى بكاءها بجملتها المأثورة « بتضربينى عشان أنا يتيمة الأم .. طب والله لاقول لابويا .. هه » أو تظل باكية تنهنه حتى ترق لها قلوب النساء اللاتى عدن إلى النوافذ لمتابعة المعركة بينها وبين زوجة أبيها فتتطوع احداهن للتوفيق بين البنت وزوجة أبيها وتطلب من زوجة الأب أن تصالح ابنة زوجها التى قطعت قلبها ببكائها . . فتبدأ كل امرأة من المتطلعات من النوافذ فى التوسل إلى زوجة الأب أن تصالح البنت فتنظر إليهن المرأة وعيناها عتاب ولكنها لا تجرؤ أن تواجه كل النساء المتطلعات من النوافذ فتقول :

— حاضر . عشان خاطركو ابس .. تعالى يابنت .. حقك على .

ولكن البنت لا تأتى بل تتثاقل وتتصنع الزعل حتى تأتى إليها زوجة

تأبيها وتتعذب وهى تمشى وتتمايل على الجانبين من فرط السمنة ثم تقبل رأسها وتقول لها :

— حقـــك علي يا باتمة . . ده انتى زى بنتى بالضبـــط . . هو انتى تهونى على

— ياسلام يا اختى .. أمال عاوزه تضربيى بالقبقاب ليه ؟

— مه انتى يا باتمة مبتسمعيش الـكلام . . وجعتى قلبى و٠مش عاوزة تردى . .

— م انا انا يا اختى معرفش ادعك لك ضهرك ..

وعند هذا الحد تحاول المرأة أن توقف البنت عن الـكلام والفضايح قائلة أن الحـكاية خلاص انتهت ولـكى تجعلها تسكت فانها تعطيها «مليما» لتشترى به (لب) وتقزقز فتأخذ باتمة المليم وتخرج بهدوء إلى المقله بينما تجلس المرأة على (الحجر) منكسة رأسها وهى تدارى احساسا بالهزيمة أمام هذه البنت التى فضحتها أمام كل نساء الحارة ولم تستطع أن تدافع عن نفسها لوقوف كل النساء فى صف ابنة زوجها اليتيمة .

ثم تعود (باتمة) ويعود الأولاد والبنات ويعود اللعب والقفز وتغلق النوافذ كأن شيئاً منذ قليل لم يحدث . وتبقى زينب فى نافذتها تضحك على ألعابهم من جديد وتمسح بيدها الدموع التى انهمرت من عينيها حزناً

على بكاء باتمة يتيمة الأم .

وفى الليل يعود عم حسن العربجى إلى غرفته فى المندرة بعد أن يكون قد أدخل حصانه إلى الأسطبل ثم ذهب إلى (البوظة) وشرب قرعتين أو ثلاثة بعد القرعتين اللتين شربهما مع حصانه . ودائماً يذهب عم حسن العربجى الى البوظة القريبة من الحى بشارع الفجالة ويأخذ القرعة ويتقرفص على الأرض وحصانه واقف أمامه فيشرب ثم يسقى الحصان فإذا شعر بشىء من التعب وهذا يحدث كلما تكون البوظة قديمة فإنه يميل برأسه على صدغ الحصان ويرتكن عليه قليلا حتى يتمالك نفسه فيقوم ويجر حصانه إلى الأسطبل .

دائماً يذهب عم حسن العربجى إلى البوظة بعد أن ينتهى من صلاة العشاء والرجل يصلى الفرض فى وقته مهما كانت مشاغله . . إبتداء من صلاة الفجر التى يؤديها دائماً فى المسجد إلى صلاة العشاء التى يختم بها يومه فيذهب بعد ذلك إلى البوظة ويشرب هو وحصانه ويجلس بين أصحابه ويضحك من قلبه وينكت على أصدقائه ، وأصدقاؤه ينكتون عليه حتى تنتابه نوبة من السعال العنيف الذى يقلب أحياناً بالغثيان فيخرج كل مافى جوفه ويستريح، وأصحابه حيناً يسبون الدنيا المتعبة وحيناً يثيرونه بقولهم أنه كبر وشاخ وأصبح عجوزاً لا يحتمل الصنف وعليه أن يذهب إلى حيث يذهب سيادة الأفندية إلى الخمارات ويشرب حاجة أخف ، فضرب عم حسن

بكفه فخذ صاحبه مؤكداً أنه مازال شباباً بل أنه حديد ويدعم كلامه بطلب (قرعة) جديدة يتحدى بها الزمن والشيخوخة والشعر الأبيض والجلد المتشقق ولكنه يعود دائماً إلى (المندرة) وهو يتمايل على الجانبين كزوجته إذا تحركت ، لكنه لا ينبس بكلمة نابية ولا يسب ولا يفعل كما يفعل حقراء السكارى كما يسميهم فالواحد من هؤلاء يحتاج إلى كفين على صدغيه يعيدانه إلى رشده . أما هو فرجل حريص على ألا يسىء إليه أحد . بل إنه فى قرارة نفسه يعلم أنه أقل سكان الحارة مقاماً . ولكنه بحسن خلقه مع الناس كسب قلوب الجميع وودهم فأصبحوا يعاملونه كأنه فرد منهم بصرف النظر عن أنه يسكن فى غرفة فى مندرة ويسكنون هم فى شقق .

يعود عم حسن فى الليل ويدخل الغرفة ويوقظ زوجته وينادى على إبنته باتعة التى تغط فى نوم عميق فتقول زوجتـــه أنها تنام كالقتلى لأنها لا تهمد طول النهار فى الحارة جرياً ولعباً دون أن تساعدها فى أى شأن من شئونها المنزلية فينهاها الرجل عن إساءتها إلى إبنته . وإن كان ينهاها بلين ورفق لأنه لا « يريد أن يتشاجر معها من أجل إبنته ويفسـد على نفسه ليلة من عمره لذلك يختم كلامه دائماً بقوله :

— ياوليه حرام . ده يتيمة الأم متفتريش عليها . .

فتقول له غاضبة أنه يعيرها لأنها لا بنت لهـا ولا ولد . . ولكن ما ذنبها هى إذا كان هذا هو حظها .

ويستغفر الرجل ربه ويقول لزوجته أنه لايفكر فيا تفكر فيه هذه المرأة المجنونة وهو لا يهمه إذا كان عندها بنت أو ولد أو لم يكن عندها شيء فقد تزوجها بعد أن طلقت من زوجها الأول وماتت زوجته ولا يهمه إلا مزاجه هو ويكفيه من الدنيا باتعه فتعود المرأة التى يبدو أنها مصرة على إفساد ليلته وتقول له أنه لو كان عدم الإنجاب لايعنيه حقاً فلماذا طلق زوجتين بعد وفاة زوجته الأولى ؟

فيقول لها منذراً : أنه طلق زوجتيه لأنهن كن يحاكنه ويفسدن لياليه وهو يشقى طول النهار كالحمار من أجل أن يأتى فى الليل وينلق عليه وعلى زوجته باب الغرفة وينسى همومه .

فتسكت المرأة وتقبع فى مكانها بالفراش ويعود الرجل إلى ابنته ويصر على إيقاظها فلا تردفيقترب منها ويهزها فتنقلب على فرشتها وتتعرى فيغطيها أبوها وهو يقول ان البنت باتعة كبرت واصبحت عروسة والواجب ان يفكر فى مستقبلها .

يصر الرجل على إيقاظ أبنته حتى تجيبه أخيراً قائلة :

— عاوز إيه يا ابا . .

— قومى يا باتعة . . كلى الحلاوة دى

فتشيح عنه وجهها وتتقلب على جانبها الآخر قائلة :

— يا ابا سيبنى أنام . .

— لأ . . لازم تصحى وتاكلى حلاوة . .

— طب خليها هنا للصبح أبقى آكلها . .

— لأ . . أنا لازم أكلها لك بنفسي

— والنبي تسيبنى أنام والصبح آكل

— ده لو سبتها للصبح حتا كلها مرات أبوكى . .

وهنا تمسكه زوجته وتحتج على كلامه . .

— ليه هو أنا مفجوعة عشان آكل أكل البت . . ؟

وتستمر فى لوم زوجها على تعديه عليها وهى المسكينة الوحيدة ويارب لأ.ق الظـــلم ده فتضحك البنت باتمة ويضحك أبوها وهو يقول لأبنته .

— قومى يا سكر كلى الحلاوة . .

فتنهض البنت وتجلس على فرشتها وتمد فمها إلى أبيها فيضع فيه قطعة كبيرة من الحـلاوة ثم تعود بسرعة وتختفى تحت اللحـاف كسبع البحر الذى يلتهم حزمة من (الدريس) ثم يختفى تحت المـاء . وبسرعة عجيبة يرتفع شـــخيرها كـأنها تنام منذ زمن طويل .

ويحاول الأب أن يكلم أبنته ولـكنها لا ترد فتقول له زوجته بحـدة :

ـــ م خلاص يا أخويا .. بنتك نامت ؛

فيلتفت إليها ويقول :

ـــ نامت نامت ياللا بينا . .

وينفخ الرجل فى اللمبة المضيئة فتنطفىء .

الفصل السادس

وقف محمد امام المرآه يصفف شعره ويتطلع الى البنطلون الجديد الذى اشتراه مع أبيه من « افرينو » والى القميص الحريرى المصنوع من قماش « الباراشوت » الذى اعجب كل من رآه مرتديه وسأله كثير من أصدقائه عن ثمنه لأنهم يعرفون أن ماهية محمد وحالة أبيه لا تسمحان له بشراء قميص حريرى كهذا القميص الذى يبدو غالى القيمة، ولا يرتديه الا المديرين في الشغل . ولم يحاول محمد ان يقول لأحد عن ثمنه الحقيقى فهو لا يعرف الثمن بل لا يعرف أين يباع مثل هذا القميص وهل يوجد مثله فى المحلات الكبرى بشارع فؤاد أولا . ولكنه اعترف لصديقه حسن الذى أصبح صديقا فى العمل بالبلدية وفى المدرسة الليلية وقال له انه لا يدفع فيه ثمنا كبيرا والمسألة تدبير من أمه التى تذهب إلى « وكالة البلح » وتشترى من هناك « الباراشوت » كاملا ، وهو يباع بسعر رخيص جدا، وتذهب إلى الخياطة « حكمت » صديقتها من أيام الطفولة وتعطيها الباراشوت فيخرج من تحت يدها ثلاثة قمصان واحد لزوجها والثانى لمحمد والثالث لمصطفى ويبقى منه قطعة تكفى قميصا لعبده أو بلوزة لفاطمة وأبله حكمت هى التى دلت أمى على هذه الفكرة الاقتصادية فأصبحت أمى من زبائن وكالة البلح الدائمات وأصبحنا جميعا نرتدى القمصان الحريرية بفضل عبقرية الست حكمت وباراشوتات وكالة البلح المتبقية من مخلفات الحرب ..

وبعد أن انتهى من تصفيف شعره حمل حقيبته ، وهم بالنزول نجاء إليه أخوه الصغير رضا وقال له بلغة مكسرة ..

— أنا عاوز مليم

فضحك محمد وقال :

— تجيب بيه إيه يارضا ؟

فقال الصغير :

— أجيب حلاوة

فحمله محمد بين يديه وحضنه وقبله وقال له .

— مليم واحد بس ؟

فعاد الصغير يكرر

— انا عاوز مليم

فنادى محمد أخته شوق وقال لها ان رضا يريد ان يأكل حلاوة ولذلك فهو يعطيها «تلاتة تعريفة » لانه قبض النهاردة ماهية الشهر وعليها أن تقسم الفلوس بالتساوى على اخوته وتشترى لرضا الحلاوة . وكان مهرجانا من الفرح والرقص بين الاخوة والاخوات وراحوا يتقسمون الفلوس فيأخذ كل منهم « نكله بحالها » وكل منهم يطلب ما يريد ليذهب مصطفى ويشتريه ..

انا بنكله لب ، وانا بنكله حمص ، وانا بنكله سودانى ، وانا بمليم

غشار ويمليم حب العزيز وانا عاوزه خد البنت وانا موز حلاوة .. وهكذا اقتسم الاخوة الغنيمة المفاجئة .

نزل محمد إلى دراجته فوجد أخوه مصطفى بإنتظاره ليركب أمامه حتى يصل إلى المقلى فحمله أمامه وهو يوصيه أن يضع كل هـذه الطابات فى كيس كبير حتى لا تسقط منه القراطيس أو يخطفهـا منه العيـال وهو عائد إلى البيت .. ثم تركه عند المقلى وتابع سيره ..

كان حسن ينتظره عند باب المدرسـة ويتطلع بكثرة إلى الساعة وتساءلا عن أسباب تأخر صديقه عن الحضور والجرس يوشك على الدق حتى ظهر محمد عند منعطف المدرسة فقابله حسن متسائلا عن أسباب تأخره فقال محمد بلا مبالاه أنه لا تأخر ولا حاجة ، لـكن حسن أكد أنه تأخر خمس دقائق عن موعده ولذلك لن يتمكنا من مراجعة درس « الجرامر » السابق ، فنظر محمد الى يده وقال :

ـ متقول كده يا اخى .. مبروك الساعة .. جبتها بكام ؟

فقال حسن الذى ابتسم لأنه نجح فى لفت نظر صديقه إلى ساعته :

ـ بسبعين قرش

ـ حلوة .. إنشاء الله ندخل جمعية ونشترى ساعة ع العيد

ـ وليه جمعية .. متاخد استمارة وهات اللى فى نفسك من (عمرأفندى) ويتخصم منك بالتقسيط

— لا يا عم .. أبويا يحبش التقسيط ولا يحب الديون .. حد عارف حيقدر يسددها والا لا ..

— مه الحكومة ضامناك

— لا ياعم .. يفتح الله .. ياللا بينا نذاكر

لكن الجرس دق ولم يتمكنا من المراجعة فدخلا بسرعة إلى الفصل ..

كان محمد يحب المدرسة فهو رغم أنه ما زال فى المرحلة الابتدائية إلا أنه يدرس فى نفس المدرسة التى يدرس فيها رجالا فى الثقافه والتوجيهية، بل أنه يدرس مع طلبة يملكون « الموتوسيكلات (بى أس والهارلى) » وبعضهم عنده سيارات . كان يحب المدرسة لأنها تشعره أنه واحد من هؤلاء الأفندية ذوى الطرابيش الذين يخلعون الطربوش أحياناً ويحملونه فى ايدهم كنوع من أنواع العياقة أو القنزحة . وكان يحبها أكثر لأنها تعطيه الأمل فهو سيصل فى يوم من الأيام إلى الفصل الذى يجلس فيه هؤلاء الكبار ذوى الشوارب المرسومة بعناية والذقون المحلوقة والشعر المصفف المدهون بالفازلين والوجوه الهادئة والأسلوب الرقيق فى التعامل ، لا حياة المصنع الخشنة ، الورشة الحكومية الداخرة بالأسطوات الذين يضيعون الوقت فى التنكيت الفاحش والسب والإهانة . لاشك أنه سيصل إلى فصل التوجيهية ويجلس فى هذا المقعد بالذات الذى يجلس عليه هذا الشاب الذى يركب السيارة ويملأ الجو مرحاً ويقف حواليه دائماً حزمة من أصدقائه ويضحكون ضحكا مهذباً ويتكلمون بصوت خفيض .

دق الجرس فجذبه حسن قائلا أننا يجب أن نجرى بسرعة وإلا أضطررنا إلى الوقوف فى آخر الفصل كما وقفنا بالأمس دون أن نتمكن من سماع شىء من الدرس .

وبعد أن خرجا من المدرسة اتفق محمد أن يأتى حسن إلى منزله قبل موعد المدرسة بساعة ليذاكرا الإنجليزى معاً وبالذات درس (الجرامر) الذى لا يفهمان منه شيئاً .

ولكن محمد الذى عاد إلى منزله فى موعده تماماً وجد أباه يجلس فى الفسحة متجهماً وأمه تضع يدها على خدها وأخته عديلة تجلس بجوار أمه خائفة وأخوه مصطفى يجلس فى ركن مذاكرته مقرفصاً يضع الكتاب على ركبتيه ويغالب النعاس ولا يستطيع أن ينام فحالة الجميع متوترة بشكل مخيف .

عاد محمد إلى منزله وألقى السلام ولكنه لم يسمع إلا تمتمة من أمه وزفرة حارة من أبيه فدخل إلى غرفة المذاكرة وسأل مصطفى عما حدث فقال له أن خطابا جديد وصل من أخيه إبراهيم هو الذى قلب المنزل رأساً على عقب . فأدرك محمد أن الخطاب الجديد ربما يكون كغيره من الخطابات التى تلقتها الأسرة وفيها من الحب يكفى لإسعاد الدنيا كلها ، ولكنها تنتهى بسطر واحد يعكر كل البحار مرة واحدة . « واعتذر يا أبى عن عدم قدرتى على ارسال شىء فى هذا الشهر لأنهم سلمونى حماراً

أطوف به على القرى لتوزيع الخطابات ، والحمار شره يأكل أكلا أكثر بكثير من بدل إطعام الحمار الذى تصرفه الحكومة لى .

« وأعتذر ياأبى لأن الحمار مريض والطبيب البيطرى كتب له روشتة دفعت فيها كل ما أدخره لأرسله لكم » .

« وأعتذر يا أبى لأننى عند جرد العهدة وجدت عجزاً لا أعرف سببه فخبرنى وكيل المكتب أما تسديد العهدة فوراً أو الإحالة إلى التحقيق فدفعت كل مرتبى »

« وأعتذر يا أبى لأنى أشتريت قطعتين من المفش وناموسية لأن لأن الناموس هرى جسمى وبإذن الله فى الشهر التالى أرسل لكم شيئاً من من المال أعوض به عن تقصيرى » .

أدرك محمد أن الخطاب الجديد لاشك أنه يحوى أعتذاراً جديداً فخرج وجلس بجوار أبيه يحاول أن يسرى عنه وهو يتمنى ألا يرسل لهم إبراهيم أى خطاب ما دامت خطاباته تثير الغضب إلى هذه الدرجة .

جلس محمد بجوار أبيه وقال :

— وحد الله يا ابا

فتنهد أبوه وقال :

— لا اله الا الله

قال محمد :

— ادعى له بالهداية يا ابا

قال أبوه :

— دا كلب .. ياخسارة تعبي وشقايا فيه

— الغايب حجته معاه يا ابا

نظر إليه أبوه وهو يغالب غيظة وقال :

— اتفضل .. شوف الأفندى كاتب ايه ؟

كانت الرسالة طويلة لكن محمدا الذى أصبح خبيرا برسائل أخيه جرى بعينيه بسرعة وتوقف عند السطر الأخير :

« واعتذل يا أبي وأرجو السماح لكن فى ورطة فقد مات الحمار العهدة ويجب على أن أدفع ثمنه أو أشترى غيره والا احلت إلى التحقيق ولذلك آمل أن ترسل لى خمسة جنيهات لأغطى بها العهدة واتمنى لك . . . . . »

طوى محمد الرسالة وهو غاضب من أخيه الذى لا يكتفى بالمنع، بل يتجرأ ويطلب وهو يعرف أحوالهم .

لكن الأب الذى لم يهدأ الجحيم الذى اشتعل فيه قال لزوجته بلهجة يمتزج فيها اليأس والحزن والغضب بالأمر .

— بكره من بدرى تسافرى وتأخذى مصطفى معا كى وتشوفى الواد

ده عامل ايه ، تقعـــد يوم واحد وترجعي . واناح أدبر قرشين عشـــان متفضحيش نفسك هناك : وإذا كان محتـــاج زى ما بيقول لديهم له وتعالى .. اما نشوف اخوتها ..

لم تجر الام جوابا وانما فتحت فمها وبللت شفتيها بلســـانها وبلعت ريقها الجاف وقالت بصوت خفيض :

— اللى تشوفه .

ونزل الأب من بيته باحثا عم يدبر له أمر هذه الكارثة المفاجئة ، ولا شك أن خمسة جنيهات كارثة كبرى لا يمكن للأسرة أن تدبرها بسهولة .. نزل الرجل من بيته فبدأ فى شىء كثير من التوتر ينزاح عنهم فخرج الابن مصطفى وقال لأمه بخوف :

— انا عاوز آكل :

فقالت الأم لابنتها عديلة .

— قولى سخنى الأكل وعشى اخواتك ...

نهضت الابنة وهى تقول :

— وانتى يا امه مش حتا كلى

فقالت الأم :

— لا .. كلوا انتوا ..

فقال محمد :

ـــ وايه فايدة الزعل يا امه وانتى مسافرة ..

قالت باقتضاب :

ـــ لما ييجى ابوكوا .. كلوا انتو

وجلس الابناء والبنات حول الطبلية ، واكلوا لكنهم لم يشعروا بلذة الطعام كعادتهم ..

وبعد العشاء انصرف الأولاد إلى النوم وظلت الأم ساهرة ساهمة :

ـــ بقى ده اخرتها يا ابراهيم .. يا خسارة تعبى وشقايا فيك .

الفصل السابع

كان الظلام ما زال حالكا عندما تقلب الأب فوق فراشه وفتح عينيه وراح يتطلع الى القصر الذى كان يتطلع إليه بدوره من خلال النافذة المفتوحة ثم تخرج من قلبه المحروق آهة قوية قبل أن ينحنى ويهمس إلى زوجته أن تستيقظ فتجيبه على الفور بأنها يقظة منذ وقت طويل .. بل انها لم تذق طعم النوم منذ وضعت جسمها على الفراش وكل ما استفادته هو انهـا أراحت جسمها من عناء يوم مضى واستعدت ليوم لا تعرف كيف يكون .. اينتهى كما انتهى غيره من أيام مؤلمة أو تجد فيه شيئا من السلوى . فقال لها زوجها الذى كان يتحدث برقة ولطف لا يتناسبان مع ماهما عليه من كدر بسبب هذا الولد المتعب ابراهيم :

— ياللا يا أم محمد .. قومى عشان تلحقى القطر قبل الزحمة ..

فنهضت الام وقالت انها مستعدة فقد هيأت كل ما تحتاج إليه فى سفرها منذ الليلة الماضية وذهب الأب ليوقظ ابنه مصطفى بنفس الرقة والرفق والولد يغالب النعاس حتى أفاق على كلمات أمه التى جاءت تساعد زوجها فى ايقاظ الابن من عز نومه :

— انت مش عاوز تيجى معايا ؟ .. طب خليـك وانا اخـذ عبده بدالك . .

نهض الولد على الفور وهو يقول انه لن يدع أحدا سواه يسافر مع أمه .. وبعد قليل كان الأب والأم وابنهما الأكبر محمد الذى حمل سبت الملابس ومصطفى الذى يرافق أمه فى رحلتها يخرجون فى قلب الظلام متجهين الى المحطة . بينما جلست عديلة (فى البيت) تضع يدها على خدها وهى تتذكر كل وصايا أمها لها بالاعتناء بأبيها واخوتها وشئون المنزل حتى تعود .. هذا اذا كانت ستعود بسرعة فقد أوصاها زوجها بعد أن هدأت ثائرته أن تبقى فترة مع ابنها لتتعرف على أحواله .. فتمتمت عديلة فى خفوت :

— مع السلامه يا امه .. وترجعى بالسلامة

والغريب فى الأمر ان مشاعر الاخوة نحو أخيهم البعيدلم تكن محددة بل ان وقتا طويلا قد ضاع بين محمد وأخته وهما يتحدثان عن ابراهيم وهل هو مخطىء أو محق . ولكن السؤال الذى لم يستطع أى منهما ان يجد له جوابا هو .. كيف يجرؤ هذا الولد ان يغضب أباه بعد ان تحمل ما تحمـــل ليجعل منه رجلا ؟ ولم يجد أى منهمـــا جوابا فانصرفا كل إلى شأنه .

جلست الأم فى القطار على المقعد الخشبى بجوارها ابنها الصغيرمصطفى ومن حولها أكوام من الاسبتة والقاطف والضجيج المنبعث من صوت القطار وأصوات الباعة الجائلين فى القطار وحركات الشحاذين والدجالين وكل واحد منهم يستعرض مقدرته فى سحب قرش من جيب أحدالمسافرين

بالذوق أو بالاحراج وان لم يكن بهذا أو بذاك فليكن بالعنف .. وقبعت الام فى مكانها تتمتم بآيات من القرآن الكريم على قدر علمها وابنها يستند على جنبها ويغط فى سبات عميق ، وكلما ازدادت سرعة القطار ورجرجته لها احست ان القطار القديم موشك على التحطم فتزداد انكماشا ودعاء والهواء يسفح فى وجهها من النافذة المكسورة وكلما هدأ القطار من سرعته أيقظت ابنها ليقرأ لهـا اسم المحطة التالية فيتطوع أحـد الواقفين ويقول :

— لسه بدرى على دمنهور ياست

فتمسكت الست وهى تصبر نفسها وتضغط على أمعائها التى فاجأتها بمغص لا تعرف أهو من قلة الأكل أو من شدة البرد أو من شدة الألم .. لكنها تبقى صامتة ولا تترك لأحد فرصة أن يشعر بما تعانى منه فهى لا تريد أن يتدخل أحد فى شئونها . لكنها كانت تعاتب فى صمت ابراهيم الذى يسبب لها ولأبيه المتاعب وتقارن بينه وبين أخيه محمد وتحمد الله أن جعل من أولادها من يمتلىء قلبه حنانا كمحمد ،اما ابراهيم فليهده الله فهو على أى حال ما زال صغير السن ومن السهل أن يضحك عليه أولاد الحرام وعليها الا تقطع معه الأمل فيقع إلى آخر العمر فى أحضان أولاد الحرام ويضيع تعبها وتذهب تربيتها ادراج الرياح .

راحت الأم تفكر فى قدرها الغريب مع أولادها . . القدر الذى فرض عليها أن تترك بيتها لأول مرة منذ تزوجت وترحل بعيدا وتركب

وحدها القطار رغم انها لا تنسى يوم ركبت مع زوجها الترام ونزلت عند نهاية الشريط وسارت على رجليها حتى وصلت إلى المصنع الذى يعمل فيه ابنها محمد .. لا تنسى كيف عادت فى ذلك اليوم وارجلها موشكة على التشقق من شدة الألم وطول المسير . . فماذا تفعل اليوم وهى تركب القطـار لا الترام . . والله وحـده يعلم ماذا ستفعل وكم من الامتار أو الكيلومترات ستسير حتى تصل إلى القرية التى يعمل فيها ابنها .

وقف القطار فى دمنهور فنزلت الأم وهى تحمل بين يديها السبتين اللذين وضعت فيهما كل حاجاتها الضرورية ويتعلق بذيل ملائتها ابنها مصطفى . وعلى أقرب مقعد جلست تنتظر حتى يتحرك القطار ويهدأ الزحام ، ثم راحت تسأل عن مكتب بريد المحطة وهناك وضعت الخطاب الذى أعطاه لها زوجها لترسله له فور وصولها ليطمئن عليهـا . وبعد ذلك تحركت نحو أحد الجالسين خلف المكاتب فى البوستة ومسألته عن مكتب بوسطة (لقانه) لأنهـا أم (الطواف) ابراهيم الذى يعمل هنـاك وهى قادمه من مصر لزيارته فرحب بها الموظف وأجلسها هى وابنها الصغير وطلب لهمـا كوبين من الشاى ثم أخبرهما ان الطريق إلى القرية لا يمكن الوصول إليه الا بركوبة خاصة ولكنه سيدبر لهما الوصول فى عربة البريد ، فشكرته الأم وجلست تنتظر إلى أن جاء أحد السعاه وحمل سبتيها ودعاها إلى عربة البريد .

وبعد أن قطعوا طريقاً ترابياً مؤلماً وسط الحقول وقفت العربة وسمعت صوت السائق ينادى على أبنها ابراهيم ويخبره بأنه يحمل له هدية غالية ، فخرج ابراهيم الذى كان يدخن سيجارة ليتطلع إلى العربة التى أعتاد أن يأخذ من قلبها (الحطابات) أو يفرغها فى جوفها ، فكانت مفاجأة ألجمته برهة ثم يمسك بيدى أمه ويقبلها فى شوق وحب غامرين وهى تبعد وجهها عن أنفاسه المتائة برائحة الدخان . ثم حمل أخاه على يده ودعا أمه إلى مصاحبته إلى المنزل .

لم يدر أى حوار بين الأم وأبنها لفترة طويلة كان هو المتحدث والمجيب فتارة يسأل عن أبيه وتارة يسأل عن الأحوال حتى أدرك أن أمه لم تأت إليه لزيارة مشتاق ولكنها لاشك آتية لأمر هام بل وخطير فراح يلملم نفسه وينكمش رويداً رويداً حتى أصبح فى الوضع الذى يمكنها من بدء حديث تغالب فيه عواطفها وتتصنع فيه التقريع والزجر والعنف وإن كان من وراء قلبها . وراحت تتطلع إليه وتبحث عن ابنها فى الشخص الذى يجلس أمامها . . هذا الوجه الأسمر لم يكن بنفس الدرجة من السمرة من قبل . . لقد زاد وجهه تحمصاً وتغيرت ملامحه وأصبحت أكثر جرأة أو أكثر عملية عن ذى قبل . والشارب الذى لم يكن له وجود أصبح كشارب أى رجل كبير . . وهذه البدلة التى يرتديها . . إنها ليست بدلة ابراهيم التى تعرفها جيداً منذ كان تلميذاً فى المدرسة الابتدائية ، وكان آخر عهدها بها يوم غسلتها وأرسلتها إلى المكواء لتعود من عنده أضيق قليلا ولكنها أكثر نظافة ورونقاً . وهذه القبعة المصنوعة

من القش التى جعلت من ابنها شخصاً آخر غريباً إلى حد ما . . بعيداً عن الابن الذى ظلت صورته مرسومة فى ذهنها منذ سافر إلى ما قبل لحظات فأى شخص هذا وأين ابراهيم الابن من ابراهيم الجالس أمامها :

عاد الابن مرة أخرى يحاول أن يفتح حواراً مع أمه التى أوحشته حقاً فقال :

— حمد الله على السلامة يا امه . .

لكن الأم نظرت إليه بقوة نفاذ جبارة وقالت بسخرية :

— الله يسلمك ياسى ابراهيم

فابتلع الابن ريقه وعاد إلى استمرار الحوار مع أمه :

— وازى أبويا وأخواتى ؟

وهنا وجدتها الأم فرصة لتبدأ تنفيذ الوصايا التى أوصاها بها زوجها وجاءت من أجلها إلى (لقانة) :

— وهو أنت يهمك أب ولا أخ . .

— ليه ياأمه كفى الله الشر . . هوأنا عملت حاجة تغضبك أنتى ولا أبويا ؟

— هو أنت لسه معملتش . . ياخسارة تعبنا وشقانا فيك . . لو كنا عارفين إنك حتطلع كده كان موتك أهون . . أنت عاوز تعمل فينا ايه ياواد . . عاوز تموت أبوك بحصرته . عاوز تموته مقهور عليك . ده أخرتها ياسى ابراهيم ؟

ـــ بس ياأمه بالراحة شوية . هو أنا عملت إيه ؟

ـــ وكمان مش عارف أيه اللي عملته ؟ صحيح . . اللي اختشوا ماتوا ؟ أصلك مكنتش عايش معانا وعارف أبوك بيجيب اللقمة أزاى . . كنا فاكرينك حتقف جنبه زى أخوك محمد وتساعده فى تربية اخواتك . . مش تبعت من غير أدب ولا حياء . . وتقول له هات . . يجيبلك منين ؟ هو عنده مطبعة فلوس . . روح شوف أيه اللى بتعمله فيه جواباتك . . الناس حاسبينكو على رجالة . . ييجوا يشوفوا خيبتكو وغارقين بيكوا . .

نظر إليها أبنها ابراهيم بتأثر وحاول أن يتكلم لكنه كان مفحماً فقال :

ـــ كل ده عشان طلبت من أبويا خمسة جنيه . . تستخسرى فى خمسة جنيه تنقذنى من الفصل . . وراح يبكى وينهنه بصوت عنيف مما جعله يرتمى على سريره ، لكن أمه لم تفقد شدتها ولم تلن أمام بكائه وقالت له بنفس الحدة :

ـــ ما شاء الله . . بقيت بتتكلم بالجنيهات ياسى ابراهيم . . ومنين يجيب لك خمسة جنيه يا أفندى . . يسرقها لك والا يشحتها ؟

نظر إليها ابراهيم وهو يمسح عينيه ويقول :

ـــ خلاص . . لا يسرقها ولا يشحتها . . أنا ع العموم غلطان كنت فاكر إن لى أب تهمه مصلحتى لكن ياخسارة لا بقى لى أب ولا . . .

ــ سكت ليه ؟ متــكل .. قول ولا أم كان .. لـكن أنا الغلطانة .. قوم ياواد . . ياللا يا ابنى يا مصطفى . . خلينا نرجع قبل الدنيا ما تضلم . .

وأمسكت ابنها من يدها ونهضت تضع الملاءة حول جسمها ولـكن ابنها نهض فزعاً وقال :

ــ على فين يا أمه ؟

ــ بتقول يا أمه ؟ لما يبقى لك أم أبقى قولها يا أمه . . فوتك بعافية ياســيدى . .

لـكن الابن نهض ومال على يدى أمه يقبلها ويعتذر إليها ويطالب منها الصفح والمغفرة فقد أيقن انهاجادة فى الرحيل والمسألة ليست تهديداً وعبثاً . وراح يتوسل إليها ويبكى وهو يطلب منها أن تعطيه الفرصة لتجلس معه وترى حاله وتحكم بنفسها فردت عليه بنفس الحدة :

ــ الحال باين ياسى ابراهيم . . اللى يعرف طريق السجاير يبقى عرف طريق غير طريقنا .

مين فى عيلتنا بيشرب سجاير . . أبوك والا أخوك والا أمك . . مش أحسن توفر تمن علبة السجاير وتحوشه لمستقبلك ؟ . .

فقال الإبن :

ــ والله يا امه غصب عنى . . أنتى متعرفيش الوحدة . . أنا طول النهار

قاعد بين أربع حيطان وأهل البلد كلهم بيشربوا العسل مش السجاير بس وأنا لازم أجاريهم ف عيشتهم وألا يعزلونى ويبعدونى عنهم والدنيا مفيهاش رحمة يا أمه . .

— كل حتة فيها الحلو والوحش وكل واحد يمشى فى السكة اللى بتريحه . .

— والله يا أمه حتمرفى كل حاجة وحتعزرينى بس أستريحى دلوقت خمس دقائق لحد المكتب وح ارجع على طول . . تعال معايا يامصطفى . .

قالت الأم بحزم .

— لأ . . روح أنت لشغلك ومتغبش . .

وخرج ابراهيم من « الدار » وبقيت الأم وحدها تتطلع فيما حولها ثم تعود إلى نفسها وتتساءل .. هل نجحت فى هز الولد كما أراد له أبوه . . هل أستطاعت أن تكيل له عدة صفعات عنيفة ليفيق ؟ وماذا يجب عليها بعد ذلك . . هل تعود إلى طبيعتها وتلاينه أم تستمر فى تنفيذ دورها رغم ما يكلفها هذا من مشقة لم تألفها فهى لاتنكر انها كانت مشتاقة إلى أبنها . . ولا تنكر انها أحست بالراحة بعد أن رأته رغم ما سببه لها ولأبيه من كدر وحزن عظيمين .

وبينما هى تفكر فى أمر أبنها وأحواله وأفضل السبل لاستعادته إلى جناحيها ، إذا كانت (غربته) قد أغرته بالخروج عن طاعة والديه ، سمعت صوتاً نسائياً ينادى بلهجة ريفية غير مألوفة على ابنها ، ثم يقترب الصوت ويدق باب « الدار » فخرجت الأم وفتحت فوجدت أمامها فتاة ترتدى

الجلابية السوداء الريفية وتحمل فوق رأسها طبقاً به بعض البيض والجبن فقالت كأنها صاحبة بيت ترحب بضيف عزيز وابتسامة مضيئة تغطى وجهها :

— أهلا وسهلا ياست أم ابراهيم .. الدار نورت والبلد كلها نورت ..

ونظرت إليها الأم فترة صامتة لا تعرف ماذا تقول لها . . فتابعت الفتاة .

— سى ابراهيم أفندى باعت لك الحاجات دى .

فأخذت الأم من يدها حملها وقالت تستدرك ما فاتها من ترحاب بهذه الزائرة التى تبدو أليفة مألوفة :

— أهلا يا بنتى . . أتفضلى خشى . .

— معلهش يا حاجة أصل عندى شغل

— واسمك ايه يابنتى ؟

— أنا فتحية . . فتحية (الملاية) والنبى ده سى ابراهيم ابنك باين عليه طيب قوى . .

أنا أول ماشفته قلت انه ابن ناس طيبين . . فوتك بعافية يا حاجة ..

— مش بدرى يا بنتى

— بدرى من عمرك .. فى الأفراح إنشاء الله .. نورت البلد ياحاجة ..

— والله يعافيكى يابنتى . . كتر خيرك

هذا أول الغيث .. ترى من تكون فتحية هذه الشابة الريفية الجميلة التى تبدو كأنها معتادة على البيت وصاحبه وتتحدث بثقة كأنها تملك شيئاً فيه .. كيف تأتى وحدها إلى بيت أعزب .. فى وضح النهار والقرية كلها عيون تحصى الأنفاس لا الحركات وحسب .. وكيف يسمح لها أهلها بدخول « دار » شاب أعزب ؟ اهى ثقة فى البنت أو الولد ؟ولكن كيف عرفها ابراهيم ولماذا ارسل معها الطعام ؟ لم لم يرسله مع أحد السعادة فى المكتب .. هل يبدو فى الأمر شىء ؟ يبدو أن المسألة لابد لها من تروى ..

وقبل أن تفيق الأم من تفكيرها عادت فتحية تنادى هذه المرة عليها هى نفسها :

— ست أم ابراهيم

فتحت الأم الباب فدخلت بلا استئذان وفوق رأسها (بلاص) مملوء بالماء

— بسم الله الرحمن الرحيم .. دستورك ياحاجة ..

ودخلت إلى المكان الذى وضع فيه «الزير» وصبت فيه الماء وخرجت وهى تتمتم :

— متنسيش ياحاجه تقفلى الشباك قبل ما يهجم الناموس ..

وخرجت فتحية وغابت وعادت ببلاص آخر وراحت تذهب وتعود

دون أن تتوقف طويلا عن الأم التى راحت تتطلع إلى فتحيـــة التى (تدوس) البيت وتعرف كـكان « الزير » ومتى يجب أن يغلق الشباك، وأين يضع ابنها « الباجور » وأين زجاجة « الزيت » وقدر الملح وعلبة الشاى والصابون » . هذه البنت ليست مجرد (ملاية) انهـا أكثر من هذا بكثير .. انها تعرف كل شىء فى البيت .. ترى هل تأتى كثيراً هنا ؟ وما نوع علاقتها بابنها ؟ ولـكن كيف يسمح لها أهلها أن تأتى إلى (دار) شاب أعزب يعيش وحيدا ؟ أهذا هو الريف ؟ ، وبعد كل هذا ننتظر منه أن يذكرنا ؟

ليس من السهل أن تفهم الأم ما يجرى أمامها فهى لم تخرج من المدينة من قبل ولم تر من الريف الا الأرض الزراعية فى شبرا البلد . . بل انها لا تعرف من المدينة الا البيت الذى تسكن فيه والحارة التى تعيش فيها مع جيرانها الذين لا يتغيرون والشارع الذى تخرج منه أحيانا إلى سوق الخضار أو سوق السمك أو (القرافة) فى الأعياد . . الشارع القديم (باب البحر) .

ولم تصبر الام وانما انتهزت أقرب فرصة للحديث مع ابنها لتسأله عن البنت فتحية فقال بلا مبالاة :

— ده بنت (ملاية) فى البلد

— بنت مين فتحية دى ؟

— دى بنت مسكينة يا امه .. مالهاش أهل .. كل البلد تعتبرها بنتها ..

ســـاعات تخدم فى بيت العمدة وساعات فى بيت شيخ الغفر . . واهه بتلقط رزقها . .

سكتت الأم وعقلها يعمل .. انه يزن كلمات الابن ويفندها ويبحث فيها عن مغزاها الحقيقى .. مسكينة مالهاش أهل .. أهو عطف أو شفقه أو تعاطف .. «أهه بتلقط رزقها .. كيف ؟ بالعمل من رجالها ؟ من أبوها؟ من زوجها ؟ أم أنها بنت ، لا رابط لها ؟

عاد ابراهيم إلى أمه يستفسر :

ـــ هى عملت حاجة يا امه ؟

ـــ لا .. حتعمل ايه .. بس شفتها بتخدم بقلب حبيت أعرفها ..

ـــ هى كده .. شاطره وقلبها حامى .. لـكن قليلة البخت ..

ـــ ازاى ؟

ـــ ساعات تشتغل طول النهار ما تطلعش غير باللقمة . . يقولوا مفيش فلوس .. تعمل ايه ؟ تضطر تسكت عشان تعيش ..

ـــ وعايشة لوحدها كده ؟

ـــ لأ .. أبوها قبل ما يموت كان موصى عليها واحد كبير من البلد .. قاعدة ف بيته .. طول النهار تدور على رزقها وبالليل تروح على بيته وتنام مع بناته ..

ـــ صحيح مسكينة ..

ـــ الدنيا فيها كتير يا امه ..

أحس ابراهيم أن أمه بدأت تعود إلى طبيعتها وان غضبها الذى فاجأته قد زال وها هى تجلس معه فتسعده وترفع من شأنه وسط الناس فقد ادركوا أن ابراهيم ابن مصر له أهل يأتون من مصر إلى (لقانة) ليطلعوا عليه ويعرفوا أحواله ، كما انها كذلك فرصة مناسبة لـكى يتعرف على أهل البلد بشكل أوسع عندما يأتون إلى بيته لزيارة امه وأداء حق الضيافة لها فى بلدهم . فتكون فرصة أكبر لـكى ترى ابنها على حقيقته بين الناس وتنقل لأبيه صورة عن حاله فيدرك أن ابنه رجل بين الرجال له فى مجالسهم نصيب وافياً كانت الظروف قد منعته من إرسال ما كان يجب أن يرسله من مساعدة لأبيه فانه فى بعده عنهم قد وفر شيئا من التعب الذى كان يتحمله أبوه سواء فى المدرسة أو فى الصرف عليه وتربيته . مال ابراهيم على امه وقال :

ــ بالليل حتيجى الحاجة بهية وأولادها .. والحاجة خضرة عشان يسلموا عليـكى ..

ــ مين بهية وخضرة دول ؟

ــ دول ستات من أهل البلد ومن العادة أنهم يزوروا أى حد غريب يبجى البلد ويعزموه فى (دارهم) ويدبحوا اللى فيه القسمة ..

ــ هو أنا جايه هنا أضايف يا ابنى ؟

ــ انتى جيتى يا امه . ومش معقول نقفل الباب فى وش الناس ..

ــ كده .. طب والضيافة دى مش حيلزمها مصاريف ؟ مش تميز يا سى ابراهيم ؟

ــــ لا .. مفيش غير الشاى

ــــ وازاى تقبل اننا نتعزم عند ناس واحنا ما عزمناهمش ف بيتنا ..

ــــ لا يا امه .. هى العادات هنا كده ..

سكتت الام ولم تقل لابنها شيئاً يسعده أو يحزنه فقد قررت أن ترى بعينها كل شىء وتتعرف بنفسها على أحوال ابنها وحياته كما هى لتفعل ما يجب عليها نحوه سواء باللين أو بالقوة .. وهى وان كانت غير راضية عن أحواله وطريقة حياته بشكل عام ، الا أنها لا تعرف بالضبط ماذا تقول له ولا كيف تقدم له صورة بديلة .. نعم هو يبدو وكأنه (فاتحها ع البحرى) لكنها كلما قالت شيئا فانها ستسمعه يقول ان هذه هى حياة الناس .. أو ماذا أفعل .. أو هل اخلق نظاما خاصا بى .. فليذهب الى حيث يشاء فكل ما تريده منه هو ان يكون إنسانا بين الناس فلا ينسى أبوه ولا اخوته ويجب أن يساهم فى مساعدة أبيه ولو بثمن سجائره التى تحترق فيها الفلوس وهم يحترقون فى سبيل البحث عن القوت .. يجب أن تعود من هذه الزيارة بنتيجة هامة تعيد الثقة إليها والسعادة إلى أبيه الذى يكاد أن يتمزق بسبب لا مبالاة هذا الابن المتعب ..

الفصل الثامن

جلس الضيوف فى (دار) ابراهيم عند المساء إلى وقت متأخر من الليل . . لم يكن الزوار هم الحاجة بهية والحاجة خضرة وحدهما وانما كانت المرأتان على رأس عدد كبير من الزوار رجالا ونساء فقد جاء الشيخ متولى زوج الحاجة بهية والحاج رضوان زوج خضرة وعدد كبير من أولاد وبنات الأسرتين لم يترك للأم فرصة لحفظ أسمائهم فكانت ترد على حديثهم تارة بكلمة (يا بنتى) وتارة أخرى بكلمة (يا اختى) حتى ضاعت الليلة فى ثرثرة وكلام كثير ودخان أكثر من السجائر والجوزة وامتلاء البطن بأكواب متتالية من الشاى الأسود والشاى الأحمر الهندى لأن الحاجة « أم ابراهيم » هكذا لقبوها . . لا تألف الشاى الأسود . وكانت البنت فتحية تقوم بصنع الشاى وتقديمه للرجال والنساء ثم تجلس بينهم إذا انتهت من عملها وتعود إلى العمل إذا طلبوا منها براد آخر من الشاى أو قطعة من النار (للجوزة) .

لم تذهب البنت فتحية إلى البيت الذى تنام فيه رغم أن الليل أصبح موغلا فى الظلمه فهل يكذب عليها أبنها ليهدئها بقوله أن فتحية لها بيت تذهب إليه عندما يحل الظلام ؟

والغريب فى الأمر أن المرأة لم تستطع أن تميز وجهاً واحداً من

الوجوه الكثيرة التى كانت تحيط بها فى هذه السهرة لأن الجميع كانوا يجلسون فى الظلام خوفاً من قرص الناموس على المرأة التى لم تتعود الحياة وسط اسرابه الليلية المقلقة ، وكانوا يكثرون من الدخين الذى ملأوا المكان برائحته العطنة وأسدل ستاراً بينها وبين كل واحد وواحدة منهم طول السهرة . لكنها خرجت من هذه السهرة باقتناع لا سبيل إلى تغييره هو أن ابنها ابراهيم وان كان مظلوماً فى مسألة الحمار فإنه ليس مظلوماً فى مسألة فتحية فقد زاد الشك فى قلبها أن بينه وبين هـذه البنت شىء لا يعرفه أحـد حتى هؤلاء الذين يدعـون صداقة ابنهـا ويأتون إلى بيتها للزيارة والمجاملة ، وقد رأت فتحية التى كانت تجلس أمام « الباجور » وتسوى الشاى وهى تغازل ابنها الذى دخل منتهزاً اندماج الجميع فى الحديث ورغم أنه لم يغب فترة طويلة فى الداخل إلا أن وجه فتحية الذى رأته الأم بوضوح من ضوء « نار الباجور » كان يقول الكثير ويعبر عن الكثير من الهيام والوجد .. لكنها لم تستطع أن تفصح عما فى نفسها لابنها لأن كل ما تستطيع أن تواجه به ابنها من اتهامات لا يتعدى الشك . ثم انها فى الحقيقة لا يعنيها من سلوك ابنها شيئاً فهو رجل والرجل لا يعيبه شىء وإذا كان لابد من الخوف فان يكون ذلك على ابنها على كل حال اللهم إلا إذا كان الأمر يتصل بالمسائل المالية فهل ينفق ابراهيم فلوسه على هذه البنت ؟ إذا كان هذا التفكير صحيحاً فهى كارثة ولاشك لأنها لن تستطيع أن تجد لها سبيلا إلى الخلاص .

وانتهت السهرة بعد وقت طويل وممل أحست الأم فيه أنها ليست من

نفس الطينه لتى خلق منها هؤلاء الناس فهى لا تعرف من الدنيا إلا بيتها وأعمالها المنزلية الـكثيرة التى تهد الحيل منذ الصباح إلى أن يأتى الزوج فى الليل وانتهت السيرة وهى تزداد شـكا فى هذه البنت التى وقفت مع ابنها بعد أن أنصرف الضيوف وقالت :

— مش عاوز حاجة يا سى ابراهيم ؟

فقال ابراهيم بصوت لا أثر فيه لعاطفة شخصية أو حتى رغبة فى مواصلة الحديث :

— لا يافتحية كتر خيرك ..

مع ذلك أحست الأم أن هذا (الـ مش عاوز حاجة) ليست كلمة عابرة ولـكنها تحمل فى طياتها الـكثير من الغمز والرمز والدلال والإيحاء وعدم الـكلفة ، فهذة البنت الفلاحة ذات الجسم الرجراج كقربة اللبن الخض ، التى لا يعرف أحد لها أصلا ، لا يمـكن أن تتجرأ وتقف هكذا وجسمها يتقصع ويتثنى تحت الجلابية الفضفاضة ، ويحمل صوتها الـكثير من الجرأة التى لا تجدها فى بناتها أو بنات جاراتها ، بل ولا تجدها فى البنت (باتعة) التى تضيع نهارها كله فى اللعب مع كل من هب ودب سواء كان صغيراً أو كبيراً وسواء كان ولداً أو بنتاً ، والذى أشعل الشك فى صدر أمه أن ابراهيم طلـــب منها أن تنتظر حتى يوصلها إلى بيتها فلا يصح أن أن تذهب بمفردها فى هذا الليل بعد أن خدمت ضيوفه حتى تأخرت عن

موعـد عودتها ورغم أن البنت قالت له أن الله هو الحـارس إلا أنهـا لم ترفض أن يذهب معها . فأى بنت هذه ، وأى ولد هذا . . ترى هل بينها وبينه شىء ؟

انتهت السهرة وهى موشكة على الاقتناع بأن أبنها مظلوم فى مسألة الحمار وان لم تكون قوية الاقتناع بأن الحـكومة يغفل عليها أن الحمار مخلوق له عمر وأنه عندما ينتهى أجله يموت كـكل مخلوق حى .

لم تكن قوية الاقتناع رغم تبرير الشيخ متولى وقوله أن الحـكومه لا تعذر فهى تسـلم الموظف العهدة وتستلمها بلا مناقشة ، والحمار عهدة ولازم يرجع أو يدفع الموظف ثمنه .

لم تقتنع لأن المسألة لا تعقل . . ده روح يا ناس . . ازاى يدفع ثمنه هو مسئول عن الأرواح (أستغفر الله العظيم وأعوذ بالله من الـكفر) لازم الحـكومة تقدر وتفهم كده ، لـكن الحاج متولى الخبير بمسالك الميرى راح يبرر للأم بشكل آخر فقال :

— المسألة يا حاجة أم ابراهيم أن الحـكومة تنجى نفسها من ألعاب الموظفين ، ولو سابت الحبل يعنى ع البحرى يقدر كل طواف يتاجر بحماره، يأخذ الحمار صاحى ويستبدله بحمار ميت من أى فلاح ويكسب فيه . عشان كده قدروا لـكل حمار عمر فى الخدمة وبعد ما يستوفى عمره يطلعوه ع المعاش . .

ورغم أن كلمة الحاج متولى الأخيرة أثارت موجة من الضحك والكركرة والكحة لدى الحاضرين إلا أن الأم عادت تمسك حبل الحديث وتقول :

— يقدروا يعملوا أى حاجة . . يعلموا الحمير بتاعتهم . .

فقال الحاج متولى :

— مينفعش يا حاجة أم ابراهيم . . يعنى يحطوا للحمار نمرة ؟

وعاد الجميع إلى ضحكهم وكركرتهم وكحتهم حتى امتلأت الأرض بما فى صدورهم من هم وغم وضعف .

لم تكن الأم مقتنعة بهذا الكلام لأن معنى هذا أن يضيع الموظف ماهيته فى أى طارىء يفاجئه به حماره سواء كان مرضاً أو موتاً .

لكن الحاج متولى والحاج رضوان راحا يطمئنان الأم بأن المسألة ليست بهذه السهولة وكل ما فى الأمر أن ابنى ابراهيم كان سىء الحظ فى حماره (ومعلش ياحاجة . . الناس لبعضها واحنا برضه مش حنسيبه ف ورطته) . ورد الجميع بالإيجاب فتأثرت الأم لشهامة الرجال واندفعت قائلة إنها لم تأت الى وزيارة ابنها إلا بخصوص هـــذا الموضوع فقد أرسل ابراهيم خطاباً لأبيه وشرح له حاله فأرسلنى أبوه للاطمئنان عليه وأرسل معى ثمن الحمار (لأننا مش معقول نرمى أبننا ومنسألش عليه فى ورطته) .

وشكر الجميع أبوه الغائب صاحب الأولاد لشهامته ودعوا الله أن

أن يعوضه عن ماله خيراً . لكن ابراهيم لم يتمالك نفسه من فرط السعادة فانعكست على وجهه بشراً ونهض إلى أمه يريد أن يقبل يدها أمام الناس فنهته عن ذلك مستغفرة الله لكنها طابت منه أن يكون أكثر حذراً في المرة القادمة فليس من السهل أن يدفع له أبوه تعويض العهدة كلما ماتت وهو أدرى الناس بأحوالهم .

وانتهت السهرة وذهب الضيوف وذهبت فتحية وذهب ابراهيم وعاد وحاولت الأم أن تريح جسمها وتنام لكنها لم تنم . هناك شيء مالا يريحها . قد يكون بعدها عن بيتها . . قد يكون عدم تعودها على ليل الريف الموحش المرشوش بالناموس . قد يكون فتحية . . قد يكون الحمار الذى دفعت ثمنه ولم تدقق كما أوصاها زوجها فقد اندفعت فى موجة الكرم التى غمرها بها أهل القرية نحوها ونحو ابنها واخبرتهم أن أباه سيتحمل تعويضه عن حماره .

لم تنم ولم يكن من السهل أن تنام فى هذه الليلة بالذات التى قدرت لنفسها أن تكون آخر ليلة لها فى هذه القرية فقد فقدت بكلمة واحدة كل الفلوس التى كانت تضمها فى كيس الفلوس القديم وتلفه بمديل وتخفيه فى مكان ما بصدرها فكان لابد بعد ذلك أن تفكر فى الرحيل إلى بيتها فمن غير المعقول أن تبقى عالة على ابنها وهو لا يكف عن الشكوى فى كل خطاب يرسله حتى أصبحت خطاباته هى السبب الرئيسى لازعاجهم جميعاً فى البيت .

قالت الأم لابنها :

ـــ احنا مسافرين بكره . .

فنهض الابن من فراشه وهو يستفسر من أمه عن سبب قرارها المفاجىء وهل سبب لهـــا أحد إزعاجاً فقالت : إنها لم تأت إلى عنده للضيافة فهى لا تعرف المجاملة ، ولا الضيافة كما أن أحوالهم لا تسمح بمزيد من التضحيات وكل ما جاءت من اجله هو أن تجعله يضع عقله فى رأسه ويفكر فى أبيه وأخوته الذين كانوا ينتظرون منه جزاء أكرم مما وجدوا، فهو يعلم أن أباه محـدود الدخل ولولا مسـاعدة أخيه محمد فى مصروف البيت لمـا وجدوا ثمن الخبز الذى يسد رمقهم ، وأن ماهية موظف فى الحـكومة زى حضرتك أكبر من ماهية أبيك وأخيك معاً . . ومع ذلك لا تصلنا منك إلا الشكوى فهل تظن أن هذا الحال يرضى الله ولنـا فيك حقوق أقلها حق الحمل والولادة والرعاية والتربية حتى صرت ابراهيم أفندى الموظف .

ولم يجد الفتى أمامة بعد هذا الدش الساخن إلا الوعد والقسم بأنه سيعوض أمه وأباه على كل مافعلاه فى سبيل كما أنه سيكون لأخوته القدوة الصالحة ولن يتأخر عن إرسال نصيب من مرتبه لساعدة أبيه فى مصروف البيت ، ولم ينسى أن يطلب من أمه الدعوات التى يتقبلها الله من قلوب الأمهات فقالت أمه أنها دائماً تدعو له بالهداية لـكنه فيما يبدو لا يريد

الدعوات ولكنه يريد عصا أبيه التى تذكره بنفسه وبالبيت الذى خرج منه .

هكذا وجدت الأم نفسها تندفع فى آخر محاولة للسيطرة على ابنها وفرض حقوقها وحقوق أبيه التى أضاعتها سحر الغربة فلم يعد يهتم الابن لا بأب ولا بأم ولا بأخوة . ولم يهدىء غضبها إلا تصميم الإبن على العودة إلى جناحى أمه وأبيه فهو بدون رضاهما لن يشعر بلذة العيش ، وقطع عهداً على نفسه أن يرسل إليهم فى أول كل شهر جنيهين كاملين وإذا فتح الله عليه زاد المبلغ بل أنه انساق فى موجة الكرم المفاجئه وقال انه يتمنى أن يقدره الله ويعطيه لينفق على أسرته كلها ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . فقالت له أمه إنها لا تريد منه أكثر مما فى استطاعته وأن جنيهين فى الشهر لا بأس بهما فهما على الأقل يغيران الفكرة السيئة التى ألتصقت به وجعلت أباه غاضباً عليه لتهاونه فى واجبه نحوه وختمت كلامها بأن قليلا دائماً خير من كثير منقطع وربنا يهديك ويحميك من عيون أولاد الحرام .

وفى الصباح طلب ابراهيم من أمه أن تستعد للسفر فى الظهر إذا كانت مصممة على الرحيل ، وقال أنه سيرافقها إلى (دمنهور) حتى يطمئن إلى أنها ركبت القطار بسلامة الله ثم تناول كوباً من الشاى صنعته أمه مع (لقمة) من الجبن وانصرف إلى عمله فبدأت الأم على الفور تجمع ملابسه المتسخة وتغسلها وفى نفس الوقت أشعلت الباجور وبدأت تطبخ

له ما يوفر عليه عناء البحث عن لقمة يقيه مغذية . وبينما هى مندمجة فى عملها سمعت الصوت الذى أصبح مألوفاً لديها فنهضت وفتحت الباب ودخلت فتحية وفوق رأسها سلة فيها بعض الفطير المثلتت من الحاجة بهية وكام جوز فراخ محمرة من الحاجة خضرة ومعهما السلام من المرأتين ورسالة ودية على لسان فتحية بأن الستات أرسلوا هذه الأشياء البسيطة لأن الست أم ابراهيم لم تشرفهم بالزيارة كما كن يتوقعن ويرجونها أن تقبل هذه الأشياء البسيطة لتكون ذكرى طيبة لهما عند ما تصل بسلامة الله إلى مصر .

ولم تعرف الأم ماذا تقول لفتحية فهل تقبل هذه (الأشياء البسيطة) التى قد تكون عبثاً على ابنها فى (ردها) أو ترفضها فتكون إهانة لأهل البلد الذين رحبوا بها وبابنها وأكرموها كرماً مشكوراً .

لم تعرف الأم ماذا تقول ؟ فأخذت الهديه من فتحية ووضعتها فى فى وسط الغرفة وغطتها بمصفاة (القوطة) وعادت لتستأنف عملها لكن فتحية صممت أن تترك الأم هذه الأعمال فهى ضيفة والضيف له حقوق وأقسمت بأنها هى التى ستغسل ملابس ابراهيم أفندى ، وأمام تصميم البنت قبلت الأم أن تجلس أمامها على الطشت وتساعدها فى غسل ملابس ابنها .

وكانت فرصة مناسبة أن تقوم بآخر محاولة لسبر أغوار فتحية ومعرفتها على حقيقتها وقطع الشك باليقين فى أمر بات يؤرقها لأنها وهى

على وشك العودة لم تستطع ان تقطع برأى فى أمر العلاقة الغريبة بين ابنها وفتحية ، وراحت الأم تمدح للبنت بلدها (لقانة) وأهلهـا وناسـها ، فقالت فتحية بتلقائية لا أثر فيها لتصنع أو اخفاء انها ليست من (لقانة) وانها لا تعرف لها بلدا على وجه التحديد فقد جاءت مع أبيها إلى (لقانة) وهى صغيرة بعد ان طوفت معه ومع زوجته فى عدة قرى انتهت باستيطانهم فى لقانة وكثيرا ما كان أبوها يحدثها عن وطنها لـكنها لم تـكن تفهم منه شيئا فقد كان يرتد فى كل حديث إلى أبيه الذى فر هو الآخر من بلده وهو شاب صغير خوفا من السخرة أيام حفر القناة . ومن ساعتها وهو لا يستقر فى بلد فهو دائم الحل والترحال حتى مات شيخا كبيرا وترك ابنه الصغير (أبى) الذى ورث عن أبيه حب التجول في البلاد حتى جاء إلى لقانة واستوطنها بعد أن أصبح شيخا عجوزا هو الآخر ومات (هنا) وانا صغيرة فأوصى الشيخ عبد الراضى برعايتى وهكذا أصبحت من أهل (لقانة) وأصبح لى بيت هو بيت عم الشيخ عبد الراضى(واهه دنيا ياست أم ابراهيم) .

تأثرت الأم من قصة البنت التى اندفعت فى روايتها بعد أن استراحت لها الست أم ابراهيم السيدة الطيبة التى عرفتها مصادفة وهى الآن على وشك الافتراق عنها ، وقد لا يلتقيان مرة ثانية ، فلا مانع من البحبحة معها فى الـكلام . وهكذا وجدت فى سرد قصتها على هذه المرأة بالذات شيئاً يريح نفسها ويزيل عن صدرها سرا لا يستمع إليه أحد فـكل ما يريده الناس من فتحية هو الخدمة .

— ولـكن مش تفـكرى فى مستقبلك يا بتى .. وتشوفى عدلك ؟

— شفته ياست أم ابراهيم وتبت . اتجوزت واحد حرامى .. قال رضينا بالهم والهم مرضيش بينا . كان يصبحنى بعلقة ويمسينى بعلقة ويشتمنى عشان مبجبلوش عيال مع أنه مكانش قادر يصرف على لوحدى ، هربت منه ورحت للشيخ عبد الراضى وطلقنى منه ومن يومها طلقت الرجالة . دول مفيش وراهم غير الهم .

هزت الام رأسها بتأثر وقالت « مسكينة يافتحية » وقالت فتحية « أعمل ايه ياست أم ابراهيم . الدنيا كلها شقا » .

— صدقتى .. محدش واكلها بالسهل أبدا ..

ثم أرادت فتحية أن تزيح هذا الوافد الحزين بينهما فقالت وهى تشوح بيدها وتبتسم :

— يا أختى .. بلا عيا . . يعنى انا شفت ايه م الرجالة . . لاجوز نافع ولا آب شافع .. والنبى ياست أم ابراهيم ما فيه أحلى م العيشة كدا لاحد ينا كفنى والا أنا كف حد ... كل الناس بيحبونى وانا بحبهم كلهم وكل يوم فى بيت اشتغل وآخر النهار اخد اللى فيه القسمة واهه ماشية كدم خفيفة نضيفة لاحد يزهق منى ولا أزهق من حد .

— وامك فين يا فتحية ؟

— أمى الله يحنن عليها بقى

نظرت الأم نظرات دهشة وركزت عينيها في وجه البنت تتساءل فتابعت فتحية بنفس التلقائية :

ـــ أمى تو ما مات أبويا جالها عدلها اجوزت ومشيت م البلد كلها . واحد من بتوع الموالد دول لاف عليها وأجوزها .. قالت لى تعالى معايا يابت لكن أنا مرضتش .. أنا مالى يا أختى ومال العيشة دى هو احنا مشبعناش لف ودوران قلت لها انتى من ناحية وانا من ناحية انا هنا جنب تربة أبويا وانتى الله يسهل لك ..

ـــ يعنى مبتشوفيهاش خالص ؟

ـــ حاشوفها فين ياست أم ابراهيم .. هم بتوع الموالد دول لهم بلد .. اهه كل يوم فى حتة ..

ـــ مسكينة يا فتحية

تنهدت فتحية وراحت تدعك بقوة (ثم الغسيل) الذى أمامها ثم تابعت الحديث بشىء من التروى .

ـــ أبويا اللى كان غلطان .. حد قال له يجوز اتنين وهو شايب وعيان.. ومن ساعة ما يصحى لحد صلاة الضهر وهو يكح ويتنحنح وينزل ييجى رطل من صدره وطول النهار محيلتوش غير (كححينى يا حسنة) ويفضل يكح ساعة ، ويبص للتانية ويقول لها (قبلينى ع القبلة يا ثريا) والواحدة منهم تندب ف عينيها رصاصة ولولا القرشين اللى بياخدهم م الشيخ عبد الراضى

نظير خدمتى عنده لا كانوا (لقوالقمة ولا هدمة) .

نظرت الام إلى البنت وقالت :

— انتى مبتحبيش أمك يا فتحية ؟

— احب فيهاأيه ياست أم ابراهيم ده أنا من يوم ما وعيت ع الدنيا وانا شايفه الويل .. لا لعب لعبت زى كل البنات ولا حنية حسيت بيها وكل ما تشوفنى تفضل تشتم وتلعن لحد ما أخدنى أبويا ودانى عند الشيخ عبد الراضى اخدم عنده ومن ساعتهـا بقت تشوفنى زى الغرب ياست أم ابراهيم ..

— أما غريبة يا أولاد ..

— م غريب الا الشيطان .. الدنيا فيها كتير ياست أم ابراهيم ..

— صدقى يا بنتى .. ربنا يعوض صبرك خير .. ويسعدك ..

— كتر خيرك ياحاجة ، والنبى انتى طيبـة قوى .. متخليكى معانا يومين كمان ؟

— ازى يافتحية ده انا سايبه البيت والعيال وأبوهم .. هم ينفعوا من غيرى ..

— ربنا يخليكى ليهم ويقدرك على تربيتهم ..

هزت الأم رأسها وقالت بحنان حقيقى لفتحية :

— خدى بالك من نفسك يا فتحية

فقالت متحية بنفس التلقائية :

ــ ربنا هو الحارس ياست أم ابراهيم

وصل ابراهيم وسأل أمه ان كانت قد استعدت للسفر فقالت انها ستنشر الغسيل ، وترتدى ملابسها على الفور فأصر هو الآخر ان يشاركها فى العمل لكنها قالت له بلهجة قاطعة :

ــ ما دام انا هنا يبقى انت متمدش ايدك فى شغل البيت .

فجلس على طرف السرير يداعب أخاه الصغير ويعطيه كيسا من الحلوى ويملأ جيبه بالحمص والسمسم ليأكل طول الطريق حتى يصل الى مصر ولا ينسى أن يسلم على أخوته محمد وعبده ويقبل له رضا وأمينة وشوق وفاطمة كثيرا وراح يعصره فى صدره ويقبله لكن الصغير أشاح عنه وجهه وقال :

ــ دقنك بتخربشنى وبتاك ريحته سجاير

فراح ابراهيم فى موجة طاغية من الضحك على سذاجة أخيه وقال له :

ــ لو كان عندى وقت كنت حلقت دقنى عشان ما أخربشكش لكن خلاص يا مصطفى القطر زمانه جاى .

فقال مصطفى بعفوية :

ــ يعنى خلاص حنسافر على مصر وحنرجع للبيت تانى ؟

ـــ أيوه ياسيدى .. مبسوط ؟

ـــ قوى .. ع الأقل الواحد يرتاح من الناموس اللى هرانا عندكوا هنا ..

فضحك ابراهيم وقال :

ـــ ضايقك الناموس يا مصطفى .. أمال أنا اعمل ايه ؟

ـــ انا مالى ياعم .. انت كبير

ـــ هو الناموس ميقرصش الكبار ؟

ـــ انا عارف بقى

ـــ طيب ياعم مصطفى .. معاش .. خلينا احنا فى الناموس وروح هيص انت ف مصر ..

ضحك مصطفى ضحكة طفلية وجرى الى أمه التى كانت قد ارتدت وقال :

ـــ خلاص حنسافر يا امه

ـــ أيوه ياحبيبى .. يالا يا ابراهيم .. انا جاهزة ..

وخرج الجميع .. الام والابن الكبير والابن الصغير وفتحية التى أصرت أن تودع المسافر إلى المحطة رغم إلحاح الأم أن تبقى فى القرية ويكفى أن يكون معها ابنها ابراهيم لكن فتحية أصرت بدورها أن تذهب معها وتحملى لها اسبتتها حتى المحطة فقبلت على مضض . خرج الجميع وركبوا سيارة البريد من (لقانة) إلى دمنهور ثم جلسوا بعض الوقت يتبادلون

حديثا فيه النصيحة من الأم والوعد من الابن بأن يكون عند حسن ظنهم فيه حتى وصل القطار فصعدت الام والابن الكبير والابن الصغير واطمأن ابراهيم أن أمه قد جلست على مقعد مريح فنزل ووقف على الرصيف مع فتحية حتى تحرك القطار وغابت أمه عن ناظريه فعاد هو وفتحية مرة أخرى إلى القرية .

كانت تكسوه مسحة من الحزن جعلته يطيل من صمته فحاولت فتحية أن تخفف عنه بقولها :

ـــ زى ما ودعت تقابل يا سى ابراهيم

فهز ابراهيم راسه ولم يجب فأدركت فتحية أن هناك شيئا يحزنه فحاولت أن تجره للكلام علها تجد فيه شيئا من التسرية .

ـــ مالك ياسى ابراهيم ؟

لكن ابراهيم حاول أن يتهرب من الحديث فترة من الوقت لكنه امام الحاحها فى السؤال راح يقول بشىء من الضيق والألم .

ـــ أنا مش عارف اعمل ايه .. أبويا فاكرنى خرجت عن طوعه عشان ما بيعتش فلوس لمصر . انا مش عارف اعمل إيه .. الواحد يدوب قادر يعيش ولولا قرشين الجمعية مكنتش قدرت أحوش ولا مليم .. هو مش يهمه مستقبلى .. ح اعمل ايه بس .. ده أنا لو قعدت أدفع اتنين جنيه على طول يبقى ح أفضل شحات وهو مش حيفتنى .. ده أنا قلت كفاية انى بعدت عنه ووفرت عليه مصروفى .. هو ده مش كفاية :

ـــ لا ياسى ابراهيم .. برضه ده أبوك معيل ومحتاج المساعدة والقايل برضه ..

ـــ انتى شايفة كده يا فتحية

ـــ عشان يرضى عليك ورضا الرب من رضا الآب ياسى ابراهيم

ـــ طيب .. اللى فيه الخير يقدمه ربنا ..

وعاد إلى سيارة البريد وركباها وسارا فى الطريق المترب الذى ازداد ترابا بازدياد سرعة السيارة التى لم تعد ترى بعد أن غطاها التراب بستار كثيف .

الفصل التاسع

عادت الأم إلى بيتها وجلست جلسة طويلة مع زوجها بعد الغداء تحكى له كل ما عرفته عن ابنها وحالته وحياته ثم ختمت كلامها بأنه وعد أن يرسل كل شهر جنيهين لمساعدتنا فى مصروف البيت ، فتنهد الأب وهو يردد :

— كله على الله . . ربنا يهدى

بينما راح مصطفى يجلس بين أخوته وهم « يسألونه عن الفسحة وعن ابراهيم وما رأى في لقائه فلم يستطع الصبي إلا أن يقول » أن البلد دى مليانة ناموس . . هو أنا نمت م القرص طول الليل » وراح يهرش جسده الذى امتلأ بقعاً حمراء بأظافره فطلبت منه أخته الكبرى أن يكف عن الهرش بأظافره لأن هذا يؤذى جسمه وأحضرت له بودرة التلك وراحت ترشها فوق جسمه وتدلكها بأصابعها وكاوة يدها حتى هدأ وراح فى نوم عميق . فتركه أخوته وعادوا إلى أمهم التى راحت تعطى كلا منهم قطعة من الفطير وقطعة من الجبن الفلاحى والدجاج الذى خشيت عليه من التعفن فوضعته فى صينية على النافذة البحرية فأصبح فى طريق الأولاد كلما جاءوا أخذوا قطعة وراحوا يمصمصون ويقولون لأمهم بمزيج من الجد والعبث :

— الله . . ده لذيذ قوى . . أمتى حتسافرى تانى يا أمه ؟

فتقول الأم وهى تغالب ابتسامة تريد أن تعلو شفتيها .

— خلاص . . لا فيه سفر ولا يحزنون . .

فيقول محمد وهو يمسك دبوس الفرخة . .

— ليه بس ياماما . . ده السفر كويس . . وإزاى ابراهيم ؟

— تقول الحمد لله وربنا يهدى يا محمد

فرد الإبن قائلا : (آمين)

ثم دق الباب فراحت الإبنة تفتح . كانت الست أم زينب ومعها ابنتها زينب قادمتان للسلام على العائدة من السفر فتبادلت المرأتان العناق والقبلات بينما دخلت زينب مع البنات غرفتهن وجلسن يلعبن بالكرة الصغيرة مجموعة من الألعاب المدرسية البهلوانية حتى نادت الأم على (عديلة) وطلبت منها أن تعمل كنكة قهوة مضبوطة على مزاج الست أم زينب . ودار حديث طويل عن الحياة فى الريف وانشغال الأم على ابنها الذى يوشك أن يضيع فى الغربة فطمأنتها الست أم زينب بأن الريف حلو ورخيص وأهله ناس طيبين « واللى عاوز يبنى نفسه بصحيح يقعد له قد سنة والاتنين هناك ويرجع بقرشين ينفعوه » ، لكن الأم قصت لجارتها حقيقة ما رأت وما فعله أبنها منذ سفره واشتغاله وأنه لا أستطاع أن يدخر قرشاً ولا قرشين بل أن سبب زيارتها له هو النقود التى طلبها من أبيه ، فاندهشت الست أم زينب وقالت أن هذا شىء عجيب لأن الريف فى قريتها كله خير وبركة ومش معقول البلاد التانية مفيهاش خير . .

ولكن المرأة عادت تؤكد لجارتها أن ابراهيم سيبنى نفسه وسيكون رجلا كاملا فهو عاقل ومجد وقد تكون الظروف التى مرت به هى متاعب البداية ولكنه بلا شك سيتمكن من المحافظة على نفسه فهو ابن حلال ومن أسرة صالحة فمن يخرج إن لم يخرج لأبيه وأمه ؟ .

وهكذا بدأ شيء من الطمأنينة تغمر قلب الأم بعد فترة من القلق والشك حول مصير ابنها ولم تنسى الزائرة وهى تعانق جارتها إيذاناً بالرحيل أن تتطوع بإخبارها أنها ستطلب من زوجها الشيخ السويفى أن يعمل لإبراهيم حجاباً آخر يحفظه من كل شر ولو كان هذا الشر كامنا فى نفسه . فشكرتها الأم ولم تنسى أن تضع فى يد زينب طبقاً به فطيرة من المشلتت وقطعة من الدجاج من ريحة الريف قبلتها الجارة شاكرة ممتنة .

وبعد قليل كان الطرق يعود من جديد إلى الباب وكان هذه المرة من خادمة الست أم عبده تسأل إذا كانت الست أم محمد موجودة لتقوم سيدتها بواجب الزيارة ، فقالت الابنة أن أمها موجودة وأهلا وسهلا بالجارة العزيزة . وبعد لحظات كانت الست أم عبده تأخذ جارتها هى الأخرى بالأحضان والقبلات والحمد لله ع السلامة ثم جلست وبجوارها ابنتها سميحة التى تتفرق على كل بنات الحارة بجمالها الأرستقراطى الذى يزيده بهاء بشرتها البيضاء المائلة إلى الحمرة وتقاطيعها الدقيقة وحلاوة صوتها ورقة كلماتها وهى تتقبل قطعة من الحلوى بكلمة :

-- متشكرة يا طانط

لم تكن سميحة من بنات الحارة بالمعنى الدقيق للكلمة فهى لا تندمج في اللعب مع أى بنت فى الحارة ولا ترى الشارع إلا عند خروجها من بيتها إلى المدرسة وعند عودتها فى الظهر إلى بيتها وكانت تحب أن تجلس على كرسى فى السطح مع الخادمة وتضع على رأسها جريدة قديمة من جرائد والدها وتأخذ حمام شمس ثم تنزل إلى غرفتها بعد أن يكون جلدها قد زاد حمرة وجمالا ، والغريب أن بنات الحارة كن يتندرن عليها لهذا السبب ويقلن انها مهما فعلت فلن تتحول إلى سمراء مثلنا فالتركى يعيش طول عمره تركى بل انهن كن يخفن من الشمس لأنها — على حد قولهن — تجعلهن سوداً كالعبيد .

جلست سميحة بجانب أمها ولم تخرج مع البنات للعب كما فعلت زينب ولذلك بقيت وحيدة طوال الجلسة التى امتدت وقتاً طويلا راحت فيه أم عبده تستطلع أحوال سى ابراهيم أفندى وهل هو على ما يرام ، ولم تحاول الأم أن تنسى نفسها وتفضفض عما فى قلبها كما فعلت مع جارتها الست أم زينب وإنما أمسكت لسانها عما يسىء إلى ابنها أو يشمت فيها الجارة الطامعة فقالت أنه بخير وسعيد فى عمله وأن أهل القرية جميعاً يحبونه ابتداء من مدير المكتب ووكيل المكتب والعمدة وكل أهل (القانه) وأنها تتمنى أن ينقل عما قريب إلى مصر لكى يكون فى وسطنا فغربته جعلت له وحشة كبيرة . .

وانشرح قلب الست أم عبده لكلام جارتها وختمت على قولها

بالأمنيات الطيبة والتوفيق واستعداد زوجها لمساعدته فى أى أمر يريده فالناس لبعضها ، وشكرتها الأم على حسن قولها وتطوعها لمساعدة أبنها ثم نهضت لتقدم لهـا القهوة ولابنتها قطعة من المشلتت .. لكن الابنة رفضت شاكرة وقالت أنها لا تأكل شيئاً بين الوجبات لأن هذا يضر بالصحة فهكذا علموها فى الدرسة ، فقالت الأم :

— يبقى تاخدى نصيبك معاكى يا سميحة وتاكليه فى معاد الأكل

فعادت الابنة تحاول الاعتذار بنفس الرقة ، ولكن الأم قالت بشىء من الفخر :

— يعنى بترفضى حاجة جاية من عند ابراهيم

فقالت أمها على الفور :

— لا أزاى .. دى سميحة تاخدها قوى

فسكتت البنت بينما راحت الأم تضع قطعة من الفطير فى طبق صينى وتلفه بورقة ثم تعطيها لسميحة وهى تهم بالانصراف مع أمها التى قالت وهى تهبط درجات السلم .

— أبقى خلينا نشوفك يا أختى

— إنشاء الله .. هو احنا نستغنى ؟

وبعد أن انتهت الزيارة جلست عديلة بجوار أمها قائلة :

— سميحة دى دمها تقيل قوى ياأمه

— ليه ؟

— قليطة كده وفاكرة نفسها بنت باشا

— ياللا شدى حيلك وانجحى واتى تبقى أحسن منها

ولـكن محمد تدخل فى الحديث وقال :

— هى قليطة شوية يا أمه . . لـكن حلوة قوى . .

فقالت أمه وهى تغالب سعادتها . . وتنظر إلى ابنها الذى بدأت ملامح الرجولة تظهر على وجهه :

— والله عال يا سى محمد . . أنت بتبص لبنات الجيران ؟

فقال الابن بشىء من الارتباك :

— لا يا أمه . . ده أنا شفتها كده صدفة وهى داخلة

فتنهدت الأم وراحت تنظر إلى أولادها الذين يحيطون بها وقد أدركت أنهم كبروا عن ذى قبل وكما فوجئت بالتحول الذى طرأ على ابنها ابراهيم عندما سافرت إليه ، بدأت تفاجأ بالتحول الذى لم تـكن تشعر به قبل سفرها إلى لقانة . إنها لم تغب كثيراً ولـكن بعدها عن أولادها جعل نظرتها لم تتغير . محمد بدأ يدخل رحلة الشباب وعديلة بدأ جسمها يستدير كما أن الرضيع قد فطم وبدأ يحبى على الأرض .

دارت الأم بعينها حول أولادها وهى تتساءل :

— يا ترى حيقدرنا ربنا على تربيتهم ؟

وقف حسن فى حوش البيت وراح ينادى صديقه محمد الذى أطل من النافذة وطلب منه الصعود قليلا ، فلما قال حسن انهما قد تأخرا على المدرسة غمز له محمد قائلا له :

— أطلع بس شوية خد نصيبك

وعلى الفور صعد حسن ودخل إلى غرفة القعاد التى تستخدم كغرفة للمذاكرة وتتحول دائماً إلى غرفة للضيوف عند الضرورة وقال له أن أمه قد حضرت ومعها فطير مشلتت وفراخ مشوية فقال له حسن :

— أهلا وسهلا وحمد ع الله السلامة . .

فقالت الأم التى كانت تقف عند الباب لتسلم عليه :

— أهلا بيك يا أبنى أتفضل . .

جلس الصديق وراح يســـأل عن ابراهيم واحواله فقالت انه بخير وراحت الأم تسأل بدءورها عن المدرسة وأحوالها فقال حسن أنهم يؤدون واجبهم على أقصى جهد والباقى على الله .

فتمنت لهما الام مستقبلا زاهراً مرموقاً وخرجت لتعد لهما الشاى وشىء مما احضرته معها من (القانة)

وبعد أن أنتهيا من طعامهما وشرابهما خرجا كل على دراجته إلى المدرسة وفى الطريق أسر حسن إلى صديقه بسر سمعه من أحد الزملاء

الذين يشتغلون عند « الجيش الإنجليز) وكان سراً مبهماً ولا معنى له .

— بيقولوا البلد فيها كوليرا

— كوليرا ؟

— أيوه . . وكل اللى بيشتغلوا عند الإنجليز خدوا تطعيم

— ياه . . وده مرض خطير ؟

— بيقولوا انه مرض قاتل والنجاة منه شبه معدومة . .

— يا ساتر . . طب والعمل :

— بيقولوا الحذر مطلوب وخصوصا فى الأكل .. لازم تغلى كل حاجة وبلاش حلويات الشارع دلوقتى وكمان بلاش الحمص والسودانى وحلوى الأطفال .. والمياه أعصر عليها ليمون لحد ما نشوف طريقة ونتطعم ..

— ده خبر أكيد ؟

— طبعا

— وليه وزارة الصحة مقامتش بحملة تطعيم ؟

— دى مسائل مش سهلة .. لما يجيبوا المصل من الخارج أولا . . يفكروا فى التطعيم .. دول الى الان مش عاوزين يعلنوا ظهور الوباء ..

لكن الخبر انتشر بين الناس بسرعة الاشاعة وأصبح الحديث الأول والأخير فاضطرت الحكومة إلى اعلان وجود الوباء وضرورة التحصين

منه بالتطعيم .. وبسرعة أكثر بدأت الحالات تسقط بالجملة ، فأغلقت المدارس وتحولت إلى مراكز للتطعيم وسرت فى الحارة موجة من الرعب اسمها الكوليرا وخاصة بعد أن انتشرت حالات الاصابة لدرجة أن الاسعاف لم تعد قادرة على نقل المصابين فتطوع عم حسن العربجى بنقل كل الحالات على عربته الى المستشفيات ، لكنه كان ينقل حالات أكثر إلى القابر ورغم أن زوجته وابنته كانتا تمنعانه من هذا العمل خوفا عليه من العدوى فانه أصر على الاستمرار ونهرهم قائلا انه أخذ التطعيم ضد الكوليرا وان الله هو الحارس والواجب واجب ولو استشهد فى سبيله . فى نفس الوقت كانت الام التى اشتد قلقها على أولادها تصر على « كنهم » فى حضنها وعدم خروجهم لاى سبب حتى تزول الغمة ، وتضع لهم الليمون المصور فى كل شىء حتى فى ماء الشرب مما ضايق الصغار لأن الماء أصبح بلا طعم بسبب وجود عصير الليمون فيه لكن الأم كانت حازمه فى الأمر لأنها لا تريد أن تخسر أولادها كما خسر الكثير من الناس أولادهم وآباءهم فى هذه الكارثة المفاجئة .. ومع ذلك فقد حدث ما كانت تخشاه وتعمل له ألف حساب فقد بدأت ابنتها أمينة تعانى من نفس الأعراض التى يحذرون الناس منها وأصبحت تنحدر بسرعة غريبة من سىء إلى أسوأ ثم نقلت الصغيرة إلى المستشفى ولم تعد مرة ثانية ، وكانت صدمة الأم فيها عنيفة فهى لم تجرب الشكل من قبل كما أنها ضناها والضنى غالى مهما كان له من أخوة وأخوات .. فكل له مكان ولا شك .. ولكن تلاحق الأحداث وسرعتها لم تمكنا الأم من الخلو إلى نفسها والحزن على ابنتها فقد وجدت

نفسها فى حالة دفاع دائمة عن أولادها وبناتها فهذا الوباء اللعين الذى نجح فى مهاجمتهم فى عقود دارهم رغم كل التحصينات التى أقاموها جميعاً يمكن أن يعاود الكرة مرة ومرة ومرة وإذا كان قد أصاب أمينة فى المرة الأولى فما الذى يمنعه أن يصيب صيداً أعظم فى المرات التالية ؟

هكذا وجدت الام نفسها فى دوامة مفاجئة لم تكن تعرف كيف ولا متى تخرج منها فلم تجد أمامها الا الاستعانة بكل ما يستعين به المؤمن من أدعية وآيات وتعاويذ ، وكل ما يقدمه الطب من إرشادات للوقاية حولت الناس جميعاً فجأة إلى آذان صاغية لكل كلمة تكتب فى الجريدة أو تسمع فى الاذاعة ، وكل ما تنبئها به فطرتها من توجيه فوجدت نفسها تقول لا دائماً وكثيرا . لا تلعب . لا تنزل إلى الحارة . لا تأكل أى طعام غير ساخن لا تضع يدك فى فمك .. دائماً لا .. ولا هى النجاة من كل المصائب .. هكذا قدرت .. وفعلت ...

وبعد فترة غير قصيرة بدأت الحالة تهدأ وبدأت الأخبار المشجعة تنتشر بين الناس بنفس السرعة التى انتشرت بها أخبار المرض وأيا كانت التعليمات ما زالت تدعو الناس إلى الحذر . وعاد الناس إلى حياتهم الطبيعية بدأت الام تستطلع الأخبار من النافذة وتتلقى التعازى من جاراتها وخرجت الحارة من المحنة سالمة فيما عدا أمينة .. الصغيرة ... وبدأت الام تخفف من قيودها على أولادها خصوصا بعد أن فتحت المدارس أبوابها مرة أخرى للتلاميذ إيذانا بانتهاء حالة الطوارىء العارضة . لكن الأب الذى كان متأثرا من صدمته فى ابنته أمينة لم يسمح لبنتيه عديلة وعائشة

بالعودة إلى المدرسة مرة أخرى وقال أن ابنتيه قد كبرتاوعليهما أن تجلسا في البيت وتتمرسا بأصول الحياة المنزلية وقد ضايق هذا القرار البنتين لأنهما كانتا تجدان فى المدرسة شيئاً من التغيير كما انهما كانتا تحلمان بالشهادة التى ستأخذها سميحة فى السنة القادمة وهما لا تريدان أن يكونا أقل منها. لكن قرار الأب كان قاطعا ونجيبا لا ما لهما ولكنهما ألم تتجرأ على مناقشته خصوصا أنه أصبح عصبيا فى كل تصرفاته سواء على أولاده أو على ابنه البعيد ، ابراهيم ومما ساعدهما على إبتلاع هذا القرار ان الشيخ السويفى قد أجلس إبنته زينب كذلك فى البيت لأنها كبرت وأصبحت على وش جواز والبنات للبيوت أولا وأخيرا .. وهكذا أصبح للبنتين زميلة ثالثة بل أصبحن أربع بنات يجلسن فىالبيوت إذا وضعوا فى الحساب البنت باتعة وكل ما بينهما وبينهـــا من فرق هو أنهم يعرفون القراءة والكتابة اما باتعة فقد أخذتها من قصيرها ولم تتعب نفسها لا بمدرسة ولا بتعليم مادام المصير فى النهاية هو منزل الزوجية .

وهكذا أصبحت سميحة وحدها هى البنت التى تدخل المدرسة وتستعد للحصول على الشهادة الإبتدائية ، ولا شك أن هذا سيوسع المسافة القائمة بالفعل بينها وبين غيرها من بنات الحارة وسيشعرها بالتفوق والمزيد من التعالى عليهن ..

لم يطمئن الأب على ابنه البعيد الا بعد أن وصلته رسالة منه تطمئنه على حاله وأنه قد نجا من الكوليرا رغم إصابة كثير من أهل القرية بها .

اطمأن الأب إلى الرسالة رغم أنها كانت رسالة (صامتة) لم ينفذ فيها الابن الوعد الذى قطعه على نفسه لأمه بأن يرسل للبيت المبلغ الذى يساهم به فى سد نفقاته ، ولكن الأب لم يغضب فقد قدر ظروف ابنه هذه المدة التى ربما اضطرته إلى عدم تنفيذ وعده .

وحينما حاولت الأم أن تجلس مع زوجها وتناقشه بهدوء فى أمر إعادة بنتيها إلى المدرسة قال لها أنه لا يكره العلم ولا التعليم ، ولكن من أين له بالصرف عليهما وحالته كما ترى والابن الذى كان يعتمد على مدده لم يستطع أن يقف على رجليه حتى الآن رغم مرور وقت غير قصير على توظفه فى الحكومة ، ثم ان ابنه الصغير أصبح على وشك الالتحاق بالمدرسة وسيكون هذا فى أول السنة فكيف ومن أين ينفق على كل هؤلاء وهو على ما هو عليه من عوز وضيق ؟ ثم ان البنات مهما تعلمت سيكون مصيرها الزواج أم هل تتصورين أن ابنتيك ستكونان من موظفات الحكومة ؟

سكتت الأم ولم تعرف ماذا تقول لزوجها فهى تقدر موقفه وظروفه ، ولا تعرف ماذا تقول لبنتيها وهن نجيبات ومتعلقات بالتعليم إلى حد كبير فسلمت أمرها وأمر بناتها لله وتركت للزمن مداواة جرحيهما .

الفصل العاشر

كان محمد قابعا تحت المنجلة .. المكان الذى إعتاد أن يلجأ إليه كلما أراد أن يراجع دروسه فى فترة العمل الرسمية بعيدا عن أعين الرقباء من صغار العمال أمثاله أو كبارهم كالأسطوات والملاحظين الذين يملأون الورشة ويضيعون معظم يومهم بلا عمل ومع ذلك يسببون الأذى لكل من يحاول أن يستخدم الوقت إستخداما أفضل من الجلوس أمام الآلات وشرب الشاى .

كان محمد قابعا وفى جيب العفريتة الكبير كتاب من كتبه المدرسية يفتحه بحذر ويراجع دروسه فى صمت حتى يلحقه صديقه حسنى ويذاكران معا بصوت هامس كل دروس اليوم السابق ، وقد اكتشف الصديقان ان المذاكرة تحت هذا الضغط تولد نتائج أفضل بكثير من مذاكرتهما فى المنزل وربما أن السبب يرجع إلى إحساسهما بالخوف أو إحساسهما بأنهما يفعلان فعلا ممنوعا قانونا والممنوع كما يقال دائما مرغوب وقد ارتفعت درجة حرارة المذاكرة والاستيعاب نظرا لقرب موعد الإمتحان . ومع أن الجو أصبح شديد الحرارة وخصوصا فى الورشة التى تضرب الشمس فى سقفها الحديدى فتحيله إلى كتلة ملتهبة تزيد من حدة الحرارة إلا أن المذاكرة كانت لذيذة فقبع فى مكمنه وفتح أزرار « العفريتة

الزرقاء » واندمج فى مذاكرته حتى نسى صديقه حسنى الذى تأخر عن الحضور ولم ينتبه إلى الوقت إلا بعد أن فاجأه الأسطى « إمام » فى مكنه ولما ظهرت على محمد علامات الكسوف والخوف ربت عليه الاسطى وقال له :

— متخافش يا محمد يا ابنى .. أنا عارف إنك بتذاكر وبتقعد هنا من زمان .. متخافش أنا مش جاى أأذيك .. أنا عاوز أدردش معاك ف كلمتين ..

بدأ محمد يبلع ريقه الذى جف لحظة وقال للاسطى :

— خير يا اسطى إمام

— أنا جاى اكلمك فى مشروع كده نويت أعمله وعاوزك تكون معايا فيه .. انت خسارة يا محمد فى شغل الحكومه .. انت قلبك صافى ومجتهد وأنا باحب الناس الشغيلة مش التنابلة .. عشان كده جاى اكلمك يا محمد

مش فاهم يا اسطى ..

— أفهمك يا سيدى .. بقى انا خلاص نويت أسيب الحكومة .. الشغلة مفيش منها فايدة وإدينا زى ما انت شايف قاعدين طول النهار لا شغلة ولا مشغلة .. الواحد حيجى له المرض من قلة الشغل ..

— برضه مش فاهم يا أسطى ..

— أصبر يا محمد على .. أنا جاى لك فى الكلام

ـــ قول يا اسطى

ــ بقى مش حرام مكن زى ده يقعد كده من غير لا شغـــلة ولا مشغلة .. والله حرام ..

ــ قصدك ايه يا اسطى ؟

متخافش يا محمد .. أنا قصدى خير . بقى ياسيدى انا فكرت ولقيت انى لو قعدت هنا لحد م اطلع على المعاش مش ح أزيد عن كده .. اسطى بيومى تعبانه .. إتفقت مع كام أخ محترم زى الاسطى حسنين واشترينا حتة مكنة خردة من وكالة البلح وركبناها فى (الدراسه) ونوينا باذن الله نعملها ورشة صغيرة كده واهه ايد على ايد تساعدوا كل العيش يحب الخفية ، وعشان كده ح أسيب شغل الميرى التعبان ده .

ــ ربنا يوفقك يا اسطى

ــ آمين .. بس انا مستخسرك هنا يمحمد .. انت وادشاطر ونبيه واللى زيك مش بتاع حكومة .. العمل الحر هو مستقبلك يا محمد .. قلت ايه :

ــ فى ايه ؟

ــ الله انت مش معايا والا إيه ؟

ــ انا معاك يا اسطى .. بس أصل انا سبت شغل الصانع عشان آجى ف حته هادية .. أصلى باذاكر وناوى اكمل تعليمى ..

ــ تكمل ايه يا محمد .. الصنايعى يا ابنى ماوش الا دراعه ..والا نفسك

تقعد على مكتب زى الافندية بتوع عشرة بقرش يا بلح ..

ـــ لا يا اسطى .. انا مش عاوز أقعد على مكتب .. انا عاوز اتعلم عشان الشغل يبقى على أصوله .

ـــ انت حر .. بس انا حبيت أنورك قبل ما أمشى عشان واحد زيك خسارة يضيع فى الحكومة ولما تحب تيجى عندنا فى أى وقت برضه تعال انا والاسطى حسنين حنكون موجودين على طول والمصنع حيشتغل وانشاء الله ربنا حيسهلها وتبقى عال ..

ـــ ربنا يوفقك يا اسطى والله أنا فرحان لك من قلبى .. انت تستاهل كل خير ..

ـــ وانت كمان يا محمد .. سلام عليكم

خرج الاسطى إمام فتطلع إليه محمد حتى غاب عن ناظريه فوضع كتابه فى صدره وأغلق المفرية وخرج . كان موعد الانصراف فذهب إلى دراجته وركبها وعاد إلى منزلة . لا شك أن حسن لم يأت اليوم فأى طارىء منعه من الحضور ؟ والاسطى إمام مشروعه الكبير ؟ أفى الحياة رجال بهذه القوة ؟ الا يخشى الفشل ؟ ولكن هل كان يفعل هذا من يخشى الفشل ؟ ترى ما الفرق بين الاسطى إمام أو الاسطى حسنين وبين غيرهما من الاسطوات ؟

« الواحد حيجى له المرض من قلة الشغل » من أى معدن صنع هذا الرجل ومن أى معدن خلق غيره .. أليس الجميع اسطوات .. ولكن ما

الفرق بين اسـطى واسطى ؟ لاشك ان الناس لا تتساوى ابدا .. وإذا كنا جميعاً متساوين فى الخلق .. فاننا غير متساوين فى القدرات .. منامن عنده عزيمة ومنا من لا روح فيه ..

كان أول ما فعله فى المساء عندما ذهب إلى المدرسة هو أن يقابل « حسنى » بأى طريقة ليعرف سبب غيابه اليوم ويخبره بما حدث بينه وبين الاسطى إمام . فقال له حسنى إنه لم يأت اليوم لأنه أخذ أجازة عارضة وأفهمه أن كل موظف فى الحكومة له سبعة أيام كل سنة عارضة يغيبها بدون عذر وهو لم يغب يوما واحداً والسنة حتنتهى بعد أيام فلية منستفدش بالأجازة .

تطلع إليه محمد باعجاب وقال :

ـــ انت أحسن موظف ميرى .. اهه كده تاخد حقك بالمليم ..

ـــ امال ايه .. هو انا أغنى م الحكومة

ـــ لكن بسرعة كده بقى لنا سنة فى الشغل

ـــ دنيا يا محمد ـــ أمال إيه

ـــ على رأيك .. وايه رأيك فى مشروع الاسطى إمام

ـــ مشروع عظيم .. الناس دول حينجحوا ف حياتهم . . يعنى عبوه باشا كان حلته إيه ؟

ـــ كان عنده عله ؟ هو مش مهندس ؟

ـــ البلد مليانة مهندسين يا ابنى لـكن مفيهاش غير عبود واحد بس

ـــ قصدك إيه ؟

ـــ قصدى ان الحـكاية مش علم وبس . . ده شغل . . عزيمة يا محمد . . اللى عنده عزيمة ضرورى حيوصل

ـــ فعلا . . ياللا بينا احنا كان ع الفصل . .

دخل الصديقان إلى الفصل وفى قلب كل منهما حلم كبير . . لابد من الهندسة مهما كان الثمن وإذا كان فى الحياة أمثلة كثيرة للـكفاح والعرق فليـكن مثال الإسطى امام هو أحدثها ومثالك أنت هو أروعها على الإطلاق . .

عاد محمد إلى منزله وجلس فى غرفة المذاكرة بجوار أخيه الصغير مصطفى وأخيه الأصغر الذى كان يحوم حولهما كطيف . . كان الجو شديد الحرارة ففتح النافذة البحرية وجلس على طرفها يستمتع بنسمات ليلية باردة لـكنه اكتشف شيئاً جديداً لم يكن يخطر على باله فى هذه الحارة النائمة المظلمة ذات النوافذ المغلقة . . اكتشف أن سميحة طالبة الشهادة الإبتدائية تجلس هى الأخرى فى غرفتها الضيقة ذات النافذة المفتوحة وفى يدها الـكتاب وتتمشى فى الغرفة كأى ولد مجد . . وابتسم فى نفسه . . إذن هى تذاكر مثلنا . . وأى غرابة فى هذا . . أم ترى كنت تظن أن النجاح يأتيها فى الأحلام . ولـكن الأغرب من هذا أن البنت التى اقتربت من نافذتها لتشرب من (القلة) الموضوعة فوقها نظرت إليه وحيته

بابتسامة واضحة لا شك فيها ، بل إنها تجرأت عليه وقالت له

— شد حيلك يا محمد

نعم هكذا قالت ووصل صوتها عبر هدوء الحارة الليلي كأغنية جميلة فقال لها :

— الشدة بالله

وعادت تحييه بابتسامة أخرى واضحة ودخلت غرفتها وعادت إلى كتابها .

هذه سميحة أجمل بنت فى الحارة التى تقول عنها أخته إنها قليطة وتصفها باتعة دائماً بأنها تركية قليطة لا تكلم أحداً ولا تختلط مع أحد .

هذه سميحة التى لم تكن تتخيل أن تقع عينيك عليها أبداً تقف أمامك وتخاطبك كأنها تخاطب أختك أو أمك ثم تعود إلى مذاكرتها كأنها لم تقل شيئاً وأنها لا تراك ولم تحدثك منذ قليل . فما معنى هذا اهو الأدب أو قلة الأدب ؟

ولكنه أخذ بجديتها فأمسك بدوره كتابه ونزل من مكانه على النافذة وراح يتجول فى الغرفة ويحاول أن يكتسب هو الآخر نفس المظهر الذى يراه على الفتاة من جدية ورزانة لكنه عندما قابل صديقه حسنى فى اليوم التالى راح يقص عليه ما حدث ويطيل ويعمق فى وصف اللحظة التى تبادلا فيها هاتين الكلمتين الساحرتين « شد حيلك » و « الشدة بالله » .

ولكن حسني الذي كانت تغلب عليه الجدية حاول أن يبسط له المسألة التي لا تتعدى تحية عابرة من جار إلى جار ولكنك فيما يبدو تحب الأحلام وناوي تضيع سنتك عشان كلمة وأنا باحذرك من عواقب الإستسلام للحاجات دي .. لازم تنجح يا محمد .. لازم تنجح عشان متبقاش (عيل) قدام بنت زي دي مسقطتش ولا سنة .. وكمان عشان والدتك منتظرة النتيجة بفروغ صبر لأنها حاسة باللي ف قلبك واللي نفسك تحققه .. أنت حاطط قدامك هدف .. مش لازم تضيعه .. الهندسه طريقها صعب يا محمد واحنا ناويين نقطعه . .

نظر محمد إلى صديقه الذي كان يتحدث بإصرار غريب وقال له مؤكداً :

— طبعاً يا حسني .. أنا ما كانش قصدي من كلامي اني ناوي ألعب .. ده كان مجرد كلمة عابرة ..

— إزاي ؟

— لما تسيب مذاكرة بيتكوا بتاعة الشبابيك وشد حيلك والشدة بالله ، وتيجي تذاكر معايا ع اللمبة نمرة خمسة تبقى كلمة عابرة ، ولو قعدت ف بيتكوا مش حتكون كلمة عابرة .

— أنت شايف كده ؟

— أيوه

— أنا معنديش مانع

— يبقى نبدأ من دلوقتي

هكذا أستطاع حسنى أن ينتزع محمد من أول مطب كاد أن يسقط فيه ولا ذنب له إلا حبه الطاغى للجمال ولا ذنب للفتاة إلا أنها أجمل فتاة فى الحارة وارفع بناتها شأناً .

ومع ذلك فكثيراً ما كانت تعاوده صورة (سميحة) وبالذات تلك الصورة التى حفرها فى مخيلته حوار الليلة الحارة القمير حينما كانت الفتاة تشرب الماء من القله وتقول له شدحيلك وتبتسم له وتعود إلى مذاكرتها ويبتسم لها ويقول « الشدة بالله » لكنه لا يعود إلى مذاكرته بنفس السهولة ، ولولا ضغط الصديق عليه وقسوته الشبيهة بقسوة أبيه مااستطاع أن ينزع الفتاة من رأسه ، ولكان محمد ضيع السنة على نفسه ونجحت البنت ورسب الولد ..

عبقرى هذا الصديق حسنى فهو يتفنن فى طرد صورتها من رأسه .. حيناً بالمناقشة وحيناً يطلب منه أن يراجع كل منهما ما اختزن زميله من معلومات .. وحينا يدردشة عابرة عن حال الاسطى أمام والاسطى حسنين .. وضغطه على كلمة (عزيمة) كلما وردت قصتهما .

عبقرى هذا الصديق فقد استطاع أن ينتزع لنفسه ولصديقه الشهادة الابتدائية من فم الأسد ومن طيف (سميحة) التى نجحت هى الأخرى

وإن كانت قد نالت مجموعاً أعلى من محمد . المهم إنك نجحت يا محمد والحمد لله والشكر للصديق . .

وهكذا احتفلت الحارة بنجاحين . . ودارت أكواب الشربات حلاوة نجاح محمد وأكياس الملبس حلاوة سميحة وارتفع محمد إلى نفس الدرجة من الأهمية التى ارتفع إليها أخوه ابراهيم من قبل بل أن الذى ازداد ارتفاعاً فى أعين الناس هو الأب الذى يرعى أولاده ويصر على أن يحصل كل منهم على نصيبه من العلم .

وقف محمد أمام أبيه الذى راح يسأله عما ينوى أن يفعل بنفسه بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية فأجابه على الفور : .

— ع الثانوى طبعاً

— ربنا معاك يا أبنى ويحقق لك اللى بتتمناه ، لكن حتفضل فى وظيفتك دى يا أبنى

— طبعاً لا . . دلوقتى أقدر أقدم الشهادة بتاعتى فى (المصلحة) وهم ينقلونى على عمل جديد يناسب المؤهل . . دى مسألة روتينية . .

— ربنا يوفقك يا أبنى . . يعنى ده مش عاوز واسطه ولا حاجة ؟

— مش عارف لكن افتكر النقل أسهل من التعيين الجديد

— ربنا يصلح لك أيامك يا أبنى ويحقق لك احلامك . .

وفى الليل لم ينم .. بدأ يحسب السنوات الباقية على دخول الهندسة .. خمس سنين كاملة يقف بعدها تحت ساعة الجامعة ويدخل الكلية التى تؤهله ليكون كالمهندس « زين » الذى كان يثير الرعب فى أوساط الأسطى حسنين والريس فتوح ولا يستطيع أحد أن يقول له (لا) .. خمس سنين وتصبح فى الورشة التى يخرج منها أعظم رجال فى الدولة ويكون الطريق مفتوحاً والضوء دائم . الخضرة أمامك لتتقدم وتثبت وجودك وتؤكد أن العزيمة الصادقة لا يقف فى وجهها كبير ..

خمس سنين وتقول (لسميحة) بل للقمر نفسه لغزل ينزل !!.

ولم ينم .. ولا يمكن لإنسان فى مثل حالته أن ينام .. بل أنه فى الحقيقة ليس محتاجاً للنوم .. إنه محتاج إلى المزيد من اليقظة .

وفى الصباح ذهب إلى عمله كالمعتاد وفى الظهر عاد من عمله وهمس بكلمة فى إذن أمه فابتسمت ودعت له أن يحفظه الله لها ويبارك فيه ويزيده حناناً على أخوته . وبعد الغداء طلب إلى أختيه عديلة وعائشة أن تخرجا معه لتختار كل منهما فستانا هدية منه بمناسبة نجاحه فلم تتمالك الفتاتان نفسيهما من السعادة فقد فعل الأخ ما يزيد عن طاقته وهو فى مقتبل العمر ومحدود الدخل ولكنه راض سعيد بما يفعل .

وخرج محمد مع أختيه ومعهم أخوه الصغير ، وفى المســاء عادوا ومعهما حملا من المشتراوات والهدايا لأمه وأبيه وكل أخ من أخوته ..

وبينما هم مندمجين فى العرض والمشاهدة وصلت برقية باسم محمد فتسلمها وفضها وقرأها بسرعة (نهنئكم بالنجاح وإلى الامام) أخوكم ابراهيم . وأعاد قراءة البرقية بصوت عال وقد غمرته موجة حقيقية من السعادة كما غمرت الجميع موجة أخرى من الضحك فقد أصبحت رسائل ابراهيم تثير الغضب ولم لا وهى تحمل أجمل الكلمات وارق المشاعر والوعود الدائمة بأن يكون الإبن باراً بأهله .

ألا يكفى هذا لإثارة الضحك . .

ولكن الأم علقت على الرسالة بقولها : .

— كتر خيره . . ربنا يهدى . .

بينما حاول الأب أن يكظم غيظه لئلا يفسد بهجة الفرحة بنجاح ابنه وان كان فى قرارة نفسه يريد أن يقول شيئاً .

الفصل الحادي عشر

قد تكون الطريقة التى يظهر بها (على أفندى) بين أهل الحارة هى السبب الرئيسى فى حظوته بمكانة رفيعة فوق مستوى السكان جميعاً رغم أنه من الناحية العمليه لا يزيد على أى موظف قديم بالإبتدائيه ، ولعل هذا هو أوضح مثال لمستوى الناس العقلى والثقافى وضآلة تطلعاتهم فى تلك الفترة . لكن الرجل كان يتمتع بعدة مزايا تجعله متفوقا على كل السكان من الناحية الإجتماعية فهو يسكن فى بيت ملك ورثه عن أبيه عن جده إلى أصل الشجرة التى إنحدر منها أول جد له قدم من الأناضول أيام مجد الدولة العثمانية واستقر فى مصر . والبيت يتكون من دور علوى لا يعرف عنه أحد شيئاً وسلاملك لكل إستقبالات على أفندى لا تتم إلا فى المندرة الواقعة بالسلاملك والتى ترتفع عن الحوش بثلاث عقبات فقط وتحتوى على كنبتين بلدى وبساط قديم وعدة صور لوجوه مترفعة شرسة تزين الجدران . وكل إستقبالات زوجته تتم فى غرفة مماثلة للمندرة تماما فى الدور العلوى ولها باب منفصل عن بقية الشقة . ولكن الذى أعطى للبيت والرجل مسحة من التعملق على الناس هو تفرده بساعة حائط كبيرة تدق كل ساعة ويعرف منها سكان الحارة جميعاً الوقت .

ولم يكن على أفندى فى الحقيقة متكبرا ولكن مظهره كان يوحى

بالـكبرياء ويثير الرهبة فى نفوس الناس لدرجة أن اى شخص يمر عليه الرجل ويقرئه السلام لم يكن يكتفى بالرد على تحيته بل كان مع الرد يقف ويرد باللسان وبابتسامة وامتنان عريضة على الوجه ولا يجلس إلا بعد مروره من أمامه..

لم يكن على أفندى متكبرا فكثيرا ما كان يقضى الوقت من العصر إلى الأصيل فى الأيام الصيفية جالساً على باب بيته بجلبابه الأبيض الفضفاض وصينية الشاى والطقطوقة التى تحملها الخادمة مرتين الأولى قبل جلوسه والثانية بعد نهوضه إلى الداخل . وكثيرا ماكان الرجل يتبسط فى الحديث مع أهل الحارة بل أنه كان يداعب الصغار الذين كانون يلعبوا (الاسفتماية) ويختفون احياناً بجواره دون أن يدرى فاذا إنتبه الرجل وداعبة بكلمة (اناح أقول للواد على مكانك) أو (أمشى لاجيب لك أبو رجل مسلوخة) كان الولد يحكى القصة لأمه فى المساء على أنها حادث هام مر به ويستحق أن يحكى .. فالرجل لم يسب ولم يشتم الأطفال كغيره من سكان الحارة طلبا للهدوء بل كان يداعب الصغار كأنهم أطفاله ويضحك معهم ..

لم يكن على أفندى متكبرا ومع ذلك فقامته الطويلة وامتلاء جسمه وحيرة وجهه والصرامة الطبيعية فى ملامحه والمنشة ذات اليد العاج التى لا تفارقه والبـــدلة الغامقة فى العمـل والجلبـاب الأبيض الشاهق البياض فى العصر وعربة الرمل الأحمر التى تأتى مرة كل أسبوع وترش حوش المنزل بصفيحتين من الرمل الملون .. أشياء جعلت للرجل مكانة خاصة بين الناس . وبقدر ما أفادته هذه الهيبة وحفظت مقامه من ذرابة

ألسنة أهل الحارة فى خصوماتهم .. إلا أنها أقامت بين أسرته وبين بقية السكان سوراً من الغربة ، فمع أن زوجته سيدة طيبة حلوة الحديث إلا أنها لم تكن مألوفة بين السكان ولا يقوم بينها وبين بقية نساء الحارة ذلك الود الجميل الذى يظهر فى الأحاديث الودية التى تكثر فيها (الفضفضة) عن النفس بالحكايات التى لا أسرار فيها تحتجب ، أو يظهر فى سوء التفاهم الذى تلعن فيه الجارة جارتها خصمة اليوم وحبيبة الأمس بأقذع الشتائم وتفشى فيه أدق الأسرار التى حكتها الجارة لجارتها فى لحظة صفاء ماضية فتذيع الأسرار بين الناس ولا يبقى عند النساء ما يخفينه . حتى أدق الأسرار الزوجية تدخل فى المعمعة إذا حمى وطيس الخناقة ولم تجد إحداهن ماتجيب به جارتها سوى تعييرها بما بينها وبين زوجها من أسرار إذا كان هناك من الأسرار مايخدم الموقف .

لم يكن بين الست أم عبده وزوجة علي أفندى وبين نساء الحارة مثل هذه الأحاديث الودية التى تستخدم فى ساعات الغضب كسلاح للعدوان والهجوم . وبقدر ماكان هذا الوضع مريحاً للسيدة التى تعيش بين نساء لسن من طينتها فهى كزوجها تنحدر من سلالة تركية وان كانت ليست كزوجها فى مظهرها المهيب فبقدر ما كان زوجهاطويلا كانت هى قصيرة وقليلة الحركة ولا يعرف عنها الناس إلا الوقت الذى تمضيه فى زيارة إحداهن فى أحاديث ودية ولكنها عامة لا يمكن أن تفهم منها أى امرأة من نساء الحارة شيئاً عن هذه السيدة التى ولدت ثم تزوجت فى البيت العتيد ومع ذلك تبدو كأنها غريبة عنهم .

بقدر ما كان الوضع مريحاً للسيدة فى بدء حياتها وانشغالها فى تربية ابنتها ، لم يكن مريحاً بعد أن كبرت البنت وأصبحت عروسة فهى تعرف أن ابنتها جميلة ويمكن أن تجد زوجاً مناسباً ولـكنها كانت تدرك أن أسلوب حياتها قد أقام بينها وبين أهل الحارة عزلة مخيفة لن يتجرأ بسببها أحد أحد على التقدم لابنتها لإحساسهم بأن على أفندى وأسرته شىء وهم شىء آخر . ومع أن الأم بدأت تصحب معها ابنتها إلى الزيارات وخصوصا زيارة بيت الحسينى الذى خرج منه (ابراهيم) وأصبح موظف حكومة بالبريد ، ولا يفرقه عن أبيها سوى بضعة أعوام من الخدمة وهاهو يخرج أبناً آخر فهل يكون للبنت نصيب فى واحد من هذا البيت ؟

لم يكن الوضع مريحاً للزوجة وبالذات من اليوم الذى بلغت فيها ابنتها مبلغ النساء وأصبحت شابة جميلة ومتعلمة ويجب أن تفـكر فى مستقبلها . كما أنها تعرف إمكانيات زوجها المادية فهو لا يقدر على تجهيز ابنته بجهاز فخم يناســـب الحلم الذى تتمناه كل أم لابنتها ولولا البيت الذى ورثه ما أستطاع أن يستمر على نفس الأسلوب الذى راى أباه يسير عليه ومع ذلك فـكثيراً ما خرجت فى هدوء من بيتها ومعها قطعة الذهب ممـا ورثته عن أمها وذهبت إلى الصـــائغ لترهنها وتفك بها ضائقة ثم تعود فى أول الشهر وتفك الرهن بهدوء دون أن يشعر أحد من سكان الحارة أو يهتز لزوجها رمش .

هى تعرف أحوال زوجها ولذلك وضعت مستقبل ابنتها فى بيت من

بيوت الحارة بل وفى نفس البيت الذى تعيش فيه إن أمكن ، وحرصت على مقتنياتها لتكون لابنتها عند زواجها . وراحت بدوء تملأ عقل البنت بشخص ابراهيم أفندى الذى عين فى الحكومه وذهب منذ فترة إلى الريف ولا شك أنه يدخر هو الآخر ليكون مستقبله وما علينا إلا أن نشجعه على التقدم لخطبتك والمسألة لا تحتاج أكثر من التردد على أمه بالزيارة وخصوصاً فى أوقات زيارته حتى يراك ولا شك أن أى شخص يراك سيتمتاك فوراً فجمالك من النوع الذى لا تعرفه هذه الأحياء فهو يجمع بين الجمال والجلال .

كانت سميحه تستمع إلى أحاديث أمها عن براهيم ولا تعلق على كلامها وربما يكون السبب عدم تعليقها انها لم تكن قد كونت رأياً عنه . كما أنها لم تر منه أى بادرة مشجعة نحوها وإذا كانت الأم تملأ رأسها بأنها جميلة مرغوبة فابراهيم الحاصل على الابتدائية ليست الحلم الذى تتخيله . فأيامها شيء وأيام أمها شيء آخر ، وهى لا تقبل ان تعيش حياة امها فالناس لا ترى إلا المظهر لكنها تعرف الجوهر حق المعرفة وتلمس معاناة أمها لمداراة أحوالهم بصبر عظيم ولا يمكن أن تفعل فى مستقبلها ما تفعله أمها فى حاضرها حفاظاً على بيتها . كما أن البنت وان كانت تحب أباها إلا أنها لاتقبل زوجاً كأبيها كل مؤهلاته فى الحياة هى الشهادة الابتدائيه وبيت موروث ، بل إن الابتدائية نفسها لم تعد سحراً يجذبها نحو أى رجل فها هى قد حصلت على الابتدائيه ومع ذلك فهى تشعر أن أمامها الكثير لتحققه .

هكذا بدأ ابراهيم الذى لم يكن يدرى عما يقال عنه شيئاً ينحسر من مخيلتها أمام الأفق الجديد الذى ارتقت إليه بعد دخول المدرسة الثانوية كما أن محمد الذى يكافح بنجاح ليرفع مستواه إلى مراتب أعلى ، ويرتقى بالفعل من العفريتة الزرقاء والبسكليتة والخروج فى الصباح المبكر إلى البنطلون والقميص والموتوسيكل (ألبى أس) والابتدائية إلى التعليم الثانوى ولا يستبعد أن يكون لهذا الشاب طموح أبعد مما تتخيل . ولا شك أن محمداً بكفاحه وعزيمته يدعو إلى الإعجاب لكنه ليس الاعجاب المطلق . إنه إعجاب محايد لا أثر للعاطفة فيه فقد عودت نفسها ألا ترى من الأفعال إلا نتائجها وإذا كان أفضل من فى الحارة تلميذ بالثانوى فالعالم ليس الحارة فقد خرجت من الحارة ومن الشارع ومن فى الحى كله بعد أن دخلت مدرسة (السنية الثانوية) وأصبحت تركب الترام وحدها وتلتقى بالناس سواء فى المدرسة أو فى الشارع أو فى الترام . . وتختلط بالبنات الأكبر سناً ومقاماً والبنات الأصغر وتعرف موقعها جيداً وتعرف انها وان كانت من أجمل بنات المدرسة ، إلا أن عالم المدرسة شىء وعالم مابعد المدرسة شىء آخر فهى تعود إلى البيت القديم فى (باب البحر) وغيرها يذهب إلى عمارات فخمة أو فيلات فاخرة . وهى تركب الترام وغيرها يركبن سيارة هى تعلم كل هذا وتعلم أن موقعها يجب ان يكون فى الوسط واحلامها يجب ان تكون فى الوسط وطموحها يجب الا يعصف به خيال . وإذا كانت تمر بالعمر الذى يتعين عليها فيه ان تفكر فى فتى احلامها فلن تكون فى اختيارها واهمة ويكفيها من الدنيا رجل متوسط الدخل يريحها مادياً ولا يضطرها إلى حمل مصاغها فى آخر الشهر لترهنها

حتى يأتى الراتب اول الشهر ، وإذا كان ابوها قد سمح لها بالذهاب إلى المدرسة الثانوية فهو لن يسمح لها ان تعمل فالمراة للبيت لا للعمل وهى فكرة مريحة لأنها لا تعرف من النساء إلا قلة قليلة وبما انها لن تكون « كسهير القلماوى » فالمدرسة يجب ان توضع فى إطارها الصحيح وهو نافذة تطل على العالم وتختار بواسطتها زوجاً ثم تستقر فى بيتها فأى الرجال يشبع فيها غرور الأنثى وطموح المرأة العاقلة . الترام لا يخلو من شخص محتمل ولكنهم يبدون أما فى حالة سأم وكأنهم قد شبعوا من الدنيا إلى حد التخمة ، أو تبدو على وجوه بعضهم علامات شيطنة خطيرة والبقية تلاميذ مثلها . المدرسة وكل من فيها من رجال يزيد عمرهم على الأربعين وكلهم متزوجون . فمن يكون فتاها ؟

أنها تعرف مطالب الرجل فى المرأة . . (الجمال والكمال) ومع أن الكمال لله وحده إلاأن المرأة يجب أن تكون كاملة الخلق مؤدبة لا يرمش لها طرف لا تحملق فى أى شخص . . مؤدبة ومهذبة . . ومع أن هذه المطالب غير واقعية فالمرأة إنسان كالرجل تماماً من حقها أن تتكلم وتتحمس وتضحك وتحب وتكره . . إلا أن سميحة اختارت أن تكون على نفس المواصفات المطلوبة من البنت التى تريد أن يرضى عنها المجتمع فلم تصادق إلا بنات (عاقلات) مثلها ، ولم تتكلم فى الموضوعات التى يتحدث فيها البنات كثيراً والناس كلهم دائماً لأنها لا تحب أن يعرف عنها إنها فتاة متبجحة ، وكانت تبدو دائماً فى المدرسة أو الشارع أو الترام بوجه جامد لا يعبر عن شىء وتمشى مشية جادة لا تهتز فيها كغيرها من بنات جنسها

وسنها . باختصار خلقت سميحة من نفسها نموذج البنت المثالية فى عصرها وكان لابد أن تنتظر الجزاء وكان يجب يكون الجزاء من جنس العمل .

شاب موسر وعملى . . حاول أن يتحدث معها فى الترام فرفضت ومع الرفض أظهرت غضباً وامتعاضاً يطمئن الشاب إلى أخلاق فتاته .. وحاول أن يوسط إحدى قريباته لتتكلم معها فى الترام فرفضت كذلك لأنها لا تسمح لنفسها بالخوض فى هذه المواضيع وهى التلميذة النجيبة . . وازداد الشاب إعجاباً فتقدم لها ودار حديث طويل بينه وبين أبيها وبعصبية شديدة وورثه إلى الأصل التركى رفض الأب العريس وأثار زوبعة عنيفة لأن الفتاة تجرأت وحاولت أن تناقشه وكاد البيت أن يهتز بعنف لأول مرة منذ تزوج الأب زوجته وكادت الفتاة أن تجلس فى البيت ولا ترى النور لولا أنها وعدت أباها بعدم فتح هذا الموضوع مرة أخرى وسكت الأم ، وسكتت البنت . . وهدأ الأب .

الفصل الثاني عشر

لم يكن الجلوس فى المنزل وإنتظار العريس من الأمور المريحة لنفسية الأختين ، وإذا كان الآب قد حرمهما من نعمة التعليم بلا سبب سوى الخوف عليهن بعد وفاة أختهما أمينة فى وباء الكوليرا ، فإنه لا يصح أن يحرمهن من نعمة العمل والخروج والعودة ورؤية العالم الذى تعيشان فيه وإذا كان يفكر حقا فى مستقبلهما فالأفضل أن يسمح لهما بالعمل الذى ترغبان فيه ، فالعريس لن يأتى من السماء ولكنه سيأتى من الشارع أو الحارة ويجب أن يراها وما دامتا محبوستين فى البيت فلن يفكر أحد فى التقدم إليهما إذ أنهما لن يضعا إعلانا يقول (هنا فتاتان ترغبان فى الزواج): كما أن العمل ضرورى لتجهيز كل منهما بالأثاث والعفش فظروف الآب المادية لن تسمح له بتجهيزها وقد يكون هذا عائقاً فى الزواج خصوصا بعد أن بدأ (عرسان) تلك الايام يشترطون أثاثاً خاصا قبل الشروع فى الزواج .

ولم يكن هناك سبب خاص يدعو الآب حجب بناته عن الانظار وإرغامهن على ترك المدرسة إلا ظروفه المادية التى لا تسمح له بالانفاق على الأولاد والبنات فى المدارس ، وإذا كان له أن يختار فلا شك أنه سيفضل الذكر على الأنثى فى التعليم كما حدث بالفعل ، أما والبنات يفكرن بهذه الصورة فى مستقبلهن ويدركن ظروف أبيهن فلا شك أنه سيقف

بجوارهن أن لم يكن لحاجة إلى نقودهن فعلى الأقل ليترك لهما المجال للاعداد للمستقبل .

هكذا أقتنع الأب برأى بنتيه والحاح زوجته وسمح لهما بالخروج إلى العمل مع التدقيق عليهما فى الملبس والمحتشم وعدم الإختلاط بالبنات ذوات العيون (الباجسة) ، وهكذا أصبحت الفتاتان تخرجان كل صباح وهما ترتديان البالطو فوق الفستان وتضعان (البيشة) على الوجه صيفا وشتاء ، ولابد من (الجوارب) تحت الحذاء ، وهكذا أصبحت البنتان تخرجان وفى نفس الوقت تثيران الإعجاب بأدبهما وإحتشامهما ، وهكذا إرتفع الأب فى عيون الناس لأنه يربى بناته تربية قديمة رغم الظروف الصعبة وكثرة العيال .

ولم تمضى شهور قليلة حتى أصبحت عديلة وعائشة من أهم الفتيات فى مشغل (الطحان) بالموسكى ، والذى أراح البنتين نفسيا أن صاحب المشغل كان يقدر الجهد فهو يوجه كل فتاة بصبر وابتسامة لا تفارق شفتيه ويعطى الحساب كاملا فى نهاية الأسبوع ويكافىء المجد بالزيادة ولو كانت (شلن) ولكنها تجعل البنت تشعر بقيمتها بين زميلاتها وهكذا شب تنافس جميل بين البنات كان الفائز فيه دائما هو الطحان نفسه صاحب المشغل فقد إرتفع مستوى إنتاجه على مستوى كل المشاغل الأخرى ورغم أن الرجـــل (يهودى) إلا أنه كان يحترم الفتيات المسلمات وهن

الأكثرية ويسمح لهن بالعمل نصف يوم (فى أيام الجمعة) ويحاسبهن على يوم كامل مع أن غيره يخصم نصف اليوم من الحساب .

هكذا أصبح للبنتين دخل أسبوعى مرضى فكانتا (تتشبرقان) بجزء منه وتدخران جزءا آخر للمستقبل ، وأصبحتا تأكلان البيض والجبن الرومى ان لم يكن لهما نفس لأكل (الفول) فى الصباح . وفي المناسبات تقدمان الهدايا من ملابس للأخوة مصطفى وعبد الكريم إلى جلباب بيتى للأم أو جلابية للأب ، بل إنهما تقدمتا فى فنهما فتعلمتا التفصيل بجانب التطريز واصبحتا تخيطان كل حاجات الأسرة من ملابس داخلية وخارجية وتوفران جانبا من المصروف يسد بلا شك فى زاوية أخرى ، بل إنهما كانتا تشتريان قماش البنطلونات (الجبردين) وتفصلانهما فى المنزل وتخيطانها فى المشغل وتعودان بها ملفوفة مكواة إلى أخوتهما كأنها قادمة من عند الترزى . أصبح للأولاد مظهر حسن بين الجيران فى الحارة والناس فى الشارع والزملاء في المدرسة .

ان محمدا طالب الثانوى المسائى والموظف الحكومى أصبح يستشير أختيه فى اختيار ملابسه ويطلب منهما أن تكونا معه كلما أراد أن يشترى قماش قميص أو بنطلون أو جاكت فكان يذهب إلى المشغل فى موعد خروج البنات وينتظر أختيه حتى تخرجان ثم يسير معهما بين المحلات . ولا يختار إلا ما يعجب ذوقهما . وقد حدث إحدى المرات حادث ترك أثراً متباينا فى قلب كل من الأختين قصتا القصة على أمهما التى طلبت منهما

عدم ذكر شيء من هذا لأبيهما ولكنهما لم تقل شيئاً للبنتين ولا للابن ، فقد جاء محمد ذات مساء إلى المشغل ومعه صديقه حسن ، وإذا كان حسن صديقا حميما لمحمد ، وإذا كان يدخل البيت ويسلم على الأم فانه لم ير ظفر أى من البنتين . هكذا كانت تقضى التقاليد ، ولكنه يأتى اليوم مع أخيهما ويسلم عليهما ويسير بجانب أخيهما ويذهب معهما إلى محلات الأصواف الكثيرة بالموسكى لتختارا له قطعة قماش على ذوقها فقد أعجبه البلدلة الجديدة لمحمد . ورغم أنهما لم تنكشفا عليه وان وجهيهما كان منطى (بالبيشة) فقد اختارتا له قطعة قماش ممتازة نالت إعجابه وإعجاب أخيهما معا ، ثم دعاهما ومحمد إلى أكواب من الشربات بالصودا من محل (ولسن) بالعتبة رغم ذلك فقد شربتا الشراب دون أن تخلعا (البيشة) ولا شك أن البنتين كانتا مثيرتين وهما تشربا (الشربات) من تحت البيشة ، ولكنهما كانتا طبيعيين ولم تشعرا بالخجل أو الكسوف رغم أن معظم البنات اللاتى حولهما كن بلا (بيشات) بل ولا بلاطى أو جوارب . ولكنهما كانتا فى رارة نفسيهما تشعران بشيء من الاعتزاز بالنفس وهما على هذه الهيئة من الاحتشام .

وبعد أن إنتهوا من شرابهما إستأذن حسن شاكرا وعاد محمد وأختيه إلى المنزل .

كان لابد أن تقص الفتاتين القصة لأمهما فهى أمرغير مألوف ،وكان لابد أن تستمعا الى رأى الأم وهل اخطأتا فى موافقة أخيهما على ذلك

ولكن الأم لم تعط الأمر أهمية تذكر وقالت أن حسن كمحمد وما داما كانتا فى حماية أخيهما الكبير فلا تثريب عليهما ولو لم يكن محمد واثقا من أخلاق صديقه ، ما فعل أمرا كهذا ، ولكن من الأفضل الا تخبر أباهما بشىء فهذه مسائل لا تناقش وليس من المنتظر أن يقدم الأب موافقة على فعل كهذا مهما كانت دواعيه ولذلك يجب أن يبقى الأب بغير علم .

وانتهى الأمر ولم يتحدث فيه أحد ولم تأت سيرة حسن على لسان أحد لا محمد ولا أى من البنتين ولا الأم فى أى حديث عائلى ،وظل حسن يتردد على المنزل وينادى صديقه ويذهبان معا إلى المدرسة مساء أو يجلسان أمام البيت بعد العصر مع مجموعة أخرى من الزملاء ويتبادلون فى جلستهم الأحاديث العادية عن الدراسة أو العمل أو السياسة وكثيرا ما كان الأب يشاركهم الحديث لفترة قصيرة ثم يستأذن لصلاة المغرب فى المسجد بل أن على أفندى دعاهما ذات مرة إلى مجلسه وراح يتحدث معهما ويتبسط فى الحديث ويقدم لهما صينية الشاى مرة وفناجين القهوة مرة أخرى ويبدى إعجابه برجاحة عقليهما وغزارة ثقافتهما وحسن خلقهما ..

كانت أمسيات جميلة وهادئة ولكنها لم تدم فقد بدأت الاحداث تتتالى وتعصف بالحارة وأهلها وبعلى أفندى وبيته وفجأة سقط الرجل فى حضيض الألم والخزى وكأنه كان على موعد مع أشهر فضيحة عرفها الشارع كله لا الحارة فقط وكل ذنبه أنه أنجب فتاة جميلة . ورغم أنها متعلمة ومؤدبة ، فقد تسببت فى جرح كرامة الرجل وجعلته يتوارى عن

مجلسه أمام بيته فلم يعد يرى ألاوهو ذاهب إلى عمله أو عائداً منه لم يعد يلقى السلام على أحد ولم يعد يرد عليه أحد ولم يعد يقوم له أحد واصبحت (سميحة) بطلة قصة خلع عليها كل بيت من عنده كل ما تخبئه نفسه من أفكار وخيال . ورغم أن البنت لم تسقط فقد كانت فضيحة بجلاجل .

نعم سكتت الأم عن فتح أى حوار مع زوجها بخصوص عريس بنته ، وسكتت البنت عن أى حديث وهدأ الأب ، لكن العريس لم يسكت ولم يهدأ ولم ييأس . (عاوز أعرف سبب واحد لرفض أبيك لطلبى) هكذا قال للفتاة على لسان الرسول الذى ظل يلاحق البنت فى الترام ذهاباً وعودة ، وهو رسول أمين وموثوق فيه ولا يثير شبهة أحد فهو شقيقة العريس . ولم يكن الأمر سهلا فى البداية فالفتاة لا تريد أن تخوض تجربة من هذا النوع مع أى شخصية بعيداً عن أسوار بيتها ، لكن النهاية كانت مشجعه للفتى ، هكذا أفاد الإلحاح . وأصبحت الفتاة تتحدث إلى (أخت الفتى) التى أصبحت مع الوقت صديقة — مألوفة ترتاح إليها سميحة وتفض لها بما يعتمل فى نفسها من مخاوف ، وكانت الصديقة تطمئنها بأنها ستكون فى عين أخيها بل ستوضع فى عيونهم جميعاً أختاً وأخاً وأماً وأباً فهم موسرون ويعيشون فى أملاكهم وعندهم الخير الوفير ولا يريدون بالفتاة شراً والمهم أن تقبل الفتاة وتوافق على العريس وستفعل أمها المستحيل لتجعل والد العروس يوافق على زواج ابنته من ابنها . وبعد تفكير طويل وافقت الفتاة وبدأت ترى الفتى وان لم تحدثه بكلمة واحدة . كان يجلس فى الترام بجوار أخته ولا يرفع عينيه فى عينها ، وأحياناً كان يجلس أمامها

ليملى عينيه منها دون أن يبدو فى الأمر غرابة أو تصنع . وبدأت الفتاة تملأ عينيها هى الأخرى من فتاها وبدأت تفكر فيه وبدأت تعود إلى المنزل بصورته التى تملأ عقلها وقلبها وبدأت تفكر فيه قبل نومها وبدأت تدرك أنه قدرها وأنها لابد ان تتزوج منه . . هكذا احبت سميحة خالداً .

ورغم ان الفتى كان يرتدى الجلابية إلا انه كان وسيماً بل انه ابدى استعداده لخلع الجلابية وارتداء البدلة الأفرنجية إذا كان مظهره هو ما يحول دون زواجه من سميحة وقبول ابيها له . لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة فى عين الأب .

— يطلع مين خالد ده . . مين أبوه . . مين عيلته ؟ شوية فراشين أفراح إيه قيمتهم بين الناس . . يوم يفرشوا لفرح ويوم يفرشوا لميتم . . ده ياخد بنتى . .

ولكن الأم من ناحية وتحت احساسها بقبول ابنتها وميلها إلى الفتى قبلت وضع بيتها وحياتها فى كفة واقناع زوجها فى الكفة الأخرى فهو عريس (لقطة) بلاشك وهو حلم جميل أطاح بكل ما تخيلت الأم لابنتها من فرسان وهى أدرى الناس بالموظف وحقيقته وخصوصاً إذا كان على شاكلة زوجها ، وهكذا خرج إبراهيم الذى كانت الأم تخطط ليكون زوجاً لابنتها من عقلها أمام الوافد الجديد من خارج الحارة والبيت والشارع .. الرجل الغنى الكسيب .. الذى يحقق لابنتها كل ماينقص الأم من الحياة ..

— الموظف بيكسب كام ياسى على . . ده عنده دخل شهرى أكبر من دخلنا طول السنة . . واحنا لينا ايه غير سعادة البنت وكل أملى رضاك وقبول العريس

— ما شاء الله بقيتى بتعرفى تتكلمى وتعارضينى ف رأيى . . تفهمى ايه فى الدنيا . . تعرفى ايه عشان تقولى لجوزك انه غلطان . . من أمتى بتمدلى على أفكارى . .

ابتلعت الزوجة ريقها وراحت توضح لزوجها وأنها لا تريد إلا رضاه وإسعاد ابنته ، وهى لا تعارضه بل إنها لا عاشت فى هذه الدنيا إذا كانت قد فكرت فى معارضة رأيه ، ولكنها تدرك حالهم وتعرف أن الأيام الجميلة التى عاشتها مع زوجها فى زمنهما لم تعد موجودة والدنيا تغيرت والناس كلها بقت بتاعة مظاهر وكل أملى انى أشوف بنتى متهنية ف بيتها مع راجل يصونها ويسعدها

— والرجل الفراش ده هواللى حيسعد البنت .. حطى عقلك ف راسك ياولية وفكرى . . أجوز بنتى لفراش . . أنتى عاوزه تحطى مناخيرنا فى التراب . .

— يا سيدى ده مقتدر . . ده بيلعب بالفلوس لعب . . ده باين عليه من بيت طيب واهله باين عليهم ناس محترمين . .

— والمحترمين يشتغلوا فى الفراشة . .

ـــ مفيش حاجة عيب ياسيدى ما دام الناس بتاكل لقمتها م الحلال . .

ـــ لا فيه .. الناس مش زى بعضها وبنتى مش زى أى بنت تانية ولازم تجوز واحد من مستوانا .. من طبقتنا .. واحد زينا محترم ..

ـــ وهو ياسيدى الولد الطيب ده مش محترم

ـــ خلاص .. مش عاوز كلام فى الموضوع ده .. تلاتة بالله العظيم ..

ـــ خلاص ياسيدى .. متحلفش .. حقك على .. مش حأ كلم فى الحكاية دى تانى .. أمرك ياسيدى على عينى وراسى ..

لكن الموضوع لم يقفل بل أنه فتح أكثر من مرة ، وفتح كثيرا مرة من زوجته ومرات كثيرة من وسطاء مهمين .. وسطهم أبوالعريس لعلى أفندى ومع ذلك لم يقبل بل أن العرق التركى ركبه وكان يزداد رفضا كلما إزداد الوسطاء عليه إلحاحا ..

وبكت البنت سوء حظها فى الدنيا ، وبدأت تتدهور صحيا و(تذبل) وبدأ أهل الحارة يعجبون من أسباب رفض أبيها عريسا لقطة كخالد ابن أكبر صاحب (فراشة) فى البلد ، ولكنهم أحسوا أن على أفندى فوق فوق وأنهم تحت تحت وازدادالناس إعجابا بالرجل الذى أصبح أهم رجل فى الحارة لأنه رفض لابنته عريساً كخالد وكان الجميع يفكرون فيمن يدخر الرجل لابنته من عرسان . . لا شك أنه سيزوجها لمدير ما دام يرفض الرجل الغنى لأنه ليس من طبقته وليس (أفندى) .

لم يسكت العريس ولم يهدأ ولم ييأس وبدأ (رسوله) يرسم للفتاة طريق الفرج بهـدوء وخطوة بخطوة حتى لا ترفض البنت الفكرة مرة واحدة .

— خالد بيحبك ياسميحه وحالف ما ياخد بنت غيرك

— . . . .

— خالد مبينمش ليله .. ده انا اخته وعرفاه ..

— مسكين .. بس انا ذنبي إيه ؟

— انتى مالكيش ذنب لكن هو كمان ذنبه إيه ؟ كل ده عشان بيحبك ..

تنهدت سميحة تنهيدة من أعماقها الحزينة وقالت :

— والنبي يا سعدية متزوديش همى كفاية اللى انا فيه

— وليه تعذبى نفسك .. وليه تعذبيه ؟

— تقصدى إيه ؟

— قصدى أن الناس كلها فى حتتكوا عارفين أن خالد متقدم لك وعاوز يجوزك .. وعارفين ان خالد ميتحبش وعارفين ان باباكى هواللى واقف فى سكة سعادتكو .. مش ده يبقى حرام ؟

— حظنا كده بقى

— ليه ياسميحة .. انتى حتعملى زى الجهلا اللى طول النهار قاعدين يتكلموا عن القسمة والنصيب وهم مبيتحركوش .. بقى أنا لو جالى واحد زى

خالد أسيبه .. والله لا يمكن لو وقفت الدنيا كلها ف وشى ..

— يعنى تخالفى أبوكى وتخرجى عن طوعه ؟

— لا اخرج عن طوعه ولا حاجة ..إنما برضه ماسيبش اللى باحبه مادام هو وأهله شاريينى .. أبيعه أنا

— والله مانا عارفه .. انا خلاص مش عارفه أعمـــل حاجة .. مش قادرة افـكر ..

— هدى نفسك يا سميحة .. متعمليش فى روحك كده ..

— يا شيخه ياريتنى لاشفت خالد ولا عرفته .. ياريت أموت واستريح م الغلب ده

— ياشيخة متقوليش كده .. هو انتى عملتى حاجة تندمى عليهـا . . ده انت ادب وأخلاق وجمال وهو لولا أخلاقك وكمالك كان خالد اتمسك بيكى ياسميحه .. وده انتى بقيتى زهرة علتنا وماما بتتمنى اليوم اللى تشوفك فيه فى بيت أخويا خالد ..

— وهى رأيها إيه ؟

— هى مفقدتش الأمل ومستعدة تقول لباباكى انها تدفع له أى مهر عاوزه عشان خاطرك

— والله باين عليها ست طيبة .. بس تفتـكرى بابا حيوافق .

— خللى املك فى ربنا كبير ياسميحة ..

— ونعم بالله ..

لـكن الأب لم يوافق وأصر على موقفه وهدد ابنته بحجبها فى البيت إن لم يكف هؤلاء الناس عن ملاحقته فى طلب ابنته وراحت سميحة تبكى وتسأل عن ذنبها ، إذا كان الناس يأتون فليمنعهم ولـكن ما دخلها هى فى تصرفاتهم ، وبدأ الأب يلين ولـكنه ظل على صرامته وتجهمه فى وجهها كأنها مسئولة عن تعـكير صفو حياته المنزلية .

وعاد الرسول إلى الترام . . عاد هذه المرة بحزن عميق وألم . راحت سعديه تحدثها عن خالد وحالته لم تنسى أن تلوم سوء إجابة أبيها على طلبهم وعدم لباقته معهم وهم فى منزله وهو الرجل المحترم ، ولـكن سميحة بدورها راحت تدافع عن أبيها وحالته وان كانت لم تخل فى دفاعها من اعتذار عما بدر منه من إهانة لضيوفه فى بيته ، ولم تضيع سعدية الوقت فقالت لسميحة أن خالداً تحدث مع امه كثيراً ووجد أن هناك طريقة واحدة ممـكنة ليجتمع شمله على فتاته ؛ ومع أن الأم رفضت فى أول الأمر إلا أنها وافقت عندما قال لها ابنها .

— إذا كنتش مش موافقة على كده . . شوفى لى حل تانى

— لـكن بنات الناس مش لعبة . . وسمعتهم يا ابنى متنساش ان عندنا بنات .

— وهو احنا حنعمل حاجة غلط والا حرام . . احنا عاوزين نتجوز على سنة الله ورسوله

— لكن يا ابنى ده أبوها يموت بحسرتها .. يرفع رأسه بعد كده ازاى فى وش الناس ؟

— وليه ميرفعش رأسه . . بنته حتتجوز وتعيش فى بيت محترم .

وراحت سعديه تؤكد لصديقتها :

— ماما موافقتش إلا لما تأكدت من حقيقة حب خالد ليكى

— وافقت على إيه ؟

— على جوازك من خالد

— ازاى ؟

— زى كل الناس . . عند المأذون

— وبابا ؟

— ضرورى حيوافق يا سميحة لما يلاقى أن السهم نفذ

— يا خبر . . أنتى اللى بتقولى كده يا سعدية وأنا كنت فاكراكى صاحبة بصحيح

— هو أناباقول حاجة غلط .. مادام مفيش قدامكوا حل تانى تعملوا إيه؟

— بس بقى يا شيخه . . أوعى تفتحى السيرة دى تانى . . ده أنا لو قعدت طول عمرى من غير جواز م أعملش كده أبداً . . أهرب . . ليه . . هو أنا عملت حاجة غلط . .

— اشمعنى .. داانت مش البنات كلها لكن نعمل ايه .. باباكى هو اللى عاوز كده

— لا يا سعدية . . ده مش ممكن يحصل أبداً . . ده أنا أموت ولا أزعلوش . .

— ع العموم ده مسألة عاوزة تفكير . . شوفى أنتى عاوزه ايه . . حياتك ومستقبلك وسعادتك كلها متوقفة على جوابك .. فكرى ياسميحة .. وربنا يهديكى . .

وفكرت سميحة كثيراً . . فكرت لدرجة إنها لم تذق طعم النوم إلا قليلا . . وفكرت لدرجة انها لم تعد تميز فى كلامها بين أبيها وحبيبها وبدأت تخلط بينهما فى الكلام . وفكرت لدرجة انها لم تجد دمعة جديدة تذرفها على نفسها وحالها . . ولكنها لم تعرف ماذا تفعل . . وبعد أن تجرأت حكت لامها ما حدث وطلبت منها أن تساعدها فى محنتها فهى موشكة على الموت .. ولكن أمها ضربت يدها على صدرها جزعة .. كأن مصيبة قد حلت على بيتها بالفعل وقالت انها لن تترك الأمر يفلت من يدها ولن تترك ابنتها لقدرها ولن تترك الأب لغطرسته ولا مبالاته بها وبابنتها وحالها ومستقبلها وذهبت إليه وتوسلت وجلست تحت قدميه وراحت بكل ما فى قلبها من خوف على ابنتها ومصيرها وعلى زوجها وسمعته تستجدى منه كلمة الموافقة وهى تعرف ان مصيرها ومصير ابنتها بل ومصير زوجها معلق بالكلمة التى سيتفوه بها .. وبكت واستعطفت وتوسلت وأوشكت أن تبوح بسر ابنتها .. لولا الخوف على البنت من الانتقام وعلى الزوج من الصدمة . . وقال الأب كلمته . . وراحت الأم فى شبه جنون . . لم تبال بزعيقه وصياحه وتوعده . . لم تعد تسمع مما يقول شيئاً . . ولم يعد يهمها شىء فقد قال لا وانتهى الأمر ولم يعد شىء بعد ذلك جدير بالاهتمام أو الانصات وعرفت

الأم أن ما سيحدث لن تقدر على منعه لا هى ولا ابنتها التى دافعت عن كرامة أبيها وامها إلى حد الذبول والألم والاشراف على الفناء .

ومع ذلك سقط الأب فى حضيض الألم والخزى وكأنه كان على موعد مع أشهر فضيحة عرفها الشارع كله لا الحارة فقط وكل ذنبه أنه أنجب فتاة جميلة ومتعلمة ومؤدبة ومع ذلك تسببت فى جرح كرامته ، وجعلته يتوارى عن مجلسه أمام البيت فلم يعد يرى إلا وهو ذاهب إلى عمله أو عائد منه ، ولم يعد يلقى السلام على أحد ولم يعد يرد عليه أحد وأصبحت سميحة بطلة قصة خلع عليها كل بيت من عنده ما تخبئه نفسه من أفكار وخيال .. ورغم أن البنت لم تسقط فقد كانت فضيحة بجلاجل .

أبى العزيز .. حفظه الله وابقاه

كنت دائماً لك نعم الإبنة حباً واحتراماً ووفاء لحسن تربيتك وصنيعك لى . وما كنت أتمنى ان أرى فى حياتى إلا ابتسامتك الراضية وهى تدفىء قلبى بحنانك وعطفك وحبك .. وما كنت أتمنى أن يحدث شيئاً مما حدث . ولكن ماذا اقول ؟ هل أقول إنها إرادة الله والقسمة والنصيب أم أقول إنه رفضك واصرارك وتهديدك ولا مبالاتك بابنتك ومستقبلها وانت تعلم أن خالداً لا يعاب وأننى أميل إليه والحياة فيها ألوان كثيرة من الناس غير الموظفين والأفندية وكل ما يسعى إليه المرء هو تحقيق سعادته على الأرض .

أنا لا أنسى يا أبى المرة الأخيرة التى حدثتك فيها أمى عن زواجى ،

ولا أنسى موقفها أمامك وموقفك منها . أنا يا أبى لم اخطىء ولم أفرط فى
كرامة منحها الله لخلقه ، ولكن طلبت الحياة بعد أن أوشكت على الموت
وعلى قتل إنسان كل ذنبه أنه أحبنى . فطلبت الحياة وتوسلت إليك ولم
تقبل . لذلك أخرج وحدى إلى أهله بعد أن تم عقد قرانى أمس على
سنة الله ورسوله بعد خروجى من المدرسة وقبل عودتى إلى المنزل
وستصلك صورة شرعية من عقد القران لتتأكد أن ابنتك لم تفرط فى
كرامة منحها الله لهـــا ولكنها طلبت الحياة وذهبت إلى أناس أحبوها
وحاولوا كثيراً اقناعك ولكنك للأسف لم تستجب لطلبهم . . سأكون
زوجه خالد الوفية وابنتك البارة . .و إذا كنت قد عشت أياماً كثيرة
فلم يمر على يوم كأمس اجتمعت فيه قمة السعادة وحضيض الحزن فمن ياأبى
تحزن يوم زواجها ومن يا ابى تفرح واهلها بعيدون عنها فى موقف
كهذا ! . لكنها إرادة الله ورغبتك وثق ان كل الناس هنا يحبوك
ويقدروك ويتمنون ان يزول مابينك وبينهم من سوء تفاهم وكل ما اتمناه
هو الصفح والمعذرة منك ومن امى فاغفر لى يا ابى وثق من حبى لك
وسأكون بانتظار تشريفك أنت وامى واهلى فادع لى بالتوفيق فى حياتى
الزوجية ولك دائماً حبى واحترامى ››

ابنتك المخلصة

سميحة

هكذا خرجت سميحة .. وهكذا سقط الأب ألما وحزنا ولم يعد يراه أحد .. لكن الحارة كانت هى الأخرى تغلى كبركان مصهور لما حدث ، ومع أن البنت قد خرجت زوجة فى بيت يحميها ويصونها مع زوج حاول كثيرا أن يوفق بين رغبته وكبرياء أبيها إلا أن الحارة لم تغفر للبنت جرأتها وبدأوا ينسجون الأساطير حول البنت والولد والأسباب التى دعتها للهرب ولا شك أن فى الأمر شىء !!

لكن الأخطر من ذلك كان موقف أهل الحارة من بناتهن فقد حجب الشيخ السويفى إبنته زينب فى المنزل ولم يسمح لها بالخروج إلا (بالملاية) اللف مع أمها وبعد استئذانه .. النظر من النافذة ممنوع .. لبس البرقع ضرورى أو تضع البنت بيشة على وجهها .

أما عم حسن العربجى فعاد إلى منزله وأخذ إبنته باتعة من يدها ولوى ذراعها لأول مرة منذ ماتت أمها وقال لها إن الخروج من المندرة ممنوع والقعاد فى الحارة ممنوع والكلام مع الناس ممنوع ولو شفتك فى الحارة بعد الساعة دى ح أكسر رقبتك . ولم تقل البنت شيئاً فقد كان أبوها غير أبيها وحاله غير حاله وكلامه غير كلامه . . فهل كل هذا بسبب البنت سميحة . . الأمر لله .

وفى بيت الحسينى تتم كل شيء بهدوء وبكلمة من فم الأب هادئة كالقفل قاطعة كالسيف :

— من النهاردة معنديش بنات تخرج من البيت .. مفيش شغل .. كفاية بقى لحد كده

ولم يفه أحد من أهـل المنزل بهمسة فقد كان الظرف صعبا على الجميع والصدمة ما زالت قوية والحالة متوترة والحـكمة تتطلب فى هذه الفترة الصمت من الجميع .

الفصل الثالث عشر

كان تمرد البنت سميحة على أبيها صدمة قوية هزمت الرجل فتقلبت عليه الأمراض فجأة وإنقطع عن عمله وبدأ الأطباء يعودونه فى بيته والأدوية تتراكم على الكومودينو المجاور لسريره وخرجت الست أم عبده أكثر من مرة بنفس هدوئها المعهود وذهبت إلى الصائغ ولكنها لم تكن ترهن عنده مصاغها فظروفها الطارئة أصعب من ضائقة عابرة .. انها أزمة مالية خطيرة لا يقوى عليها إلا البيع وبدأت تخلع مصاغها وتبيعه وتشترى بثمنه الدواء . وبدأ زملاؤه فى العمل يتوافدون عليه للزيارة وكلهم له نفس الهيبة السابقة لعلى أفندى وعليهم نفس التجهم المعهود عليه ، وفى يد كل منهم شىء يقدمه لزميله سواء كان كيس فاكهة أو زجاجة كولونيا أو علبة ملبس . ولم تكن الزوجة تعرف ماذا تصنع وهى تواجه الدنيا بمفردها لأول مرة بعد أن سقط الزوج طريح الفراش .

— الهى يجعل يومى قبل يومك يا على ولا يشمت فيك عدو .. يارب جملها بالستر

وبدأ أهل الحارة كذلك يتوافدون على بيت المريض وقد أنساهم مرض الرجل ثرثرتهم عن ابنته الهاربة وكل منهم يحاول أن يخفف

من عبء الصدمة على الرجـل ويمنيه بعفو الله وشفائه وأن المرض إمتحان من الله لعباده المؤمنين ياعلى أفندى وانت رجل مؤمن وصالح وربنا قادر وعنده العفو واللطف .

وعرفت سميحة الخبر ولـكنهـا لم تعرف ماذا تفعـل بالضبط فهى تريد أن ترى أباها وتجاس تحت قدميه وتبكى ندما على ما سببته له بفعلها الطائش من بلايا وهم ، وهى تخشى أن تذهب إلى بيتها فتزيد عليه المرض وقد تتسبب فيما هو أسوأ من المرض والعيـاذ بالله ولا شك أن الرجـل غضب وكظم غيظه فـكانت الرقدة . ولـكنهـا لم تمط نفسها المزيد من الوقت للتفـكير لأن التفـكير فى مثل هذه الحالات يؤدى إلى التردد والأحجام فطلبت من زوجها أن تزور أبيها . لـكن الزوج الذى كان يقدر عاطفة زوجته نحو أبيها وإحساسها بالذنب كذلك كان يقدر فى نفس الوقت مشاعر الوالد وغضبه فقد تصور له نفسه وهو فى حالة غير طبيعية أن إبنته قادمة لترى نتيجة عملها وتشمت فيه أو قد يثيره بوجودها فيثور من جديد وصحته لا تحتمل المزيد لذلك قال أن الذى سيذهب فى البداية هو أمه وأبوه ويستطلعان الجو ويحاولان طلب السماح من الرجل عما فعل ابنهما بابنته مؤكدين أن البنت فى عيونهم جميعـاً ، وفى نفس الوقت يؤديان الواجب بتقـديم كل ما تحتاجه الزوجة من مال فى محنتها فهذه المواقف (ياسميحة) بقدر ما فيها من عواطف تتطلب عملا ودعما لا كلام وحسب .

ولم تعرف سميحة ماذا تقول لزوجها فسكتت وان كانت عيناها قد تحولتا إلى جمرتين مشتعلتين حزنا وألماً وعذاباً ودموعاً سخية لا تكف عن الانهمار وعن تعذيب النفس بكلمات مثل « أنا السبب فى مرض بابا » . والله لو جرى له حاجة لاقتل نفسى « ياريتنى ما طاوعت قلبى » . وكان الزوج يحاول تهدئة زوجته حيناً باللين وحيناً بالعاطفة ولكنه كان فى واد وهى فى واد آخر .

ذهبت أمه وأبوه إلى بيت على أفندى وظل الرجل واقفاً منتظراً فى فناء المنزل ريثما تنبئه زوجته بالأحوال فإن كانت ملائمة صعد وإلا عاد دون أن يسبب للمريض مزيداً من الغضب والانفعال . لكن الزوجة غابت ولم تعد وبقى الرجل منتظرا حتى نزلت إليه الخادمة وفتحت له (المندرة) وطلبت منه الانتظار حتى تعود إليه زوجته . وجلس الرجل يتأمل المكان ويتطلع إلى الصور المعلقة على الجدران ويتساءل عما إذا كانت هذه الصور لآباء على أفندى . وبعد فترة غير قصيرة عادت إليه زوجته قائلة :

— ياللا بينا يا أبو خالد

— ايه الأخبار . . خير ؟

نكست المرأة رأسها حزناً ثم قالت :

— مسكين على أفندى . . والمسكينة أكثر زوجته . . ولكنهم ناس طيبين على كل حال

— حصل إيه ؟

— فى البداية رفضت الست أم عبده أن تستقبلنى وأشاحت عن وجهها لكنها بعد فترة وجيزة أرتمت على صدرى وبكت وقالت لى (خدوا بالكوا من سميحه . . معادش لها حد غيركوا . .) أهه أبوها وقع وياعالم ربنا حيعمل فيه ايه) . . وراحت الأم تبكى فوجدت نفسى أبكى أنا الأخرى حزناً .

— لا إله إلا الله . . وكان لزمته إيه كل ده . . واديتها الفلوس ؟

— أديتها لكن بعد تعب . . مرضيتش أبدا . . كان راسها والف سيف متمسكش ولا ملبم . . لكن فى الآخر قبلت وسألت عن بنتها . .

— يعنى نجيبها تشوف أبوها ؟

— مش دلوقتى ده مرضيتش تقول له إنك هنا ولا عرف انى جيت . . قالت ان حالته خطرة وانها خايفة عليه من زعلة تانية . .

— طيب نجيب البنت تشوف أمها ؟

— خايفة من أهل الحارة أحسن ميسكتوش ويعرف الرجل ويزعل . .

— نجيبها فى السر . . بالليل تيجى بالملاية مع سعدية وحدش يعرفها وتقعد مع أمها شوية . . خلى البنت تهدا شوية . .

— اللى تشوفه

وجاءت سميحة متخفية تحت الملاية اللف التى لم تضمها فوق جسمها فى

أي يوم من الايام الماضية فهي بنت تلبس الفساتين وفي الشتاء تلبس البلاطي أو الجاكت . . وجلست مع أمها في غرفة مغلقة وراحت تبكي وامها تبكي حتى انتهت الزيارة ومالت البنت وقبلت يد أمها طالبة الصفح والمغفرة وطلبت منها الدعاء لها بالتوفيق ولأبيها بالشفاء ولم يشعر أحد من أهل الحارة بوجودها . .

وبعد بضعة أيام بدأ الرجل يتماثل للشفاء وبدأت زوجته تبتلع أنفاسها وتهدأ بعد أيام عصيبة ، بل أن الرجل بدأ يجلس على مقعد قرب النافذة يطل منه على الحارة ويتلقى تحيات الجيران والجارات من النوافذ وحمد الله وشكره أن من عليه بالسلامة والشفاء وبدأ الرجل يفكر في نفسه وفي اولاده الذين ينتظرهم مستقبل مرموق ويتساءل عما إذا كان قد أخطأ في حق ابنته ولكنه عاد ليؤكد لنفسه انه مهما كان موقفه فلن ينسى ان البنت جرحته وكادت ان تؤدى بحياته لولا رحمة الله ، ولما حاولت زوجته ان تفتح له موضوع سميحة بعد ان استحلفته الا يغضب او يضايق نفسه وانها ستسكت إذا طلب منها السكوت دون زعل او غضب ، واعترافها بأن ام زوجها قد زارته في فترة مرضه وانها كانت تبدو حزينة آسفة وانها قالت ان البنت تقطع نفسها حزناً على ابيها لأنها لا تقدر على زيارته في مرضه ، بل انها تجرأت وقالت له ان حماة بنته جاءت معها بمبلغ من المال لفك ضائقتنا في تلك الظروف الصعبة وانها تسأل إذا كان الأب يقبل اعتذار ابنته ويصفح عنها وهي لم تفعل ما فعلت إلا مضطرة وهي تكن لأبيها حبا عظيما وتقديراً بالغاً فهي مهما فعلت بنته وتربيته ومن صلبه ولن يكون الدم ماء بأي حال من الأحوال .

لما قالت الزوجة لزوجها هذا الكلام واشفعته بكلمات من قلبها عن الإبنة المسكينة الغائبة ، لم يثر على أفندى ولم يحمر ويمصف كعادته وإنما جذب نفسا عميقا حزينا وقال لزوجته :

— خلاص ؟

— أيوه ياسيدي

— مش عاوزك تفتحى الموضوع ده تانى

— أمرك ياسيدى

— والفلوس اللى خدتيها ترجع أول الشهر لما أقبض

— حاضر يا سيدي

— وإذا احتجنا فلوس استلف م الشغل أو من أى زميل من الزملاء

— اللى تشوفه يا سيدي

وراح الرجل يداعب حبات المسبحة ، بينما نهضت الأم وهى فى حالة يأس كاملة من رجوع زوجها عن موقفه .

كان مرض على أفندي هو التغطية المناسبة لقصة سميحة فقد فتر حديث الناس عنها حتى ندر وبدأ كل بيت يعود إلى ما فيه من مشاغل بل أن التشديد الذى عم بنات الحارة فى ظل أحكام الآباء العرفية بدأت تخف قبضته فالبنت (باتعة) تخرج من المندرة ولكن فى خوف وتقف عى باب البيت وتطل على الناس ثم تدخل إلى غرفتها ومن جديد بعد أن

ظهرت عليها النظافة وشيء من الرزانة لبعدها عن الحارة وألعابها وترابها
والأختان عديلة وعائشة بدأتا هما أيضاً عهداً جديداً من العمل عندما
سمح لهما الأب أن تعملاما تريدان ولكن في المنزل فاشترتا ماكينه خياطه
وبدأ (الطحان) يرسل — لهما الملايات لتطريزها في البيت وفي نهاية
الأسبوع تتجهان إلى المشغل لقبض أتعابهما . كما أن زينب التي أكسبتها
(الملاية) مسحة من الجمال بدأت تخرج لتشترى لأمها الخضار واللحمة ،
وهي وان كانت رفيعة القوام إلا أنها تتمتع ببشرة بيضاء وجسم أهيف
ووجه جميل دقيق الملامح ، وكثيراً ما كانت الملاية (تنفك) منها فكانت
تقف في الطريق وتفردها ثم تعيد لفها حول جسمها وكثيراً ما أخترقت
أذناها كلمات الغزل من أولاد الشارع الذين يملأون الدكاكين والطريق
ولا عمل لهم إلا لعب الكرة ومعاكسة بنات الناس . فكانت كلمات الغزل
تخترق أذنيها وتحيل وجهها إلى حمرة الخجل ولكنها كانت تبتسم سعادة
ولا تقول شيئاً ولا تنظر إلى أحد . بل أنها أصبحت تهوى إضاعة الوقت
والتنقل بين الباعة تفاصل هذا وتشترى من ذاك وكانت دائماً تحظى
بأرخص الأسعار في سبيل كلمة رضا تقولها لبائع منهم ولكنها كانت تنظر
بدلال وتقول له :

— ده بعينك . .

بل أنها كانت تسب في البائع الذي يتجرأ عليها ويلمسها بيده وتعنفه وتلعن
الصعيد الذي جاء منه وتلقى بما اشترته منه على العربة وتذهب إلى غيره .

كان شراء الخضار بالنسبة لهـــا نزهة يومية تلتقى فيها ببنات حيها وشبابه ولـكنها كانت تعود دائمـاً فى الوقت المناسب ، والوقت المناسب بالنسبة لها يمتد من اللحظة التى يخرج فيها أبوها من المنزل إلى الدقيقة التى تسبق عودته إليه ، ولم تكن أمها تحاسبها على التأخير فهى تعلم أن ابنتها لا عمل لها والأفضل أن تضيع وقتها فى السوق ليراها الناس فقد يكون لها نصيب فى واحد من أبناء حيها . . ولـكن نصيبها لم يكن فى الحارة ولا الشارع ولا الحى كله ، وإنما كان فى البلد التى جاء أبوها منها فقد طلبها ابن عمها (هلال) البقال الذى قدم إلى المدينة ليفتح دكاناً بديلا لدكانه الصغير فى القرية طمعاً فى رزق أوسع وهو لا يريد من الدنيا إلا زينب ولقمة بعرق جبينه ووافق أبوها قبل أن يخبرها بشىء عن ابن عمها الذى قدم للزيارة ورؤية بنت عمه التى لم يرها منذ الطفولة . وجلس بينهم حتى موعد الغداء ثم نام فى بيتهم الضيق مع عمه بينما نامت الأم مع ابنتها فى الغرفة الأخرى ولم تشعر زينب بميل نحو الفتى هلال بل إنها قالت لأمها أن دمه ثقيل وانها لا تعرف لماذا يجلس بينهم كل هذه المدة وإذا كان ينوى الاستقرار فى مصر فلماذا لا يبحث لنفسه عن مسكن آخر ، لـكن الأم التى رأت من الضرورى أن تخبر ابنتها برغبة ابن عمها فى الزواج منها راحت تدافع عن العريس وتقول لبنتها أن البنات دائماً يستثقلن ظل عرسانهن فى البداية ، ولـكنهن بعد ذلك يقعن فى حبهن بعد الزواج ، وبدأت زينب تعارض وتقول أن هذا لا يمـكن أن يكون فهى لا تحبه ولا تستخف دمه كما أنه ولد (قفل) ولا يفهم النـكت التى تقولها وانه ولد خجول لم يرفع عينه

فيها مرة واحدة مع أن أولاد الشارع يسلقونها بنظرتهم فى ذهابها وعودتها .

مع ذلك كانت الأم تدافع عنه وتقول لابنتها أن الذى تسميه (قفل) هو أكبر حظ للبنت عند الزواج فهو لا يعرف النساء ولذلك سيكون كالخاتم فى أصبعك أما أولاد الشارع دول فالواحد منهم لا يملك ثمن البنطلون الذى يرتديه وهم لا يعرفون من الدنيا إلا معاكسة البنات والنساء فقط ثم لا يغيب عنك أن هذا الولد هو ابن عمك وله حق الزواج منك . .

ومرة أخرى غضبت زينب وراحت تسب وتلعن صنف الرجال الذين يتحكمون فى البنات وانها لا تريده ولو جمع لها مال قارون (مبحبكش ياهلال) ومع ذلك كان الفتى يزداد تمسكا بها وإصراراً عليها ويقول لأمها انه يصبر لأن زينب مازالت صغيرة وعليه أن يتحملها . فترد عليه البنت قائلة :

— اسم الله عليك أنت الكبير

— معلش يا زينب أنا برضه ح أستحمل عشان خاطر عنيكى

— مالكش دعوة بعينى وخليك فى نفسك

لكن الأب الذى لا يؤمن بمعارضة بنت فى نصيبها (معنديش بنات تقول لأ) والمسألة عنده لا تزيد عن اقتران رجل بامرأة ، أى رجل لأى

إمرأة فالجميع يتساوون فى الفراش . هكذا علمته تجربته مع طالبات الأحجبة وصاحبات المشاكل الزوجية اللاتى يأتين إليه من كل المستويات فيهن المرأة البلدى (أم ملاية) وفيهن الستات الراقيات (لابسات الفساتين والتايورات) وفيهن الصبايا والعجائز والمشكلة أمام الجميع واحدة ولكن التعبير عنها مختلف . هكذا اقتنع الشيخ السويفى بمسألة الزواج وضرورة الإسراع به ، ومع أن البنت لم تكن موافقة وكثيراً ما غضبت وهددت إلا أنها لم تفعل شيئاً صغيرا عندما أحضر لها ابن عمها الدبلة والأسورة ، ولم تغضب عندما جاء المأذن وكتب الكتاب وخرجت زينب من بيتها بعد عدة أسابيع يتقدمها جهازها إلى بيت الزوجية . ومع أن ضجرها من ابن عمها ظل قائماً وشكواها إلى أمها لم تخف فإنها ظلت فى بيتها تحيا حياتها اليومية وتمارس الشكوى وسوء الحظ كأن هذا رف من ترف الحياة الزوجية لا بد منه .

الفصل الرابع عشر

كانت العلاقة بين إبراهيم وأبيه قد تردت إلى هاوية اللامبالاة . . بعد الوعود الكثيرة التى كان يقطعها الابن على نفسه سواء الخطابات أو أثناء وجود أمه معه ولم ينفذ منها شيئاً فبدأ الآب ينفض يده من ابنه مستعوضاً تعبه وشقاه على الله لدرجة أنه قال لزوجته تعليقاً على وصول أحد الخطابات من ابراهيم :

— ابراهيم مين ؟

— ابنك

— أنا معنديش ابن اسمه ابراهيم . . أنا باعتبره مات زى اللى ماتوا فى الكوليرا

— كفى الله الشر . . هو الضفر يطلع م اللحم . . قول ربنا يهديه . .

— قلنا كثير ومفيش فايدة . . العوض على الله

— ده بيقول انه جاى ع العيد . . وبيقول إنك وحشته قوى

— مه بيقول كويس . . لكن احنا يا أم محمد مش عاوزين كلام . . احنا عاوزين عمل وابنك كلامه حلو لكن معندوش فعل . . عليك العوض ومنك العوض يارب . . (وترك الآب البيت وخرج) .

الحقيقة أن الأب لم يكن متوتر الأعصاب بسبب الأخبار التى سمعها عن قرب وصول ابنه (العاق) كما يحب أن يلقبه (ابراهيم) إلى مصر ولـكن الخبر كان السبب المباشر لإظهار توتره فرغم أنه قد فقد الأمل فى وصول ما انقطع بينه وبين ابنه ، إلا أنه فى حقيقة شعوره كان يحبه حباً كبيراً لأنه كما كان يقول عنه « أنه ولد زكى » ومع ذلك لم يكن يحب أن يراه ولا يسمع شيئاً عن أخباره خوفاً على أولاده الباقين تحت رايته فهذا الولد خطير لأنه نموذج لو اقتدى به أحد لخربت الدنيا ! !

ولا يمكن تخيل عالم يفقد فيه الآباء سيطرتهم على أبنائهم وضياع جهدهم فى سبيل تربيتهم وحرمان أنفسهم من متع الحياة ، ثم يأتى الابن ويقول لك ببساطة كلمات جميلة عن الحب والحنان والوفاء ثم يسكت . الحياة لا تحركها الكلمات . . . وأفواه أبنائه لا يطعمها الحب . . هو فى حاجة للمال ولهذا كان ينتظر . . ولهذا فترت مشاعره نحو ابنه البعيد . وهو لم يكن طماعاً . . كان يرضيه القليل لو أنه فعل .

لم يكن الأب متوتر الأعصاب بسبب الأخبار التى سمعها عن قرب وصول ابنه ، ولـكنه كان متوتر الأعصاب لأن العيد كان يقرع الأبواب ، والعيد ليس دائماً عيداً . إنه عيد لمن عنده المال لإسعاد نفسه أما والحال كما هو عليه والأفواه التى تتطلع إليه كثيرة فالعيد لن يكون سعيداً على الإطلاق ، ومع أن الرجل كان يمكنه أن يجنب نفسه كثير من المتاعب فعنده أكثر من يد تعمل وتكسب . . محمد أبنه المكافح الذى يعمل ويدرس . والبنتان اللتان تمضيان الليل متناوبتين العمل أمام ماكينة

التطريز . كان يمكن أن تكون هذه القوى دعماً لحالته المادية ومدداً ، ولكنه بأنفة وعزة نفس رفض أن يأخذ من البنتين مالها واحداً ، فالدخل الذى تحصلان عليه فى نهاية الأسبوع ليس لى . . أنه جهد كما ويجب أن يبقى لكما (البنات مصروفها كبير والمستقبل عاوز فلوس كثيرة ...ولازم البنات تستعد . . ولما ربنا يسمدهم بابن الحلال يبقى عليهم تجهيز نفسهم بنفسهم . . هكذا حدد الأب بوضوح موقفه من بناته فرفع عن كاهله عبئاً واحتمل العبء الآخر .

أما محمد فرغم أنه كان مثالياً فى حبه لأبيه وأمه وأخوته ، فهو والد عاقل وعطوف وخير ، إلا أن والده رفض كذلك أن يحمله يعمل ليأخذ منه عرقة واكتفى بقدر ضئيل من ابنه يقول عنه أنه (رمز) لطاعة الابن لأبيه ، ولذلك تمكن محمد من الظهور بين زملائه بمظهر حسن بعد أن أصبح واحداً من موظفى الدولة ، يرتدى فى الصيف البدلة (الفزايسكا) وفى الشتاء البدلة الصوف الإنجليزى والقفازات ، بل إنه أستطاع أن يشترى موتوسيكل جديد بدلا من القديم الذى أشتراه من وكالة البلح عوضاً عن العجلة التى كانت تذكره بأيام العفريتة الزرقاء .

لم يكن الأب غاضباً على ابراهيم لأنه منع عنه (الواجب المقدس) بقدر ما كان غاضباً منه لأنه أظهر فى أول فرصة للخروج من تحت جناحه قدراً لايستهان به من العقوق ، أو (التمردة) كما كان يسميها ولذلك غضب عندما علم بوصول ابنه لأنه وجد نفسه يواجه حقيقة سيئة جعلته يفكر فى

الحلم الذى نسجه لابنائه وللواقع الذى يواجهه بها أحدهم اليوم لذلك غضب وثار وذكر الجميع بموقفه من كل ابن متمرد كابراهيم . . ثم خرج .

* * *

كان ابراهيم يعلم أن أباه غير راض عنه وكان يعد نفسه لمقابلة عاصفة.. ولكنه كان مصراً على الزيارة بعد الغيبة الطويلة عن البيت الذى خرج منه وهو فتى ويعود إليه اليوم بعد أن نضج . غيبة طويلة لم يكن لها سبب سوى أن الزمن قد فر من بين يديه دون أن يشعر ، فقد جاءت أعياد قبل هذا العيد ولم يأتى إلى مصر . . سافر كثيراً وتنزه بعيداً . . بل أنه ذهب فى إحدى الاجازات إلى الاسكندرية وجلس بالمايوه على شاطىء البحر وبجواره (فتحية) وقال لأهل البلد أنه ذاهب إلى مصر عند أبيه لأمر هام . كانت أول كذبة . . ولم تكن الأخيرة . وفى مرة أخرى ذهب إلى (طنطا) وحضر المولد ومعه (فتحية) أيضاً وقال لأهل البلد إنه يفى نذراً عليه وصدقوه لأنهم كانوا يحبوه ، ولا يتصور أحد أن ابراهيم أفندى الذى يملأ مجلسه فصاحة ولباقة وثقافة يمكن أن ينظر إلى البنت فتحية أكثر من نظرة السيد للخادم فتركوها تدخل بيته وتخدمه ثم تركوها لتسافر معه . ولكن البنت كانت تحب الرجل والرجل كان بحاجة للبنت .

(باحبك قوى ياسى ابراهيم .. باحبك عشان أدبك وكمالك وحنيتك) (دا أنت بتقعد مع أتخن رأس فى البلد وتو ما تتكلم .. الناس كلها تسكت .. وانت بتعمل لهم ايه .. بتسحر ؟) . (ده أنت لودبحتنى حتلاقى

حمى بيكتب أسمك بيجى ميت مرة . . ألف مرة ياسيد الرجالة كلها) .

لـكن ابراهيم لم يكن يقول لها كلمة . كان دائماً يأمر (يا فتحية خدى بالك م الغسيل .. الباقية مش نضيفة) (فتحية .. أبقى أملى المياه بدرى قبل الترعة ما تتعكر) (يا فتحية الاكل شايط) .

كانت فتحية تحب أوامره .. أنها أوامر أفندية .. (مفيهاش اهانة .. كلامك زى السكر ياسى ابراهيم) (على عينى ياحبة عينى) .

هكذا فر الزمن من بين يديه أو هكذا يفر منه فهو فى (لقانة) مستمتع بمكانة رفيعة بين أهلها وكذلك عند فتحية فلماذا يأتى إلى مصر ويدخل فى القفص ولو بضعة أيام ويعيش تحت عينى أبيه لا يستطيع أن يتنحنح إلا بإذن ؟

كان يعلم أن أباه غير راض عنه ولـكنه كان مصرا على الزيارة فقد نقل من (لقانة) الى (سمالوط) بترقية وليس من المعقول وهو يحمل تذكرة سفر بالدرجة الثانية واستمارة حكومية وعفش أن يذهب من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى دون أن يمر على مصر فهى (عيبة) . ماذا يقول لأبيه عندما يعلم بأمر نقله .. (القطر معداش على مصر ، راح من بحرى لقبلى من بره بره من غير ما يعدى على مصر .. مش معقول ..)

هكذا وجد من الضرورى أن يقوم بزيارة لبيته ويجلس بين أبيه وأمه وأخوته ويمضى أيام العيد ثم يسافر إلى الصعيد ، ولـكنه كان مصرا على الزيارة لأسباب أخرى فهو يريد لن يكمل نصف دينه ، ثم أنه وبعد أن أسعده حظه بترقية اختيارية لم تكن تخطر على باله ولو فى الأحلام

أحس بأنه لابد أن يستكمل هيئته الإجتماعية بفتاة مناسبة ، وفتحية وان كانت تحبك حبا حقيقياً والبنت مخلصة لك فى حبها إلا أنها (مش قد المقام) هى نفسها كانت تعرف أنهـــا مش قد المقام لـكنها أحبت فنست نفسها وعاشت أياما سعيدة ، ومع أن الحب لا يخفى مهما حاول المحب أن يخفى مشاعره فقد استطاعت فتحية أن تخفى حبها عن كل البنات فى القرية وكتمت سرها فى قلبها . كانت تذهب إلى البيوت التى اعتادت أن تذهب إليها للعمل وكانت تنهى عملها بنفس القدرة ، ثم تعود إلى (دار)ابراهيم وتبقى معه فترة ثم تعود إلى بيتها . وكثيراً ما كانت تذهب إليه فى غير المواعيد المتفق عليهـــا لتراه قبل أن تعود إلى دارها . وهـــذا هو كل ما استطاعت أن تحصل عليه منه ، وهذا هو كل ما كانت تريده . عذاب لذيذ كان لابد أن ينتهى وحان له أن ينتهى :

— سى ابراهيم .. حقيقى الـكلام اللى سمعته فى دار الخالة بهية ؟

— كلام إيه يا فتحية ؟

— إنك خدت الترقية وحتسافر

— الترقية صحيح ، وح أجليلك بقك .. لـكن السفر مش أكيد .

— ياريت ياسى ابراهيم .. ده انت لو مشيت من هنا أموت .. ده أنا مش حاسة بالدنيا الا عشانك جنبى .. تسافر وتسيبنى هنا لمين ؟

— ربنا موجود يا فتحية

— يعنى حتسافر ..

— مش أكيد .. مدير المكتب بيعمل إتصالات عشان أقعد هنا ..

— ياريت ياسى ابراهيم

— لكن انتى مسألتنيش ح أحليلك بقك بايه ؟

— بقعادك هنا .. مش عاوزه غير قعادك هنا .. ياتاخذنى معاك فى أى حته

— متخافيش يا فتحية .. إنشاء الله ح أقعد بس ادعيلى

— يارب ياسى ابراهيم تقعد عندنا ومتسافرش أبدا

لكنه كان على سفر ، ولم يستطع أن يخفى النبأ عن فتحية فقد عرفته من اهل البلد كلها وجاءت إليه وجلست معه من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العشاء ولم تقل شيئاً .. كانت حزينة حزنا لم تعرفه من قبل .. بل انها لم تحزن مثله يوم مات ابوها .. ويوم طلقت من زوجها .

كانت حزينة لأنها على وشك أن تفقد الإنسان الذى أحبته وكتمت حبه فى قلبها وأخفته عن كل الناس . هاهو على وشك الرحيل وربما لن تراه مرة ثانية .. لهذا جلست فى داره ولم تهتم بأحد بل لم يعد يهمها أحد فى هذه القرية فالذى يحدث اليوم أمر غير عادى وليس من السهل أن يتكرر ، بل من المستحيل أن يتكرر .

(مش ممكن أعوض سى ابراهيم تانى ، مش معقول ألاقى واحد

محترم زى سى ابراهيم وعاقل وله هيبة عند كل الناس ، ويخلينى أحبه . . ويقول لى يافتحية من غير « بت » ومن غير شخط وقلة قيمة .
(هو ده كان حلم ولا علم يا اخواتى) .

كان الموقف صعباً لدرجة أن ابراهيم نفسه لم يستطع أن يتحكم فيه فترك فتيحة ، مكانها وراح يعد أمتعته بنفسه . . حقيبة سفر جلد تليق بموظف درجة ثامنة والأسبتة التقليدية المحملة بالمرحرح والجبن والفراخ والمشلتت هدية الحاجة بهية لأم سى ابراهيم أفندى ، والباجور والمرتبة والسرير . . الأشياء التى ستسافر فى عربة العفش . . كلها أشياء تحتاج إلى إعداد وفتحية تحولت إلى تمثال من اللحم تنظر ، ولا تتكلم ، ولا تستطيع أن تصدق أن ابراهيم الذى أودعته كل عواطفها يتركها ويسافر .

— غصب عنى يافتحية

— . . .

— فراقك صعب على لكن ما باليد حيلة

— خذنى معاك يا سى ابراهيم . . متسبنيش لوحدى ده أنا باحبك قوى ويمين النبى

هكذا نطقت لآخر مرة بعد صمت أمتد طول النهار حتى غربت الشمس وبدأ الليل يزحف بهدوء وثقة .

— ربنا اللى يعلم يافتحية .. لكن آخدك ازاى ؟ ده أنت لا أمى ولا أختى ولا مراتى .

أقول ايه لأهل البلد .. ده أنا رايح الصعيد .. عارفه يعنى ايه صعيد ؟

ـــ يعنى خلاص ؟

ـــ ضرورى ربنا حيعدلها يافتحية . . ده ارادة ربنا .. نتقابل ونتفرق واللى فى القلب فى القلب . .

ـــ صحيح ياسى ابراهيم ؟

ـــ أمال أنتى فاكرة ايه يافتحية . . هو فيه حد له سلطان على قلبه ؟

ـــ صدقت ياسى ابراهيم . . كلامك حلو . . ويصبر ع المر . .

ـــ الدنيا لا فيها حلو على على طول . . ولا مر على طول يافتحية . . الدنيا دنيا . .

هزت البنت رأسها ونهضت تلملم نفسها وحملت البلاص وخرجت ، وبعد فترة عادت وسكبت الماء فى الزير ثم ذهبت وعادت ولم يكن ابراهيم فى الدار . ذهب إلى منزل مدير المكتب ليودعه ويتلقى نصائح الرجل المجرب قبل أن يسافر ويسمع لأول مرة اعتراف الرجل بكفاءته فى العمل وحرصه على أن يبقى معه وعجزه عن تحقيق رغبته لأن الأوامر أوامر لابد من تنفيذها .. وخرج من بيت المدير إلى بيوت القرية وطاف مودعا شاكراً الأيام الجميلة التى عاشها بين أهله فى (لقانة) . . ثم عاد إلى بيته . كانت فتحية بانتظاره . كانت ملهوفة عليه :

ـــ تأخرت ياسى ابراهيم

— كنت باودع أهل البلد يا فتحية

— يعزوا عليك ياسى ابراهيم ؟

— أمال يافتحية . . دى عشرة . .

— والنبى أصيل ابن أصل صحيح . .

— كتر خيرك يافتحية . .

وحمل حقائبه إلى محطة القطار . . وحملت فتحية الاسبتة وركبت فوق عربة البريد رغم إصرار إبراهيم على منعها من الذهاب إلى محطة القطار لأن الموقف سيكون صعباً عليها . وذهب الحاج متولى والحاج رضوان والشيخ عبدالراضى لوداعه .. لم يكن ابراهيم موظفاً ولكنه كان محبوباً . وبكت فتحية . . كان الجميع يبكون لكن بكاء فتحية كان شيئاً آخر لا يعرفه أحد سره . . ولن يعرف سره أحد .

* * *

كان الاستقبال حاراً فى البيت فلم يكن الأب موجوداً وكانت الأم رغم كل شىء مشتاقة لابنها وكان الأخوة مشتاقون لأخيهم وكان الأخ مشتاقاً لاخوته . بل أن أهل الحارة جميعاً جاءوا للسلام على العائد حتى البنت (باتعة) التى أصبحت من بنات البيوت بعد أن منعها أبوها من اللعب فى الحارة واستمرأت الجلوس فى البيت وأصبحت مائلة إلى الاستدارة بعد أن كانت نحيلة من كثر اللعب . . جاءت لتسلم عليه مع أبيها الذى وقف عند الباب وأخذ العائد بين أحضانه واعتذر عن الدخول ثم ذهب

بعد أن ترك (ابنته) تجلس مع البنات . وجاء الشيخ السويفى وزوجته وابنته وزوجها هلال وجلسوا جميعاً فى الفسحة فلم يعد بالبيت مكان يتسع لكل الناس إلا الفسحة ، بل أن على أفندى وزوجته حضرا كذلك للسلام عليه رغم أن الرجل منذ حادث ابنته ومرضه ظهرت عليه أعراض الشيخوخة فجأة فلم يعد قادرا على الحركة بقوته القديمة فأصبح بطىء الحركة بعض الشىء يحتاج إلى عصا يستند عليها بدل (المنشة) التى كانت تلازمه فى أيام الصحة والشباب والعياقة .

فى هذا الجو حضر أبوه . لم يكن الظرف مناسبا ليفصح الآب عن حقيقة شعوره نحو إبنه فهو لا يحب أن يصغر نفسه أمام الناس ،كما لايحب أن يهين ابنه فهم برغم العشرة والجيرة أغراب .

وذاب الابن فى أحضان أبيه فاستسلم الرجل لمشاعر الابوه ودمعت عيناه دمعة شاء الا يراها أحد من الحضور فدخل احدى الغرف بلحثاعن مقعد لنفسه ومسح دمعة عينه وعاد . وراحت البنتان تديران أكواب الشاى وفناجين القهوة واشتركت (باتمة) معهما ولكل منهن عمل . واحدة تقف أمام الباجور والثانية تغسل الأكواب والثالثة تقدمها للضيوف ولم يخف الآب سعادته عندما بارك على أفندى لابراهيم الترقية الاختيارية وقال أنه ينتظر لهمستقبلا زاهرا فى العمل الحكومى خصوصاً أنه هو نفسه الذى يعتقد أنه من أكفأ موظفى الدولة لم ينل الترقية مرة واحـــدة بالاختيار لأن الذئاب كثيرة فى مصر والوساطات لها ألف حساب وما

دامت بعيـــدا عن مصر فلا شك أنك ستحظى بخير عظيم يا ابراهيم أفندى .

أسعدت كلمات على أفندى الأب والابن معا وانست الأب ، ولو مؤقتا ، غضبه من ابنه فهو لم يشك يوما فى ذكاء ابنه .. ولـكن .. لو كان ينصلح أمره كغيره من الأبناء .. لـكن ما الحيلة « الحلو ما يكملش » .

وبعد أن انتهت الزيارات كان لابد أن يحدث ما كان منتظرا .. أصبح الابن وحده أمام أبيه .. وبدأت دقات قلبه تسرع فى الدق .. أنه لا يخشى غضبه ولـكنه يخشى أن يتمادى فيضيع عليه متعة اللقاء وسعادته . لـكن الأب لم يتكلم بل طلب من زوجته أن تمد العشاء . إذن فقد أجل الوالد لحظة الغضب فهل هو الحب أو الحنان أو اللامبالاه ..

بدأ الابن يتنحنح محاولا فتح طريق لحديث آخر مع أبيه لـكن الأم كانت أسرع لأن الطعام فى الحقيقة كان معدا وهو طعام ريفى من ريحه (لقانة) . وجلس الأب وجلست الأم وجلس ابراهيم ومحمد والاخوة والبنات كل واحد يأخذ كتفا حول (الطبلية) المتلئة من خيرات الزيارة . وبعد أن انتهى الطعام دخل ابراهيم إلى الحمام ليدخن سيجارة بعيدا عن عين والده ثم عاد .

لم يعجب الأم هذا البرود الغريب بين الابن وأبيه فراحت تفتح مجالا جديدا للحديث بسؤالها عن الحاجة بهية والحاجة خضرة والبنت فتحية ، وراح ابراهيم يقرئها أمام الجميع واشتياقهم لها وحزنهم على فراقه ، بل أنه

نسي نفسه وقال ان البنت فتحية ودعته بدموع عينيها . . وكانت المنطلقة لأبيه فقال مقرعا :

— لهم حق . كنت بارا بهم أكثر من برك بأهلك

— أبداً والله يا ابا .. دى ظروف خارجة عن إرادتى

— كان الله فى العون يا أفندى . . والظروف دى متخرجش عن إرادتك إلا معانا ... وقعدات الفلاحين .. وشرب السجاير كانت برضه خارجة عن إرادتك ..

— والله ياابا غصب عنى .. لو مكنش سايرت مكنش نجحت فى وسطهم .. مكانش حد حبنى .. ويمكن مكنتش خدت الدرجة .

— ياسلام يا سيدى ليه .. هو سعادتك بتشتغل عند الناس والا عند الحكومة .

مه يا ابا ده بينفد على ده .. تعرف إزاى أنا خدت الدرجة .. دى حاجة عجيبة

— أنا ميهمنيش الدرجة .. أنا يهمنى الأخلاق يا أفندى

— أخلاقى مش ممكن تتغير يا ابا .. انا ابنك وتربيتك

— عشان كده بانت النتائج العظيمة

— ح أقول لحضرتك حاجة وأنا عارف أنى مقصر فى حقك وحق

اخواتى كلهم لكن من دلوقتى يا ابا أعاهدك قدام أمى أن أعوض كل اللى فات ..

ونهض من مجلسه وفتح الحقيبة وأخرج ظرفاً قدمه لأبيه قائلا :

— ده مبلغ بسيط أنا بيعبر عن نيتى الصادقة باذن الله .. عشرة جنيه منهم الخمسة بتاعة الحمار وانشاء الله دايما افتكرك . . هو انا ربنا يبعت لى خير من غير رضاكوا عنى أعطى الرجل الظرف بما فيه لزوجته قائلا :

— خدى ياست من ابراهيم .. الظاهر ربنا حيهديه ويمشى كويس

فقالت الأم :

— أمال يا أخويا .. هو احنا عندنا أولاد وحشين .. ربنا يسعدك يا ابنى ..

ثم عاد الأب إلى ابنه وقال برضا وراحة نفس :

— يا ابنى انا مش عاوز أحملك أكثر من طاقتك .. انا بس عاوز أطمئن انك زى ما انت .. ما تغيرتش .. عاوز أحس انك بتراعى التربيه عشان ربنا يكرمك .

— انا دايما ح أكون تحت تصرفك وانشاء الله أكون الابن البار دايما

— ربنا يهديك ويوفقك .. لكن مقولتليش إيه حكاية الترقية ده ؟

— والله يا ابا ما كانت منتظرة أبداً .. لكن الحمد لله .. ربنا يخلى سعادة المدير ويبارك فيه .. جه مرة فى زيارة المكتب فى (لقانة) لكن الناس قابلته مقابلة وحشة قوى أصل والده كان عضو فى البرلمان عن البلد ومعملش حاجة للناس .. فضلوا يشربوا م الترعة برضه .. واما والده مات شاف ان كرسى البرلمان مش لازم يضيع فحاول يزور البلد ويجدد أيام والده ، لكن الناس مسألتش فيه ، ولما عمل اجتماع فى بيت العمدة محدش حضره ووقف الشيخ عبد الراضى للناس زى الاسدوهات ياوعظ فى الجامع .. كل البلد قاطعت (نبيه بيه المدير) وما انقذش الموقف غيرى

لوى الأب حاجبه مندهشا وقال :

— ازاى ؟

— ررت الشيخ عبد الراضى فشرح لى قصة البلد من أيام والده والانتخابات والوعود اللى سمعوها ومحدش كان بينفذ كلمة م اللى بيقولها (ده احنا حتى مبنشوفهمش بعد ما ينجحوا يا ابراهيم أفندى . . يعنى بيعملونا سلم وبعد ما يطلعوا عليه يرموه) . لكن انا اتكلمت مع الشيخ عبد الراضى وفهمته أن (نبيه بيه) غير والده وسعادته عاوز يخدم فعلا وبعد كلام كتير أقنعته فقبل أنه يتعاون معانا .

— معانا ؟ تقصد نبيه بيه ومين ؟

— وانا .. ده نبيه بيه هو اللى طلب منى انى أغير صورته عند الناس

— تغيرها ازاى ؟

— بالكلام عنه .. دعاية يعنى

— وايش عرفك بيه .. منين تعرف إذا كان كويس أو وحش .. مش يمكن تكون بتضحك على الناس اللى وثقوا فيك ؟

— لا يا ابا .. نبيه بيه راجل كفء فعلا .. ده أكفأ شخصية فى المديرية ..

— أيوه ده شغل .. لكن الانتخابات حاجة تانية

— مه يا ابا اللى ينجح هنا ينجح هنا ..

— هيه .. وبعدين .. نجح فى الانتخابات ؟

— للأسف منجحش .. اللى خد الكرسى (المدبولى بيه) نفوذه كان أكبر .. اشترى النيابة وخدها بالتزكية .. ومش بس كده .. ده أصر على نقل (نبيه بيه) من المديرية كلها واضطرت الوزارة أنها توافق فنقلته للصعيد بترقية وقبل ما ينفذ طلب لى الدرجة .

— وخدت الدرجة واتنقلت للصعيد

— المهم الدرجة ياأبا

— يعنى بعت نفسك يا ابراهيم (لنبيه بيه) ده

— ده تعاون يا ابا

— لا يا ابنى .. التعاون ميكونش بين مدير وموظف صغير .. التعاون لازم يكون بين اتنين على قد بعض .. ده طريق مش كويس ..

مش شريف .. بتوع الإنتخابات دول أكبر دجالين .

— ده تشاؤم يا ابا .. الدنيا فيها الـكويس والوحش

لما تكون بتعرف اللى بتشتغل معاه .. ناس وقالوا لك ان ولده كان مرشح ومشافوش وشه .. تقوم تضحك عليهم وتخليهم ينتخبوا ابنه ؟

— يعنى هم انتخبوه .. ده مسكين مالحقش

— لـكن كان ممكن ينجح زى غيره ما نجح والناس تكشفه وتلاقى كل اللى بيحبوك بقوا أعداءك لأنهم حيعرفوا أنك تابع .. ودلدول .. أوعى يا ابراهيم تكون تابع .. خليك صغير معاش لـكن أوعى تكون فى يوم من الأيام تابع لأى حد

هز ابراهيم رأسه وقال :

— فعلا .. عندك حق يا ابا ..

كان ابراهيم يريد أن يغير مجرى الحديث ليـــدخل فى الموضـــوع الأهم فقال :

— لـكن أنا شايف أن حياة الصعيد حتكون صعبة شوية يا ابا

— خللى ثقتك فى الله كبيرة وهو يفرج عنك كل الشدايد

— ونعم بالله .. بس انا بافكر .. لو حضرتك سمحت لى انى أكمل نص دينى

ـــ وماله يا ابنى . . نعم العزم . . الجواز عصمة . . لكن الجواز مش لعبة .. عندك فلوس عشان المهر والشبكة

ـــ والله يا ابا معنديش كثير لكن بافكر أدخل (جمعية) واقبض قرشين ينفعوا

ـــ تفكير جميل .. ومين العروسة اللى تحب تخطبها لك ؟

ـــ والله انا شايف أن على أفندى راجل محترم . فلو أمكن أتقدم لبنته (سميحة) يكون كويس . . بيقولوا عنها متكبرة شوية . لكن أظن أنى شخص مناسب لها . انا دلوقتى بينى وبين أبوها درجتين بس ..

قالت الام بعد أن سكت الابن مندهشا :

ـــ سميحةأجوزت يا ابراهيم .. وأجوزت جوازه عرة ..واتسببت فى مرض على أفندى

ـــ اراى .. امتى ؟

ـــ المهم انها اجوزت وخلاص

نظر الاب إلى ابنه يستقرىء وقع الخبر على وجهه ويرى إذا كان قد تأثر بما سمع .. لكنه وجد ابنه جامدا لا يبين على صفحة وجهه شىء فقال له :

ـــ الأحسن تفكر فى بنت من توبنا ..

ـــ والله يا ابا انا م اعرفش حد ..انا قلت سميحة عشان كانت ساكنة

قدامنا .. هي البنت اللى سمعت عنها .. حلوة ومؤدبه .. فيه ايه تانى الواحد يطلبه فى الست غير كده ..

— مادام كده وبس يبقى بنات الناس كتير واللى يدور يلاقى .. انت مستعجل ؟

— لا .. مش مستعجل ولا حاجة .. اما نشوف على سهلنا ..

— ده عين العقل يا ابنى

فى الصباح عرف ابراهيم قصة سميحة .. من طقطق لسلام عليكو .. سمعها أكثر من مرة من أمه ومن أخته .. ومن محمد ولكنه لم يستطع أن يقنع نفسه أن سميحة مخطئة بل أنه عندما ناقش أخاه محمد فى قصتها اكتشف أن اخاه لم يكون رأياً واضحا .. أنه يحكى القصة ويعيشها لكنه لم يفكر فى وضع لبنت تريد ان تتزوج .. واندهش محمد من اجابة ابراهيم على سؤاله :

— هل تقبل أن تفعل أختك كما فعلت سميحة ؟

فقال ابراهيم :

— وهل تقبل أن تفعل فى أختك ما فعل على أفندى بسميحة ..

اندهش محمد لانه لم يعرف ماذا يقول فهو لا يحب أن يفعل باخته ما فعله على أفندى بسميحة .. ترى .. هل أبوها هو السبب .. هل هو المخطىء ؟

ولكن إبراهيم بدأ يرتب أمره للسفر بعد أجازة العيد مباشرة . لم يعد يعنيه شيء فى الحارة بعد الآن . . كان كل ما يربطه بالحارة هو البيت ورغبة فى الزواج . . . . والبيت كما هو اما البنت فقد اختارت حياتها . . وهذا يدل على أن الدنيا برغم كل شيء تتغير . . فلأبحث لنفسى عن موطن اقدام جديدة . .

الفصل الخامس عشر

أحدثت زيارة ابراهيم تأثيراً متبايناً فى نفوس أفراد العائلة والجيران والاصدقاء ، ورغم أنه ظهر فى مظهر الشاب الذى يضع خطواته على الطريق السليم خصوصاً بعد تقريظ على أفندى لكفاءته وتوقعه مستقبلا زاهراً له ، إلا أنه فى الحقيقة كان يقابل كذلك برفض صريح أو مقنع فسلوك ابراهيم لم يعجب (حسن) وكذا لم يعجب (أباه) لكن الأب كان يحاول أن يصلب مما يراه معوجاً فى ابنه باللين . أما حسن فهو وان بدا بمظهر (الجنتلمان) فى مناقشته وابداء رأيه لصديقه محمد فى أمر أخيه فإنه أعلن فى صراحة لا تقبل أقل درجة من الشك أن ابراهيم انسان (نفعى) وان الطريق الذى سلكه لا يمشى فيه أى إنسان وطنى واعى لأنه طريق لافائدة منه للبلد وأهلها بل أنه اندفع فى التعبيرعن رأيه بأن الذى يفعل ما فعل ابراهيم مع (نبيه بيه) لا يزيد عن كونه خادماً لفئة يجب أن يتخلص المجتمع منها إذا كنا نريد أن نعيش أحراراً فى بلدنا .

ومع أن رأى حسن كان يمثل قلة قليله من أهل الحارة بل أنه لم يكن يمثل فى الواقع إلا (حسن) نفسه ، وإلى حد ما (يقترب) من رأى الأب محمدا حائراً بين الاعجاب بأخيه العملي والإعجاب بصديقه المثالى وقد كان هناك أكثر من معارض لحسن لدرجة أنه آثر الصمت حفاظاً على

الصداقة التى تربط بمحمد والتى يضعها فوق أى اعتبار ولعل حضور الجيران لتوديع ابراهيم ليلة سفره وحرصهم على إطالة الجلوس معه إلى مابعد منتصف الليل ومن هؤلاء (على أفندى نفسه) وعم حسن العربجى الذى تجرأ وجلس مع الناس بلا حرج وبتشجيع من الجميع وحضور كل الأخوة والبنات يعد أكبر دليل على اعجاب أهل الحارة بالشاب الناجح إبراهيم . .

بل أن كل زملاء حسن ومحمد فى إدارة شئون الموظفين بالبلدة قد تناقلت قصة نجاح ابراهيم باعجاب يشوبه أحياناً الإحساس بالغيرة والمرارة حتى أن رئيس القلم وهو من الحاصلين على (البكالوريا) القديمة قال لحسن :

— يا ابنى بلاش خيال . . أنا أول ترقيه خدتها من الحكومة كانت بعد ست سنين من تعيينى . . حتعمل أنت بتاع مبادى

مع ذلك ظل حسن مصراً على رأيه الذى كان يلخصه بكلمات شديدة الوضوح والبساطة

— ياجماعة المسألة مش كلام وبس . . ولا مبادىء ولا خيال . . المسألة ان احنا أما إننا نكون ناس عاوزين نعيش ونخلى الناس كلها تعيش زينا أو نكون أنانيين ونقبل أننا نضحك عليهم

فرد مأمون أفندى رئيس القلم بشىء من السخرية :

— وحد قال لك ياحسن أفندى إننا عاوزين الناس تموت ؟

— الكلا دة معناة كده

— كلام إيه يا حسن يا ابنى . . أنت أصلك مندفع . . لسه صغير . . متعرفش الدنيا ماشيه إزاى

— لأ يا مأمون بيه . . أنا عارف الدنيا ماشيه ازاى . . عارف انك مخدتش الدرجة إلا بعد ست سنين وعارف ان ابراهيم خد الدرجة بالاختيار . . وأنا لا أطعن فى كفاءة ابراهيم لكن باقول إن الطريقة اللى خد بيها الدرجة مش صح

— وايه الصح فى نظرك ؟

— إن كل واحد ياخد حقه . . محدش يتظلم . .

— ده مستحيل . . العدل المطلق مستحيل

— ليه يابيه . . ليه تقول على كل الضرورات مستحيلة . . دى هى الروح اللى الاستعمار عاوز ينسيها فينا . . اللى زرعها فعلا . . ليه أحنا منبدأش بأنفسنا . . ليه منطالبش العدل ؟

— يا ابنى مش ممكن . . مش ممكن

— ليه . . أنا عاوز أفهم والله . . مش باعارض لمجرد الرغبه فى المعارضة . .

— أقولك ياحسن . . لما أنا ابقى عاوز احكم بالعدل العدل . . يعنى بالعدل المطلق بتاع سيادتك يبقى لازم تخلى ميزانية الدولة قد كده مرتين تلاتة أربعة . . عشان لما أطلب درجة لموظف ألاقى له درجة فاضية . .

إنما لما تطلب عشر درجات وتجيء لك درجة واحدة . . تديها لمين ؟

— للأحق

— ومين الأحق ده ؟

— اللى تقديره أعلى

— وتعرفه ازاى ياحسن . . إذا كنتوا كلكوا كويسين وأنا ح أوصى بالدرجة لواحد بس الباقيين حيزعلوا . .

— اللى يزعل يزعل مادام القرار عادل

— جميل . . ولما يكون سيادة الوكيل له واحد يحب يرفعه مين يقدر يقول له لأ . . ولما المدير يكون عاوز واحد يترقى مين يقدر يعارضه ؟

— القانون

— ومين اللى ينفذ القانون ؟ مش هم . . واحنا . . يا ابنى دى حكاية طويلة قوى . . . سلسلة معقدة محدش يقدر يغيرها . . باتقبلها وتخش قلبها . . يا اما حتفضل على طول بره . . واللى بره محدش بيحس بيه . .

— يبقى لازم ده كله يتغير . . النظام كله ونعمل نظام جديد

— يا نهار أسود . . مش باقولك إنك مش عايش معانا . . أنت يا ابنى أحسن لك تشوف بلد تانية تعيش فيها . . والا كوكب تانى . . الكرة الأرضية كلها متنفعكش . .

— ياسعادة البيه .. مع احترامى .. أحب أقول ان الكلام ده كله يأس . .

احنا مبنطلبش المستحيل . . احنا عاوزين نعيش كويس . . زى الانجليز نفسم ما هم عايشين . . حياتهم أحسن مننا بكثير . . أخلاقهم مع بعض أحسن .. هم أحسن مننا ليه ؟ عشان بيحترموا بعض ده اللى ناقصنا ..

— لأ مش ده اللى ناقصنا . . اللى ناقصنا اننا نعيش فى ظروفهم واحنا نبقى زيهم .. لكن ده مستحيل .. أنت ناسى احنا ايه .. ده احنا يابنى إلى الآن دولة مستعمرة ... الإنجليز اللى حضرتك بتتكلم عنهم دول يبقوا أسيادنا وسواء عجبك أوماعجبكش أهه دى الحقيقة .. هى الدنيا كلام ؟ مه الناس كلها بتعرف تتكلم لكن المهم الفعل .

— أنا مع سيادتكم .. ليه منشتغلش احنا كمان .

— عشان احنا على قدنا .. هم عندهم امبراطوريه .. ما كنة كبيرة مليانة تروس بتحلب لهم وهم بيا كلوا ويشربوا . بلدنا دى نفسها ترس صغير فى الأمبراطوريه لو عصلج يزيتوه أو يبردوه أو يشيلوه خالص ويحطوا ترس مكانه .. عشان هم عندهم عدل ... الأول ياحسن خلى الناس تشبع .. وبعدين اتكلم تلاقى الناس بتسمعك .. أنا كلام والبطون فاضية .. محدش حيسمع . دى الحقيقة .

سكت حسن وراح يفكر بعمق فيا قال (مأمون بيه) . هذا الرجل على حق فى بعض ماقاله .. انه يفهم كل شىء .. يعرف الأسباب والمشكلات من جذورها . . ومع ذلك فهو صامت لايتحرك إلا إذا حدث شىء غير عادى كالذى حدث اليوم .. ترى .. أهو معجب بابراهيم هو الآخر

أو ساخط عليه أو حاقد أو غيران منه .. وبعد أن جذب نفساً عميقاً من سيجارته راح يتساءل بصدق محاولا البحث عن جواب لسؤاله :

— والحل ياسعادة البيه ؟

رفع الرجل عينيه من تحت نظارته السميكه .. كان يحاول أن يختبر حسن ويعرف مدى جديته فى تساؤله .. ولما أيقن أنه يعانى بصدق بحثاً عن طريق قال له .. بهدوء ودون أن يركز عينيه فى المسائل :

— دع الملك للمالك

— تبقى سلبية

— سميها زى مايعجبك .. لكن ده الحقيقة

— وانت يامحمد رأيك إيه ؟

— رأيى أننا ننجح عشان نأخد الثقافه وبعدين التوجيهية وبعدين الهندسة وكل مشاكلنا تنحل لوحدها . .

— والناس الباقية تعمل ايه ؟

— أنا مش مسئول عن حد .. كفاية قوى أبقى مسئول عن نفسى

— دى تبقى أنانية

— هو طلب العلم أنانية ؟

— طلب العلم شىء .. واستغلاله للوصول شىء تانى

ـــ مه لازم عشان توصل تبقى كفء .. وأظن مفيش حاجة تنمى الكفاءة إلا العلم .. والا أنت عاوز الناس كلها تنحط ف (مازورة واحدة)

ـــ لأ طبعاً .. لكن مش عاوز الناس تبقى كرة .. كل ساعة ف رجل ..

ـــ ولو أنى مش عاوز أوجع دماغى فى السياسة لكن أقدر أقول لك أن اللى بتطلبه ده خيال . ده أحنا شعب فقير وجائع ومريض .. مش محل مشا كانا دى خطوة خطوة .. وبعدين نبص لفوق ..

ـــ وأنا بقول ايه غير كده .. نحل مشا كانا ..

ـــ جميل ونحلها ازاى ؟

ـــ بالعدل

ـــ ثبت بكلام يامأمون بيه ان العدل ميقدرش يعيش فى مجتمع فقير مليان نقص

ـــ يبقى نشتغل عشان البلد تبقى مش فقيرة

ـــ صح .. نشتغل .. كل واحد يشتغل .. وهل طلب العلم مش شغل ؟

ـــ يامحمد حاول تفهمنى .. أنامبعترضش على طلب العلم ده أنا نفسى بادرس معاك .. لكن باعترض على وسيلة الكذب والضحك على الناس .. تعرف لما تكذب على الناس تبقى بتعمل إيه ..

ـــ ايه يا أستاذ ؟

ـــ تبقى بتقتلهم ..

— يا خبر

— طبعاً .. أنت بتتريق ؟ لما ييجى مرشح ويضحك ع الناس ويخش البرلمان وينجح وميسألش فى الناس .. يبقى ده عدل ؟

— لا ظلم

— وعارف ده يبقى معناه ايه ؟

— يبقى معناه أنهم مش حينتخبوه تانى . .

— لا .. ده مش مهم .. لأن ممكن ييجى كذاب تانى ويخش البرلمان وبرضه ميسألش ..

— أمال يبقى ايه يعنى ؟

— يبقى مجرم .. قاتل . لأنه بيخش المجلس عشان مصلحته هو إذا كان صاحب أرض أو تاجر أو بيشتغل أى شغلة .. يبقى بيسرق الناس ويقتلهم لأنه بيضيع مستقبل أولادهم الشيخ عبد الراضى كان عنده حق لما قال لابراهيم على والد نبيه بيه بتاعه ده .. كان على حق لما خطب فى الناس بعد الصلاة وحذرهم من نبيه بيه .. وابراهيم ماكانش على حق .. ضحك على الشيخ عبد الراضى . . أستغل حب الناس ليه عشان يخدم البيه ويخدم نفسه . . والنتيجة أنه خدم البيه وخدم نفسه لكن مخدمش الناس . .

— على العموم نبيه بيه سقط فى الانتخابات

— لكن نجم فى قلوب الناس وضرورى حيدخل البرلمان المرة الجاية أو اللى بعدها

— مه اذا ده مدخلش حيدخل غيره .. كلهم زى بعض

— يبقى لازم يكون فيه حل

— فكر بقى على مهلك يا فيلسوف وقل لنا

— الحكاية مش عاوزه فلسفة .. دى عاوزه شغل تانى .. اسمع يا محمد .. إذا احنا حسبنا رؤس الفساد فى بلدنا حنلاقيها كثيرقوى لكن كلها مسنودة على حاجة واحدة .. والملك نفسه مسنود عليها ونبيه بيه والى زيه برضه مسنودين عليها .. واحنا حنفضل كده طول عمرنا مادام درل قاعدين

— جضرتك ناكر انك قلت اللى متقالش .. ما احنا عارفين ان الملك ساند كل دون .. وان الانجليز هم اللى ساندين الملك .. دى حقيقة ياسى حسن

— حقيقة لازم تتغير .

— فعلا .. ياريت بس ازاى ؟ .. ده البلد كلها ثارت ومع ذلك معملناش حاجة ..

— لا .. عملنا .. ع الأقل خرجنا الانجليز من مصر

— قصدك من القاهرة .. لكن لسه قاعدين فى القناة .. محدش يقدر يدخل الاسماعيلية الا بتفتيش ..

— يبقى لازم يخرجوا من القناة

— فعلا .. لازم يخرجوا .. نتمنى أنهم يخرجوا .. لكن ده مجرد تمنى مجرد أمل . دى دوله منتصرة ف حربين عالميتين . . دولة إنتصرت على أكبر دولة أوربية .. وأظن احنا مهما كنا مش حنبقى زى ألمانيا..

— انجلترا دلوقتى تعبانة قوى .. دى خارجة م الحرب منهكة

— واحنا تعبانين أكثر لأننا مش عارفين ناكل لقمة حلوة

— لكن نقدر نعلن الجهاد .. نقدر نحارب . نقدر نشيل الانجليز اللى سندين الفساد اللى مالى البلد . .ساعتها الملك لازم يبقى معانا والا مصيره يبقى حاجة تانية وبالتالى نقدر نتخلص من كل الفساد اللى بيحط بالقصر ويبقى مصر فيها حكم وطنى صحيح ..

كلام جميل .. جميل جدا .. لكن كلام وبس ياحسن ..

قال مأمون بيه معقبا على الحديث .

— فعلا ياحسن . كلام جميل .. والكلام يا ابنى دايما جميل

سكت حسن ولم يتكلم .. لقد أنتهى معهم إلى نفس النتيجة انهم ليسوا ضده . فكل الناس تحب بلدها .. انهم معه على نفس الرأى ولكنهم صامتون لأنهم يعرفون . . أن المسألة كلام وبس .. من أول نبيه بيه وأتباعه إلى الملك وحاشيته .. أنها نفس الصورة ولكنها مصغرة هنا ومكبرة هناك وكرسى العرش للملك ككرسى البرلمان لنبيه بيه والحاشية للملك كابراهيم لنبيه بيه والانجليز تسند الجميع ولا يقو على زلزلتها أحد فما العمل ؟ ومع أنه لم يعرف الجواب بشكل محدد وواضح إلا أنه قال

لمحمد تعقيبا على الحادث الشهير الذى قام به الناس عندما جاء الملك ليصلى (الجمعة فى مسجد سيدى محمد البحرى)وجاءت معه الإذاعةوكبار رجال الدولة ، وإمتلاء الشارع بالسيارات الجديدة الفارهة ، ورجال البوليس والكبار من كل لون وهجم الأهالى على سيارة الملك بعدالصلاةوأخذوا أرغفة الخبز من الفرن المواجه للمسجد مباشرة وألقوا بها فى وجه الملك لأنه خبز أسود ومسحتت واضرار البوليس الى تطويق المنطقة والقبض عل عدد كبير من الأهالى « ووضعهم فى البوكس عاطل مع باطل » ثم أفرج عنهم جميعا بعد فترة قصيرة ، مما كان له دوى على مستوى الشارع والأحياء المجاورة وجعل الناس يشعرون باعتزاز شديد لأنهم فعلوا شيئاً ضد الملك واضطروا الحكومة إلى إصدار تشريع سريع لتحسين مستوى الرغيف .. قال حسن لمحمد تعقيبا على ذلك الحادث الشهير :

— أهه ده الحل .. لازم كل الناس تتحرك عشان السلطة تهتز .. يا تصحى وتفوق .. ياتروح فى داهية

فقال له محمد :

ـ افتكر يا حسن ان ده مش حل .. ده احنا لو قعدنا نعمل مظاهرات على كل حاجة مضايقة عيشتنا يبقى مش حنبطل مظاهرات أبدا ..

ـ لكن كان مش حنشتغل وبالتالى مش حنعمل حاجة وفى الآخر حنلاقى نفسنا بنجرى ورا سراب ..

فقال حسن بحدة :

ــ امال نعمل ايه ؟

ــ وقال محمد بجدة :

ــ م اعرفش

***

لم يكن على أفندى راضيا عن ابراهيم أفندى ، ولكنه فعل ما فعل لأنه أدرك أن ابراهيم ولد خطير وأنه سيكون رجلا مهما من رجال الحكومة وليس بمستبعد أن يعتبر نبيه بيه مدير عام فى القاهرة ويأتى معه ابراهيم ويصبح الشخص الأول فى المصلحة بعد نبيه بيه وساعتها سيكون كل فرد تحت رحمة ابراهيم حتى على أفندى نفسه .. هذه هى النتيجة التى تنتظر الولد الصغير فى المستقبل فهل يستهان بشاب كهذا ينظر لك نظرته لأبيه .

لم يكن على أفندى راضيا عن ابراهيم ولكنه كان مضطرا إلى مجاملته واظهار الود نحوه ونحو أهله رغم أن البنت سميحة لم تعد من قسمته كما كان يخطط بزواجها المتسرع من غنى لا مقام له .

وقد أظهر على أفندى شعوره الحقيقى الذى أخفاه عن كل الناس حينما جاءت زوجته بقهوة العصر التى أصبح يشربها من يد زوجته فى غرفة الجلوس المطلة على الحارة بعد أن كف عن الجلوس أمام باب بيته كالعادة بسبب مرضه .. وهكذا يقول للناس ، ويسبب قصة سميحة التى جعلته يتوارى عنهم ، وهى السبب الحقيقى لعزلته .

أظهر على أفندى شعوره الحقيقى نحو ابراهيم عندما قالت له الزوجة وهى تتأهب للجلوس على مقعد منخفض بحيث لا ترى من النافذة أن ابراهيم ينتظره فيما يبدو مستقبل باهر وأنه فيما يبدو ليس موظفاً ككل الموظفين ولكنه موظف يعرف قيمة نفسه وقيمة الوظيفة ويريد أن يعصر الحكومة عصراً ليأخذ منها أكبر قدر ممكن رغم ضآلة مكانته بالنسبة إلى غيره من الموظفين الحاصلين على البكالوريا . . . وأردفت قائلة أنها كانت تتمنى أن يكون هذا الولد من نصيب ابنتها سميحة لولا أن البنت تسرعت واندفعت بسبب ما يسمونه الحب لعنة الله .

لكن على أفندى أشاح بيده وقال لزوجته وأسنانه تتلمظ :

— ده (تيس) . . حتى وهو موظف فى الحكومة مش حيكون محترم . أصله كده . فقير ابن فقير . . بيئة واطية . . إنسان معندوش كرامة .

ثم جذب رشفة كبيرة من فنجان القهوة ليسحب بها وجه الفنجان كله دفعه واحدة

وقال :

— تعرفى يا أم عبده . . الواد ده يكره يبقى سكرتير لنبيه بيه . . يعنى أودة فخمة ومكتب وكرسى أنا نفسى اللى خدمت الحكومة أكثر من خمسةوعشرين سنة مبعقدش عليه . . . وتليفونات .. وأكبر موظف

فى الشركة لازم يستأذنه قبل ما يدخل للمدير . . وكل الناس حتجامله وتجرى وراه عشان يرضى عنهم نبيه بيه لأن اللى زى ده بنسميه أحنا (المفتاح) أيوه . . ده مفتاح المدير . . ده عين المدير . . تقدرى تقولى أن الواد ده هو المدير نفسه . .

تهللت أسارير الست أم عبده إعجاباً وقالت بطيبه :

— ياحلاوة . . صحيح يا على أفندى ابراهيم ابن أم محمد حيبقى المدير ؟

فنظر إليها الرجل نظرة مستنكرة ثم قال وهو يجذب نفساً عميقاً ويعدل جلسته على الكنبة :

— أيوه . . الواد ده حيبقى المدير . . لكن برضه مش حيبقى محترم . . حيفضل من غير كرامة ومحدش حيحبه بصحيح رغم أن كل الناس حتمشى وراه . . وكلهم حيتكلموا عليه . من ورا ظهره وحتكون أخرته سودة زى غيره . .

خبطت الأم يدها على صدرها وقد تحولت كل أسارير وجهها إلى خوف :

— ليه كفى الله الشر ؟

لكن الرجل كان ينظر إلى زوجته نظرة اشمئزاز وقال لها ببطء وقسوة :

— عشان أصله واطى .. بيته واطية .. معندوش كرامة

— لا لا ياسى علي . . ما لكش حق تقول عليه كده . . ده برضه مهما كان جيبقى المدير . . إزاى تشتمه .. لا لا ياسى على . . خلينا ف حالنا وهم ف حالهم ..

لكن الرجل بدأ يتضجر من عدم فهم زوجته لأفكاره فقال لها منهيا الحديث :

— ماليش حق إيه يا وليه .. ده اليوم اللى الواد ده بيحى فيه عندى في المصلحة ويبقى كده ده يكون آخر يوم لى فى الحكومة ..

وراح يتمتم بكلمات الاهانة والسب

— معندوش كرامة .. أصله واطى .. بيته واطية .. كلب متعفن .. نفعى .. وصولى .. الله يخرب بيته ..

وبدأت الزوجة تراجع زوجها فى أقواله بقولها :

— لا لا ياسى على .. مالكش حق .. دول ناس طيبين . . مالنا وماله

— لكن الرجل اشاح بيده عنها وقال لها :

— روحى ياشيخه .. روحى اغسلى الفنجال ونامى . . هو انت دارية بحاجة

— كتر خيرك ياسى على .. بتهينى على آخر الزمن

— آخر الزمن إيه وأوله إيه ياشيخة .. روحى نامى ..

ولم تجد المرأة ما تقوله .. بل أنها خشيت على نفسها من التمادى فى الحديث معه وهو على هذه الحالة المضطربة فتركته وخرجت وهى تتنهد وتقول :

— ربنا يهدى

بينما ظل الزوج على حاله .. يردد نفس الكلمات فى شىء من التلذذ :

— أصله واطى .. بيئته واطية .. كلب متعفن .. نفعى .. وصولى .. الله يخرب بيته .. بيئته واطية .. نفعى .. وصولى .. الله يخرب بيته .. نفعى .. وصولى .. نفعى .. وصولى .. وصولى .. الله يخرب بيته ..

وهكذا حتى خيم الليل على الحارة فألقى الرجل عليها نظرة حزينة ونهض من مجلسه إلى السرير واضطجع عليه وأمسك حبات المسبحة وراح يديرها بعصبية بين يديه ..

الفصل السادس عشر

كانت البنتان تشعران بشىء كثير من الفخر بأخيهما ابراهيم لأنه كان الإنسان الناجح فى الأسرة رغم أنهما لم تستفيدا منه شيئا بصفته أخ بقدر ما كانتا تستفيدان من أخيهما محمد، ولكن بعد ابراهيم عن المنزل والحارة والشارع والحى كله وقصة اختيار (بيه بيـــه) له وترقيته بالاختيار .. أشياء أعطت لابراهيم شيئا من الجاذبية فى عيون الناس، لم يحظ بمثلها محمد رغم أنه تخطى مرحلة ابراهيم التعليمية ويوشك على الحصول على (الثقافة) التى تتضاءل الابتدائية أمامها تماما .

ولا شك أن البنتين كانتا على حق إذ بدأ الخطاب يتقدمون وبدأت البنتين تمارسان هواية البنات المحببة فى الرفض . . ورغم أن البنتين لم تكونا مرتبطتين بشخص معين، ولا ترغبان فى شخص ما، إلا أنهما قالتا (لا) أكثر من مرة لدرجة أن أباهما بدأ يقلق ويسأل الأم عن أسباب الرفض فترد الأم بسعادة وثقة :

ـــ متخافش على بناتك . . أنا عارفة أخلاقهم كويس . .

ـــ طيب ليه يرفضوا العرسان ؟

ـــ دلع بنات

— لكن البنات لازم تجوز . . هم فاكرين العرسان حيفضلوا كده يدقوا الباب طول العمر .

— البنات برضه تحب يبقى لها بيت . . بس نفسهم فى واحد عدل شوية

— وحيجى على إيه العدل شوية يا هانم . . مش أحسن تمدرجليك على قد لحافك . . ولا نعمل زى المثل . . من كتر خطابها بارت ..

— ويبوروا ليه . . كفى الله الشر . . أنا ح أكلمهم وناخد المسألة جد شوية ..

— لا دى لازم تبقى جد قوى .. أنا مش عاوز دوشة والناس ضرورى حيسألوا . . احنا ليه مبنجوزش بناتنا . . وانتى عارفة كلام الناس وخلينا كده ملمومين ومستورين . . والا عاوزاهم يقولوا انى مش عاوز أجوزهم عشان فلوسهم ..

— فشر .. قطع لسان اللى يقول عليك كده ده انت سيد الناس كلها . .

— كتر خيرك يا اختى . . بس انا عاوز عمل . . فعل . . الجوازة دى مش حارفضها . .

— اللى تشوفه .. وانا ح أكلم البنت

لم يكن الأب يستطيع أن يرفض العريس لأكثر من سبب وأول هذه الأسباب وأهمها أن العريس الشاب ميتعبش) لا من ناحية الشكل ولا الوظيفة فهو موظف فى الداخلية بالابتدائية أى أنه كأى واحد من أولاده وبالذات هذا الابن الذى أثار إعجاب أهل الحارة كلها (ابراهيم) كما أن الصداقة التى كانت تربط الأب بأبيه كان لها إعتبار كبير ، والأسرة التى ينتهى إليها العريس تعتبر من أعرق الأسر فى الشارع فهم أناس محترمون بكل ما تحمله الكلمة من معنى فى تلك الأيام سواء من حيث المركز الأدبى أو المادى . . كما أن والد العريس وبالتالى العريس بعد عمر طويل . . مسنود على عدة فدادين تأتى بريع يكمل المظهر العام لوالده الذى كانت له (شلة) من الأصدقاء كلهم من رجال الدين القوقورين يجلسون حوله كل مساء بعد صلاة العشاء أمام الدكان التى فتحها لابنه الذى لم يعشق المدرسة يبيع فيها البقالة الجافة وتدر عليه ربحا يفوق كل ما يدخل جيبى الأب وابنه من العمل الحكومى وكان الرجل يجذب أصدقاءه من رجال الدين بحبه للعلم واحترامه للعلماء وتقديره للأصدقاء سواء بالقول أو بالعمل كما كان فى مجلسه ينفحهم بنفحات سخية من كرمه الذى كان يتمثل فى فناجين القهوة التى لا تنقطع طول السهرة من المقهى من المعروف (بقهوة نرباش) أو بأكياس (الفول والقمح) من دكان ابنه بلا مقابل ، ومع أن الجلسة اليومية لم تكن تتخطى فى مادتها مسائل الدين التقليدية ، الا أنها كانت بالنسبة لأهل الشارع منارة العلم الحية التى تعطى لمن يسعده الحظ بالإشتراك فيها المن والسلوى ، كما تعطى لصاحب المجلس

(الحاج منصور) هيبة واحتراما فى عيون الناس . لم يكن الأب يستطيع أن يرفض العريس الذى طلب يد ابنته (فاطمة) عن طريق أبيه بقوله :

— اسمع يا أخى .. أنا باكلمك فى موضوع أساسه أنت واحترامى لك ولتربيتك لأولادك .. وكفاحك فى سبيل اسعادهم . وطلبى هـذا لا أساس له الا العشم فيما بيننا من أخوة ومودة .. ورياض ابنك كما أن عديلة بنتى ، وقد طلب منى الولد رياض أن يتزوج من ابنتك عديلة ، وطبعا هو لم يرها ، ولا يعرفها ، وهى لا تعرفه فأنت لست من الرجال الذين يتركون لبناتهم الحبل والحمد لله ، وثقتى فى تربيتك وفى ابنى هما اللذان شجعانى على التقدم لك وكل طلباتك مجابة سلفا ..

لم يستطع الأب أن يقول لا ، ولـكنه طلب مهلة للتفـكير ثم قبل بعد أن عرض الأمر على زوجته بشرط واحد وهو :

— ياحاج منصور طلباتك على عينى وراسى . . لـكن فيه حاجة أحب أوضحها لك من دلوقتى أنا معنديش حاجة اسمها خطبة . . ولا زيارات فى البيوت .. وبنتى متخرجش مع ابنك الا بعد دخوله عليها . .

— طبعا .. أنا موافق ، ولـكن .. أليس من حقه أن يراها بعـد عقد القران ؟

— أرجوك يا حاج .. أنا معنديش بنات تتشاف إلا بعد الجواز . . لما يدخل عليها يبقى حر فيها ..

— أنا عارف انك راجل وشهم ومبروك يا أخي

— بارك الله علينا جميعا

ولم ير (رياض زوجته) قبل زواجهما الا مرتين .. مرة يوم قدم (الشبكة) والمرة الأخرى يوم (عقد القران) ولم يزر بيت خطيبته قبل الزفاف .. ولم يخرج معها .. باختصار هو لم يعرفها الا بعد أن زفت إليه في بيت الزوجية ، ومع ذلك كان الفتى معجبا بفتاته .. كان معجبا بالبالطو الذى تنفرد به دون سائر البنات خفيفا فى الصيف ثقيلا فى الشتاء ، معجبا بالجوارب التى تكسو قدمها صيفا وشتاء ، معجبا (بالبيشة) التى تغطى وجهها .. معجبا باستقامة حركتها وعدم تلفتها كغيرها من بنات سنها ، معجبا بكل ما لا يعجب الشاب فى البنات هذه الأيام . وهو لم يكن يجهل البنت كما يبدو من تدقيق أبيها عليها ، فقد استطاع أن يراها أكثر من مرة دون أن تدرى هى نفسها عن ذلك شيئاً وكثيراً ما سار وراءها حتى تصل إلى (مشغل الطحان) ثم تعود إلى منزلها . كان ينتظرها دائما فى مكان ما من الطريق ، وكان يراها ولم تكن تراه . هكذا حتى وثق من أخلاقها فطلب من أبيه أن يخطبها له وهكذا أصبحت عديلة خطيبة لرياض وبدأت تستعد لتخرج من بيت أبيها إلى شقة فى بيت الحاج منصور . . .

الغريب فى الأمر أن (حسن) الذى كان يعتبر الصديق الوحيد لحمد ، وتعتبره الأسرة ابنا آخر لها قال بشىء من الإحتجاج لصديقه عندما علم بخطبة أخته على رياض ابن الحاج منصور :

— وليه استعجلتوا يا محمد ؟

— هى المسائل دى عاوزه إنتظـــار . يانقول أيوه يالأ عاشان ميكترش الكلام

— وليه مقولتليش ؟

— والله مخطرش ف بالى انى أخبى عليك .. لكن انا نفسى مكانش لى دور مهم فى الحكاية دى الا السؤال عن المتقدم بس .. لكن فيه إيه يا حسن .. انت شايف حاجة .. أو تعرف حاجة وحشة عن (رياض) احنا لسه ع الباب

— لأ . أعوذ بالله

— طيب ليه بتحتج ؟

— أبداً .. كل شىء قسمة ونصيب ..

— وهنا نهض محمد غير مصدق وقال لصديقه كأنه يلومه على كتمانه أمره بينه وبين نفسه

— تكونش كنت عاوز عديلة؟

— وانا وحش .. والا مش مناسب ؟

— ازاى تقول كده يا حسن . . ده أنت صديق .. لكن ليـــه مقولتش .. ليه متكلمتش ؟

— أقول لك انى طالب الزواج من أختك ازاى ؟

— وفيها ايه دى .. هو الجواز حرام ؟

— يا محمد انت صديقى .. وانا كنت حريص على الصداقة وكنت خايف أحسن تفتكر أنى بابص لاختك نظرة مش كويسه .. كت حريص على صداقتنا فترددت ..

— مالكش حق أبداً .. ده أنت صديقى واحنا كنا نتمنى يا حسن احنا كلنا بنعزك جدا .

— ع العموم كل شىء قسمة ونصيب

— فعلا مع الأسف لأن الوالد مش ممكن يرجع فى كلمته

مع ذلك أخبر محمد أمه وأخبرت الأم زوجها ولكن الزوج قال لزوجته أن هذا الأمر يجب الا يفتح فى أى نقاش أمام البنت لأن النصيب قد حدث وهذا الكلام يعكر حياتنا كما يعكر الصداقة التى بين محمد وحسن وأنا أعتبر هذه الصداقة مكسبا للولدين وأحب أن تتدعم .

ومع أن الصداقة بقيت كما هى.. الا أن حسن بدأ يخفف من زياراته لمحمد التى لم تكن تتعدى الوقوف بالحارة ومناداته حتى ينزل إليه ويخرجا.. ولم يدخل حسن بيت صديقه طول عمر صداقتهما أكثر من مرتين بالتحديد ..

بدأ حسن يخفف من زياراته لمحمد ويختار أماكن أبعد من الشارع والحى للقاء وهى أما فى بيته أو فى أحد مقاهى (باب اللوق) وقد

إرتاحت الأسرة لهذا الوضع لأنها لا تريد أن تسبب حرجا لنفسها مع خطيب البنت فغير معقول أن يمنعاه من زيارة البيت بينما يزور أصدقاء الأخ البيت .. هكذا ستكون الصورة فى نظر أهل العريس ورغم أنها ليست الصورة الحقيقية الا أن الذى يمكن أن يحدث هو هذا بالضبط فالحقائق كثيرا ما تطمس أمام الرغبات ..

* * *

قال حسن لصديقه فى أحد اللقاءات التى أصبحت متعبة لأن حسن يتعمد فيها أن يقطع مسافات طويلة من السير بحجة تنشيط الجسم وتليين العضلات التى كادت أن تصاب بالكساح من جلوس المكاتب .

— مش عاوز تزور الأسطى إمام والأسطى حسين ؟

فقال محمد منتشيا بالفكرة

— ده أعظم فكرة .. على الأقل تريحنا من تكسير رجلينا ..

— لكن احنا حنروح مشيا على الأقدام

— مش معقول . . ليه يا ابنى . . انت جرى لك إيه . . تكونش فاكرنا عساكر فى الجيش

فقال حسن كأنه لا يعنى ما يقول .. ودون أن يوحى بأسلوبه أنه يتحدث فى أمر خطير

— العساكر ما بقوش ينفعوا الأيام دى .. الجيش كله مينفعش ..

— وايه اللى ينفع يا زعيم الأمة ؟

— انت وانا واللى زينا .. اللى محدش يشك ف تصرفاتهم

— انا مش فاهم

افهمك والأمر لله

نظر إليه محمد عاتبا لكن الصديق استطرد قائلا :

— فيه ناس كتيرة قوى محدش حاسس بيها يا محمد بتعمل بطولات فى النبر .. لا جرايد بتكتب عنها ولا نيشان بتعلق على صدورهم .. مع ذلك دول أبطال الساعة

— مين دول ؟ بيعملوا إيه ؟

— ناس حلوين زيك وزيى .. شباب زى الزهرة المفتحة .. من خيرة شباب الأمة طلبه جامعة ، وطلبة ثانوى بيرموا نفسهم فى النار . جننوا الانجليز فى الاسماعيلية وعلى طول القناة .. متفجرات .. اغتيالات .. ضرب .. فدائيين يامحمد . بيعملوا اللى العساكر متقدرش تعمله ولا الجيش كله .. مع ذلك محدش حاسس بيهم تقدر تقول انهم مش عاوزين حد يحس بيهم عشان ينجحوا ..

— وعرفتهم ازاى ؟

— صدفة .. قابلت صديق قديم .. قعدنا على قهوة الحرية فى باب اللوق وسط أثرياء البلد ، وتكلمنا .. طلعنا قريبين قوى من بعض ..

تقدر تقول أنه طلع فى مبادئه نسخة منى أو أنا اللى نسخة منه .. الوطنية جمعتنا وربطتنا .. أكلمنا كتير ، لكن الآخر بعد ما عرض على الانضمام ليهم بقيت واحد منهم ..

— مين دول ؟

— الفدائيين

— مين اللى بينظمهم ؟

— معرفش .. محاولتش أعرف لأنى عارف ان المسائل دى لازم تكون سرية .. أنا دورى كان بسيط قوى .. أقوم بتقديم بعض الخدمات اللى عاوزينها من غير أى نشاط ميدانى ..

— وعملت حاجة ..

تقدر تقول حاجات لكن هنا مش هناك

نظر إليه محمد نظرة يجتمع فيها الحيرة والقلق والحب والعتاب والخوف والشفقة والاعجاب وقال :

— ليه مقلتليش ؟

— م انا قلت لك اهه

عشان كده بتكسر رجلى فى المشى معاك ؟

— لأ ده المشى ده رياضة أنا باستعد بيها .. لكن أقدر اشترك معاهم فى العمليات .

— وليه متاخذنيش معاك ؟

— انا م أقدرش أضم حد للفدائيين .. انا لسه تحت الاختبار

وصلا إلى الدراسة بعد أن أوشك الليل أن يخفى ملامح المنطقة ويذوب السهل بالجبل ولا تظهر الا أضواء المدينة الخافتة على بعد ، وأخذهما الأسطى امام والأسطى حسين بالأحضان وان كان الأسطى حسين راح يعتب على محمدعدم زيارته فى المصنع رغم أنه كان يعتبره واحدا من المؤسسين للمصنع وهو وان لم يشترك فى تشييد المصنع . . والمساهمة فى دفع جزء من قيمته ، الا أنه كان يعول عليه كثيرا فى العمل بجانبه فهو زكى ونشيط ويعمل بعشرة عمال ولا يخطىء وهذا يوفر الجهد والوقت والمال وهى أشياء لها قيمتها عند الأفراد مثل الأسطى حسين وان لم يكن لها قيمة عند موظفى الحكومة .

كان الوقت قد بدأ يتأخر ومع ذلك فالعمال ما زالوا يعملون فقال محمد للأسطى حسين :

— هو المصنع بيشتغل بالليل كمان ؟

فابتسم الأسطى حسين وقال :

— لا يا محمد .. دول حتتين شغل مستعجلين شوية .

ثم اردف .

— متخافش .. أحنا مبناخدش من العمال غير حقنا وبس .. وبنديهم حقوقهم كلها وأكثر احنا ناس بنخاف ربنا يامحمد

— طول عمرك أمير يا أسطى

— وامتى حتيجى معانا يا محمد .. المصنع حيفضل محتاجك على طول ..

— أخلص الهندسة يا أسطى

— برضه حنحتاجك وانت مهندس يامحمد .. ربنا يوفقك ويحقق كل أمالك ..

— ربنا كريم يا اسطى ..

فى هذه الفترة كان حسن يتحدث بشىء من الحذر إلى الأسطى أمام، فلما انتهيامن حديثهما طلب الأسطى أمام الشاى وجلسوا جميعاً يتذكرون أيام العمل الحكومى وجلوس محمد تحت (المنجلة) يذاكر هرباً من عيون العمال وقال الأسطى امام :

— ما شاء الله .. طول عمرك شاطر ونبيه يا محمد ؟ خليك كده على طول .. أنت حتبقى كويس قوى يا ابنى

— متشكر يا اسطى .. وأنا عمرى ما انسى الأيام اللى اشتغلتها معاك ومع الأسطى حسن ..

— أصيل يا محمد .. ربنا يوفقك ..

هم حسن بالانصراف لكن الأسطى أمام والاسطى حسين قالا أنهما سيوصلانهما معهما بالسيارة . فقال محمد أن حسن يفرض عليه أن يقابله بدون الموتوسيكل لكى يكسر له قدميه مشياً فهل يقبل أن يركب السيارة دفعة واحدة ولكن حسن قال :

ـــ المرة دى حنركب عشان خاطر الأسطوات

ولكن محمداً نظرا إلى السيارة وقال للاسطى حسين :

ـــ يا خبر . . نسيت أقول لك مبروك يا اسطى

فأخذه الأسطى بين ذراعيه وقال :

ـــ الله يبارك فيك يامحمد . . أمال . . الحياة عاوزة منا الخفيه . . عقبال عربيتك يا محمد

وركبا السيارة وراح حسن يهمس بكلمات تبدو أنها على مستوى رفيع من الأهمية فخمن أنها بخصوص اشتراكه مع الفدائيين واستنتج أن المصنع يساعد الفدائيين بخدمات خفية عن طريق حسن فابتسم سعادة لهذه الفكرة وتمنى أن تكون حقيقة فلاسطوات كلهم حب للبلد وشهامة مع كل شخص يعمل برجولة .

عندما نزل محمد وحسن من السيارة قال لصديقه :

ـ هو الأسطى امام بيشتغل معاك ؟

فقال حسن بسخرية :

– ايه النباهة دى كلها . .

– إذا كنت معندكش ثقة فى يبقى متقولش حاجة . .

– لو مكانش عندى ثقة فيك مكنش خدتك معايا . .

– وليه مبتتكلمش ؟

– الأصول كده . . لكن أنت حاجة تانية . . عشان كده حتفضل تعرف كل أسرارى من غير ما أخاف . .

– بيعملوا ايه ؟

– مساعدات يا محمد . . الحرب عاوزة كل حاجة . . من أول رغيف العيش لحد الرصاصة . . الاسطوات دول مليانين شهامة . . ربنا يسترها معاهم

وعند افتراقهما قال له حسن . .

– يمكن بكره ما جيش المدرسة فى الميعاد . . خليك طبيعى ولما تروح أبقى قل لى خدتوا ايه . . . وإذا سألك حد من الزملاء قول يمكن تعبان

– حتروح فين ؟

– عندى مهمة صغيرة بس يمكن أتأخر فيها . . لازم نعمل حساب الظروف ، وإذا خلصت بدرى حتلاقينى فى المدرسة . . مع السلامة

– خلى بالك من نفسك ياحسن . .

قالها محمد بصدق حقيقى فلأول مرة منذ عرف صديقه حسن يفترقا دون أن يعرف متى يراه . . بل دون أن يعرف ما إذا كان سيراه مرة أخرى أم لا . . لكنه عاد إلى بيته وحاول أن يبدو بمظهر طبيعى ولم يستطع . . كانت الأفكار تصارعه وتنعكس صراحة على وجهه حيناً ، وجدية حيناً ، وقلقاً حيناً آخر ولم يجد الجو فى البيت مناسباً لحالته فالأسرة كلها مشغولة فى جهاز البنت وحياكة ملابسها فتسلل إلى فراشه وحاول أن ينام .

الفصل السابع عشر

كان المنزل يغمره فرحة طاغية ، بل أنه لم يمر بمثل هذه الموجة من السعادة منذ تزوجت الأم بالأب وسارت بهما الحياة فى دروب وعرة شاقة وحينا مبهجة ، فالأبناء عبء غير هين على من كان فى مثل ظروف هذا الأب وهذه الأم ، ولكنهما مع ذلك كانا يختلسان قدرا من السعادة كأنه لقمة يتبلع بها جائع أو شربة تطفىء ظمأ عطشان .

وكانت السعادة القصيرة دائماً تدفعهم إلى المزيد من الألم بوافد جديد على الأسرة وهم فى حاجة إلى قسط ولو ضئيل من الراحة ، وقدر من المال يستر حاجتها الضرورية من الطعام والضرورى من الكساء .. مع ذلك كان الأبناء يتتالون كأنهم قطار خرج من كهف مظلم تعرف أوله ولا تعرف متى تنتهى عرباته ، والأب يجر بصبر عجيب وشجاعة أكثر إثارة للاعجاب ورضا بما قسم الله له ، وإصرار لا يقدر أحد على تحويل مجراه ، وكاد يحلم للجميع حلما واحدا استعذب فى سبيله كل لون من ألوان الألم والعذاب الذى كان يرتفع أحيانا إلى درجة الشقاء ، ويهبط أحيانا إلى درجة الغضب فيتولد اصرار جديد .. محمد .. ابراهيم .. عديلة .. عائشة .. مصطفى .. عبد الكريم .. رضا .. وأمينة التى تركت فراغا فى قلب الأبوين برغم كثرة الأبناء وضيق ذات اليد .

كان المنزل يغمره فرحة طاغية فلأول مرة تتتالى الأخبار واحداً تلو الأخرى وكلها سعيد مشرق .. ترى .. هل انتهت أيام الألم ؟

جاء محمد يرقص طرباً وسعادة فقد نجح ونال (الثقافة) وظهرت درجته فى الجريدة وحولها دائرة بالقلم الأحمر توكيداً لها وتسهيلا لمن يريد أن يراها من افراد الأسرة .

وظهرت نتيجة الشهادة الابتدائية وظهرت فى الجريدة المسائية أرقام الناجحين وفيها رقم ٥٠٠٧) وهو رقم جلوس الابن مصطفى ، وهكذا أصبح فرد جديد فى الأسرة يحمل شهادة عامة .

بل أن فاتحة الخير على الجميع - كما قال الأب - كان الصغير (عبده) كما يطلقون عليه فى المنزل أو عبد الكريم ، كما تسميه أوراق الحكومة الرسمية ، يوم جاء وفى يده شهادة المدرسة بنجاحه ونقله من السنة الثانية إلى الثالثة الابتدائية ، وستبدأ الدراسة يوم السبت ٦ أكتوبر سنه ١٩٥٢ .

كان المنزل تغمره فرحة طاغية ، لم يمر مثلها من قبل . والسعادة فى هذا البيت لم تكن تتجلى فى الخروج إلى السهرات أو التنزه فى الحدائق أو تقديم الهدايا أو إقامة الحفلات ، ولكنها كانت تتجلى بوضوح فى هذه الموجة الغامرة من البشاشة على الوجوه والتصرف فى كل أمر من أمور الحياة دون خوف من زجرة الأب أو توبيخ الأم أنها طاقة تطغى كل شخص فيجلس ويمشى ويتكلم ويضحك ويحلم . وكان أوضح مظهر لسعادة الجميع هو وقوف الأخوة مع البنتين فى الغرفة التى تحولت إلى

مشغل للتطريز وحياكة الفساتين والمفارش والأرواب والجلابيب وقمصان النوم وكل ما تعده العروس ليوم زفافها وما بعد يوم زفافها . وكان كل شخص يقول كلمة ، ليس من الضرورى أن تكون رأياً مهما أو قابلا للنقاش، ولكنها كانت كلمة تعبر عن رغبة صاحبها فى المشاركة أكثر مما تعبر عن رغبته فى التعبير عن رأى موافق أو غير موافق لما يرى أمامه من أقمشة كثيرة تقوم البنتان بمهارة فائقة بتحويلها إلى أشياء جميلة وبلا ثمن فهما اللتان تفصلان القماش وهما اللتان تحيكانه ، وهما اللتان تنقلان المودة من الكتالوج) الذى أستعارته فاطمة من (مدام راشيل) رئيسة البنات فى مشغل الطحان لتنقل منه ما تريد من موديلات وتحولها من صورة على ورقة إلى ثوب على جسمها أو على ستارة نافذة أو مفرش على سرير أو لوحة على حائط .

وكانت الأم تنظر إلى بناتها وأولادها من حولها وهى لا تعرف ماذا تفعل لتعبر لهم عن سعادتها بوجودهم حولها فتارة تقدم لهم أكواب الشاى ، وتارة وأخرة بقطع لهم حبات (الطماطم) وتقدمها لهم (لأن القوطة تقوى الدم) وتارة تعطى الصغير مالها ليشترى به حمص أو لب أو حلاوة ، وتارة تتطلع إلى السماء بوجهها ودون أن يراها أحد من أولادها ولا تنبس بكلمة ، هكذا تتطلع صامتة مكتفية بما يقوله قلبها .

وبينما يعيش الجميع هذه اللحظات الحلوة وأمام كل واحد منهم صورة جميلة محفورة فى مخيلته دق الباب ودخلت البنت باتعة ، ولأن الجميع كانوا فى حالة غير عادية من السعادة فقد قابلوها بقدر غير عادى من الحفاوة

الحقيقة أن البنت كانت تستحق هذا القدر من الحفاوة فقد كانت هى الأخرى على هيئة غير عاديه بل أنهم لأول مرة يرونها ترتدى (تايير) جيب وجاكت ، ويبدو أنهما مستعملان ، ولكنهما اكسبا البنت مع الحذاء ذو الكعب العالى الذى ألحت على أبيها ليشتريه لها (ولو نص عمر) من شارع كلوت بك ، رونقاً وجاذبية غير مألوفة .

— ولله كبرتى يا (باتعة) واحلويتى

— أهه كده شوفى العقل والقعاد فى البيت بيعملوا ايه فى البنات

— مش كده أحسن من اللعب فى الحارة

— والنبى (باتعة) (أدورت) واحلوت يا امه

— بس لو تبطلى قباحة لسانك تبقى ست البنات يا باتعة

وكانت باتعة تنظر إليهم ولا تعرف ماذا تقول فكل فرد يقول لها كلمة . . وكل فرد يضحك فى وجهها ؛ وكل فرد يتحدث إليها كأنها واحدة من البيت ، وواحدة عزيزة . . ومهمة . . ومرغوب فيها .

قالت باتعة بعد لحظة صمت والكل مازالوا محتفظين بابتسامة المقابلة على وجوههم وينتظرون أن يسمعوا منها ما تريده ، فهى لا تأتى إلا إذا كانت تريد شيئاً أو يطلب منها مساعدتهم فى شىء . . هى لم تأتى أبداً للزيارة والمجاملة . . ولذلك سكتوا وسكتت ثم بدأت تتكلم :

ـ عاوزاك تعلمنى القراية والكتابة يا سى محمد

وازدادت ابتسامة الجميع وان لم يتكلموا واحد أو واحد منهم بكلمة ويدأ كل منهم يعدل من جاسته ليرى باتعة أكثر ويفهم ماذا تريد بالضبط .

ـ عاوزاك تعلمنى القرايه والكتابة ياسى محمد

ـ مرة واحدة كده يا باتعة ؟

ـ آه

ـ بتتكلمى جد يا باتعه ؟

ـ آه ويمين النبى جد .. أمال باهزر .. عاوزه أتعلم القراية والكتابة ، هو اللى بيقرو ويكتبوا أحسن منى ؟

قال محمد والابتسامة لم تفارق وجهه ، والسعادة تمتزج بالدهشة فى عينيه :

ـ حقيقى ياباتعة عاوزه ، تتعلمى القراية والكتابة ؟

ـ أمال أنا باقول ايه ياسى محمد .. عاوزه أتعلم .. آه .. أتعلم ..

ـ بس كده .. على عينى ..

واتجهت النظرات إلى محمد تتأمل الوجه وتعبيره .. وتبحث عن المعنى الحقيقى لكلماته .. أهى سخرية أو سعادة حقيقية . ولكن عديلة

التى كانت تضع يدها على (مكنة) الخياطة وتلقى عليها برأسها بدأت تعتدل فى جلستها وتقول للبنت :

— ما تيجى أعلمك التفصيل أحسن ؟

— لا يا أختى . . أنا عاوزة أتعلم القراية والكتابة

— يا بت التفصيل ينفعك . . تقدرى تشتغلى وتكسبى م التفصيل . . لكن حتكسبى أيه من القراية . .

— لا يا اختى . . أنا عاوزة أتعلم القراية والكتابة

— سكتت عديلة بعد أن أحست أن البنت باتعة قد تغيرت وأنها تريد شيئاً معيناً . . ولكنها كانت تتساءل فى نفسها عن السبب الذى جعل البنت تغير رأيها فجأة . . من اللعب فى الحارة . . إلى الجلوس فى البيت فكل بنت معتزة بنفسها . . إلى الرغبة فى التعلم (يا ترى ايه اللى جرى) ؟

أما محمد فظل ينظر إلى البنت باتعة بنفس الابتسامة التى يمتزج فيها السعادة بالدهشة ، فلمح على حجرها كتاباً وكراسة وفى يدها قلماً .. فقال على الفور :

وكان جايبة الكتاب معاكى . . ياه . . دى الحكاية بجد يا باتعة

— أمال أنا باهزر ياسى محمد

— فتدخلت الأخت عائشة وقالت لمحمد وهى سعيدة .

— معلش يا محمد .. اتعب شوية وعلمها .. دى بإيدها نفسها تتعلم

— والنبي عاوزه اتعلم القراية والكتابة .. أمال أنا باهزر

فقال محمد :

— حاضر ياستى .. وايه الكتاب ده ؟

— ده كتاب سنة أولى .. أول حاجة ..

وأخذ محمد الكتاب من يدها :

— آه .. القراءة الرشيدة .. طيب تعالى معايا .. والنبي لاعلمك .. ده انا حخليكى دكتورة يا باتعة ..

وأخذها فى ركن من أركان الحجرة وراح يتحدث معها ويفتح الكراسة ويرسم لها الحروف ثم يكتبها على شكل نقط ويطلب منها أن تسير عليها .. الألف يا باتعة عصاية الباء يا باتعة خط وله سنتين واحد من اليمين والتانية من الشمال ونقطة من تحت ، التاء زى الباء بس لها نقطتين من فوق الثاء ...

وكانت باتعة تتابعة باهتمام وجدية شديدين . اما الاختان فبمدمتابعتهما لما كان يدور بين أخيهما وباتعة عادتا إلى عملهما واندمجتا وبدأ صوت المكنة يرتفع ويغطى على ما عداه من أصوات ، بينما راحت الأم تنظر إلى باتعة وتضحك ضحكة سعيدة كمن ينظر إلى قرد يؤدى الحركات التى تعلمها من مدربه فى سيرك وبعد أن انتهى الدرس .. قالت باتعة وخرجت قائلة .

— كتر خيرك ياسى محمد .. العواف يا خالة أم محمد
وقال محمد :
— ابقى تعالى كل يوم يا باتعة
وقالت أمه وأخواته .
— متخليكى قاعدة يا باتعة .. يعنى انتى مش جاية الا عشان الدرس
— معلش يا خالتى .. أصلى ح أروح اذاكر ..
— ابتسمت الأم وابتسمت الاختان وقالوا :
— مع السلامة يا باتعة .. شاطرة .. اهه كده
وخرجت البنت وراح كل فرد ينظر إلى أخيه وقالوا فى صوت واحد:
— دنيا .. حقيقى دنيا ..

* * *

كان لابد أن يأتى حسن إلى بيت صديقه بالرغم من أنه ، لم يعد يأتى إلى بيته منذ خطبت أخته ، فقد جاء اليوم ووقف فى الحارة ونادى صاحبه (محمد) وكان لابد أن يأتى لأن المقابلات بينهما قد انقطعت منذ التقيا لآخر مرة بمصنع الأسطى امام وشريكه الأسطى حسنين ، ولم يصدق محمدا الصوت فى بادىء الأمر ، ولكنه قفز إلى النافذة عندما تكرر النداء واطل فوجد صديقه بلحمه ودمه ، ثم قفز بالبجامة درجات السلم إلى باب البيت وأخذ صديقه بالأحضان وطلب إليه أن يصعد فأصر الآخر

أن يرتدى ملابسه ليخرجا إلى (مقهى الحرية) بباب اللوق . ولم يلمح محمد أغلبه فى الصعود وانما صعد بمفرده وارتدى ملابسه بسرعة ونزل إلى صديقه . كانت أول كلمة سمعها محمد من حسن هى كلمة (مبروك) لنجاحه فى الثقافة . لكن محمدا قال أنه كان يتمنى أن تكون (مبروك) متبادله وراح يسأله عن سبب تغيبه عن الامتحان رغم أن (نجاحك مضمون ، ويتفوق) ، فقال حسن أنه لم يدخل الامتحان لأنه كان يقوم بأشياء أهم ، وبدأ محمد يسأل ولكن حسن كان يكثر من التطلع بعينيه يمينا وشمالا رغم أن وجهه لا يلتفت إلى أحد .. ترى ماذا حدث فى تلك الفترة من الغياب .. ما الذى جعل وجهك محروق السمرة كأنك تقضى يومك تحت الشمس فى خط الاستواء .. ما الذى جعل جسمك أنحف كثيراً عن ذى قبل .. ما الذى اكسب وجهك هذه الصرامة الجديدة .. وجعلك تسير باستقامة الجندى واعتداله .. أيمكن أن يحدث كل هذا فى شهرين من الغياب ؟

— ولما جلسا على المقهى وطلب حسن (الطاولة) قال لصديقه :

— طبعا عاوز تعرف ايه اللى حصل ؟

— اذا ما كنش عندك مانع

— معنديش .. بس خلى الطاولة بيننا واعمل انك بتلعب معايا بجد و احنا بنتكلم .. واضحك وقهقه ومفيش مانع تعاكس البنات اللى يمشوا قدامنا ..

— ليه ؟ [illegible]

— من غير ليه .. ده مهم .. عشان أعرف أقول لك كل حاجة ..

— شاى يا أبو حنفى وصلحه .. خير يا حسن .. قول :

— المسألة انى دخلت فى الجد واشتركت فى العمليات

— ازاى .. مش انت قلت انك مالكش أى نشاط ميدانى ؟

— انما لما وصلت بقى لى نشاط .. البلد يامحمد عاوز مرة كبيرة عشان تصحا من نومها

— هى البلد نايمة ؟ كل الناس مضايقة من الوضع

— الضيق والقرف عمرهم ما يغيروا .. البلد عاوزه شغل .. عاوزه تتهز من فوق لتحت .. ودى حاجات متجيش بسهولة .. دى عاوزه تضحيات ..

— وانت عملت ايه ؟

— انا ايه يا محمد .. ده انا م ازيدش عن نملة ف مجتمع كبير .. ده القناة يا ابنى مليانة رجالة .. والا يا مصر بقى لك اسم بيزن فى الدنيا ويخلى الانجليز يتكنوا فى معسكراتهم زى الأرانب فى الجحور .. لكن حيروحوا مننا فين ؟

— مش بس تفهمنى ايه الحكاية بالظبط ؟

— الحكاية زى ما بتسمع وتقرا فى الجرايد .. بس انا عاوز منك خدمة بسيطة ..

— تحت أمرك

— الأول قول لى .. عائشة اتخطبت؟

نظر إليه محمد مندهشا وقال :

— لأ

قال حسن :

— يبقى انا عاوزها

استمر محمد فى اندهاشه فقال حسن :

— ساكت ليه ؟

— لانك بتتكلم كانك بتستعد لعملية إنتحارية

ضحك الصديقان وقال حسن :

— انا لقيت ان مفيش فرصة اكلمك فيها الا دلوقتى وطبعا عليك تجس نبض البيت وتكلم الوالد والوالدة وكمان تاخد رأى عائشة ، والمرة الجاية اتقدم رسمى

قال محمد بسعادة .

— يبقى من حقى ان أشكر الانجليز

— على ايه تشكر ولاد الكلب دول ؟

— على انهم سقوك جرعة كبيرة من الشجاعة

— الواحد بيتعلم كتير يا محمد .. واحنا لسه ف أول الطريق

— يبقى مبروك مقدما

— الله يبارك فيك

ثم قال حسن كأنه تذكر شيئاً

— على فكرة يا محمد . . ح أطلب منك طلب بايخ شوية

— أطلب يا سيدى ولا يهمك

— حتروح لوحدك مصنع الأسطى أمام وتقول له ١٠ × ١٠ بماية

— أقول له ايه ؟

— زى ماقلت لك ومتنساش أو تغلط . . عشرة فى عشرة بماية

— وبعدين

— بس كتر خيرك

نظر إليه محمد عاتباً لكنه لم يقل شيئاً ولما نهضا لدفع الحساب قال حسن أنه سوف يذهب ليزور أمه ثم يلتقى غداً فى نفس الموعد بالمقهى ولكنه أضاف عبارة :

— إذا مجتش متشغلش نفسك . . بعد نصف ساعة من المعاد بتاعنا تمشى وإنشاء الله حابقى أزورك لما أرجع تانى . .

— ولو أنى مش فاهم حاجة لكن مع السلامة وخلى بالك من نفسك . . متنساش المصنع .

— ح أروح دلوقتى

— لا . . فى نفس الماد اللى رحنا فيه المرة اللى فاتت . .

— أمرك يابيه . .

عاد محمد وهو يحاول أن يفهم التغيير الذى طرأ على شخصية صديقه والمرح الغريب الذى بدأ يغمره ويغطى به صرامة غير معهودة فيه أصبحت تشكل كل تصرفاته ونظراته . لكنه عندما عاد همس فى أذن أمه بكلمة فابتسمت الأم وان بقيت محتفظة بسرها حتى جاء الأب وهمسا معاً فى أذنه فابتسم هو الآخر وان قال لمحدثيه :

— خللوا الخبر ده سر لحد ما نشوف حيعمل ايه عشان منعاقش البنت ونعمل شوشرة حواليها لولا قدر الله حصل حاجة . .

فقالت الزوجة . . اللى تشوفه

وقال محمد :

— ربنا يجيب العواقب سليمه ، ويجعل لها نصيب فيه

الفصل الثامن عشر

كانت الأم تشعر بتعب شديد بعد يوم شاق فى بيت ابنتها عديلة . . احتفلت فيه مع أبنائها وأهل زوج ابنتها باسبوع الزواج ، وقامت طوال اليوم باعداد أصناف الطعام و بالذات (الكسكى) و (اليخنى) مع حماة ابنتها ، ثم قامت وساعدت ابنتها فى غسيل الملابس والعمل الذى كانت ابنتها تؤديه لأول مرة فى حياتها مما أثارها تعباً وغيظاً لأن يدها طول النهار ظلت منقوعة فى الماء كما أن أظافرها تكسرت وسالت قطرات من الدم من أطرافها . ولكن الأم التى تجلس أمام ابنتها على الطشت راحت تعلمها وتقول أن أيام الدلع قد انتهت وانك الآن أصبحتى زوجة ولك بيت ويجب أن تعتادى أعمال البيت خاصة بعد أن أصر زوجك على ألا تعملى بالحياكة والتطريز لا خارج البيت ولا داخله ، ومادمت قد أصبحت له زوجة فتجب عليك طاعته فيما يريد . وهذ أفضل وان كان سيحرمك من بعض الفوائد المادية فالعاقلة من تعرف كيف تدبر أمورها على قدر ماتيسر لزوجها ، وأعمال البيت يابنتى لاتسىء إلى سيدة البيت ولكنها ترفع مقامها عند حماتها وأهل زوجها .

ولم تخرج الأم من بيت ابنتها إلا بعد أن أطمأنت أن كلامها قد سكن قلب الإبنة وتحول تبرمها وضيقها إلى قبول ورضا فلا فائدة تجنيها الزوجة من مضايقة زوجها فى أمورها المعيشيه إلا خسارته عاطفياً وخلق

بذور الغضب التى قد تنتهى إلى الكراهية .

لكن الإبنة رغم قبولها بالحياة الجديدة بما فيها من تعب وجهد فى الأعمال المنزلية فقد أدركت أنها كانت تعيش حياة ناعمة مدللة فى بيت أبيها رغم أن الأب كان ضيق ذات اليد فقد كان الحب الذى يغمرها هى وأخوتها به يعوض كل نقص فى حياتها ، أما الزوج فلن يعطى الحنان الأبوى وان كان يعوضها سعادة من نوع آخر . . ترى أين تجد السعادة الحقه . . أيهما أفضل . . ابتسمت فى نفسها فقد أدركت أنها تسأل سؤالا لن تفيدها الإجابة عليه فتنهدت وقامت إلى المرآة تكسو وجهها بالمساحيق وتتأهب لليلة جديدة .

عادت الأم وجلست فى فراشها ثم راحت تنظر حولها وهى لاتصدق أن احدى بنتيها لم تعد الآن من أفراد الأسرة ، ورغم أنها كأم تتمنى لكل بنت فى الدنيا السعادة والهناء إلا أنها أصبحت تفتقد الابنة فى مكانها أمام المكنة أو فى جلستها مع أختها أو فى جلوسها معها فى المطبخ تحدثها وتلتقط منها فنون الطهى والعمل المنزلى خصوصاً فى الأيام الأخيرة التى سبقت زواجها . . وراحت تفكر فى السنين التى تجرى بسرعة وتتسرب من يديها كحبات الليل . . ترى هل أصبحت أما لعروسة وبعد شهور أتحول إلى جدة . تنهدت وراحت تجتر أيام زواجها الأولى ثم تمددت على الفراش وراحت تغط غطيطاً عالى الصوت ، ولم يحاول أحد من الأبناء أن يزعجها فتركوا الغرفه وخرجوا إلى (الفسحة) بعد أن أغلقوا الباب على الأم ، وربما كانت المرة الأولى التى يغلق فيها باب الغرفة منذ سكنت

الأسرة هذا المنزل فالجميع يعيشون حياة واحدة ، والأبواب دائماً مفتوحة، اللهم إلا ساعات قليلة من الليل كان الأب يغلق فيها جميع أبواب الغرف ويغطى الأولاد بالبطاطين خوفاً عليهم من لفحات البرد .

لم يحاول أحد أن يزعج الأم فقد أدرك الجميع أنهـا تعبة من مجهود يوم غير عادى ، بل أن الأب عندما جاء فى الليل كعادته لم يوقظ زوجته لتعد الطعام وتركها نائمة واتخذ لنفسه مرقداً بجوار الأولاد فى المكان الذى كانت تنام فيه الابنة المتزوجة .

وعندما أتيحت الفرصة لمحمد أن يخلو إلى أخته بعد أن راح الأخوة الصغار في سباتهم راح محمد يداعب اخته ويقول متمنياً لها السعادة .

ـــ عقبالك يا عائشة

لـكن البنت كانت مطرقة حياء فلم تنبس ببنت شفة وان ابتسمت حياء فعاد محمد يقول :

ـــ بيتهيأ لى أن جوازك حيكون قريب قوى

ـــ هو انت عاوز البيت يخلى لك والا إيه ؟

ـــ أنا عاوز أشوفك فى بيتك

ـــ أمال أنا قاعدة فى الشارع

فنظر إليها نظرة ذات مغزى وقال :

— الكلام ده على أنا . . يعنى انتى مبتتمنيش يكون لك بيت ؟

— متكسفنيش بقى وبلاش الكلام ده

— بس أنا عاوز أعرف

— اسأل نفسك وانت تعرف

— أنا أتمنى يكون لى بيت

خ خلاص

— خلاص ايه ؟

— والنبي لو ماسكتش أقوم من هنا

— طيب الحق على . . ده أنا جايب خبر يستاهل الحلاوة

— خبر ايه ؟

— قولى لى . . ايه رأيك فى حسنى ؟

— حسنى صاحبك ؟

— أمال حسنى صاحبك ؟

— ماله ؟

— رأيك ايه فيه ؟

— هو صاحبك وانت أدرى بيه

— حسنى ابن حلال . . ياريت يكون من قسمتك

— هى البنت الى بتخطب والا الراجل

— أقولك والأمر لله .. حسن أتكلم عليكى .. بس بينى وبينه .. لسه مقلناش لحد .. وهو عاوز يعرف رأيك قبل ما يتقدم ..

أطرقت الأخت ساكنة ولم تقل شيئا فرد أخوها :

— أفهم من كده أن السكوت علامة الرضا ؟

عادت البنت إلى سكوتها فقال محمد :

— اللى فيه الخير يقدمه ربنا ..

ولكن البنت لم تنم الليلة ، ولم يكن من الممكن أن تنام بعد أن سمعت الخبر وراحت تفكر فى حسنى وهل سيكون زوج المستقبل ؟

فى الصباح أستيقظت الأم وفتحت النافذة لتجدد هواء الغرفة كعادتها ولكنها صاحت جزعة وخبطت يدها على صدرها بعنف وهى تقول :

— ياخبر أسود .. ليه كده يازينب ! ! لا حول ولا قوة إلا بالله

واستفز جزع الأم مشاعر الأبناء فراحوا إلى النافذة يستطلعون الخبر ويسألون الأم .. لكن الأم لم تجب ولم يتكلم أحد من الأبناء .. كان المشهد أقوى من الكلام فسكتوا .. وارتدت الأم ملابسها ولفت الملاءة حول جسمها وذهبت إلى جارتها ، أم زينب تستطلع الأمر وتشارك البنت حزنها ..

كانت العربة الكاروا تقف وسط الحارة وحصان عم حسن مربوط

فيها وفوق العربة (أثاث) عائد وعم حسن يفك (السلبة) بحزن ظاهر وبجوار العربة يقف الشيخ السـويفى بينما تقف زوجته فى فنـاء البيت وبجوارها الابنة الحزينة (زينب) التى كان الحزن باديا عليها برغم أنها هى التى أصرت على الخروج من بيت الزوجية بلا عودة .

كان عم حسن يحمل قطع الأثاث وفى كل مرة يردد كلمة مواساة للبنت أو للأم .

« معلش يابنتى .. ربنا يعدلك بأحسن منه .انتى لسه صغيرة وحلوة. محدش يعرف الخير فين والشر فين . رب ضارة نافعة » . ومثل هذه العبارات التى تحمل المواساة والتخفيف من الصدمة .. ووقفت الجارة إلى جانب جارتها . وأخذت زينب فى حضنها مواسية حينا واعدة حينا آخر قائلة أن الغضب فى بداية الحياة الزوجية أمر دائم الحدوث لـكن العقل مطلوب يازينت (وانشاء الله ترجعى بيتك ..ده الواحدة مالهاش غير بيتها) ولـكن زينت راحت تبكى وتقول (متقوليش كده ياخالة أم محمد . ده عذبنى طول سنة اللى فاتت . أنا عارفة ايه اللى خلاه يجوز .. هو مكانش عارف — نفسه) . فنهرتها أمها قائلة : (أختشى يازينت قطع لسانك .. انتى مش عارفه انه ابن عمك .. قولى كل شىء قسمة ونصيب وبس) .. فسكتت البنت وهى تكظم غضبها وتدارى حزنها بينما قطع الأثاث ترص بلا ترتيب فى (حوش) البيت تارة وفي احدى الغرف تارة أخرى .

هكذا عادت زينب .. ويبدو أنها عودة بلا رجعة بعدها (لا حول ولا قوة إلا بالله) ياما قالت انها مبتحبوش لـكن محدش صدقها) .
هكذا راحت الـكلمات تتناهى الى سمعها من النوافذ الـكثيرة الحزينة فى الحارة .

اما زينب التى استسلمت لقدرها وبقيت فى بيت أبيها لا تبرحه ولا تطل من النافذة حتى لا تثير حولها كلمة شك ، فقد أدركت أنها لا يمكن أن تحيا إلى الأبد داخل غرفة فى بيت أبيها فبدأت تخرج لزيارة أهل الحارة تحت رقابة أمها ، وبدأت تطل من النافذة ، وتتحدث مع الجيران كأن عودتها إلى بيت أبيها مسألة عادية أو هكذا يجب أن تكون .

أما البنت باتعة فقد قالت لمحمد الذى سألها عن سبب عودة زينب من بيت زوجها هذه العودة العنيفة فقالت انها طلقت منه لأنه (خايب)

فحاول أن يستفسر منها عن معنى كلمة (خايب) هذه فقالت له :

— كل الناس بيقولوا عليه خايب وعشان كده خدها أبوها عنده

وأدرك محمد ان باتعة التى تقول كلاما خطيرا يمس كرامة رجل من الرجال ... لا تفهم ما تقول رغم أنها كبرت وأصبحت عروسة تعمر بيتا اذا تزوجت . ولـكنها فيما يبدو تعيش بعقلية طفلة ، فسكت وتابع معها الدرس الذى كانت باتعة تتقدم فهمه بسرعة مثيرة للاعجاب .

* * *

فى الليل قالت الست أم عبده لزوجها على أفندى وهو يجلس على مكانه المعتاد ويشرب القهوة أن حماة ابنتها حضرت فى الصباح لتبلغها أن (سميحة) ولدت . ومن الواجب أن تذهب لتطمئن على ابنتها وترى حفيدها .. لكن الرجل استمع إلى كلمات زوجته بمزيج من الدهشة والغضب وهو لا يصدق نفسه فقال :

— ولدت ؟ ليه .. هى اجوزت من امتى ؟

قالت الزوجة وهى تبتسم مطمئنة وتنظر إلى زوجها نظرة من يفهم قصده

— متخافش ياسى على .. ياما قلت لك ان بنتك اشرف بنت .. دى داخله على سنة أهه .. ايه سنة بالتمام فى بيت جوزها .. يعنى أوانها أنها تولد .

فراح الرجل يداعب حبات مسبحته ويبالغ فى تكشيره ولم يقل شيئاً مفيدا لزوجته ، فاضطرت الزوجة أن تكرر على زوجها الطلب بأسلوب أكثر إثارة له .

— مش نروح نبارك لها ونشوف ابنها ؟

— ايه .. بتقول نروح !.. مين اللى يروج .. انا .. انتى جرى لك ايه يا ست .. انا أروح لبنت خلت راسى زى السمسمة ؟

— بس هدى نفسك ياسى على .. دى مهما كانت بنتنا ومالهاش غيرنا مالناش غيرها ودى حاجة لازم ننسى فيها الزعل ..

— انا مش ممكن أروح .. مش عاوز أشوفها . . معنديش بنات خلاص .. بنتى ماتت من يوم ما خرجت عن طوعى

— كفى الله الشر .. دى بنتك مهما حصل والضفر ميطلعش من اللحم وكل شىء قسمة ونصيب ..

سكت الرجل وظل مطرقا ولم ينبس بكلمة وان كانت ملامح وجهه قد بقيت على حالها من الاشمئزاز والتكشير .. فقالت الزوجة .

— يعنى نسيبها كده .. ده حرام ياسى على .. والله ما أقدر أسيبها أبدا .. دى بنتى دى البنت ما بتحتجش أمها الا فى الظروف دى ..

— انا قلت معنديش بنات .. خلاص

— طيب خليك على كيفك .. ولو انها متجيش برضه لكن معاش .. أروح أنا ياسيدى ... وبعدين ربنا يهدى القلوب ويروق الحال ..

— تروحى ؟ انتى اللى تقولى كده ؟

— امال ايه ياسيدى .. ده واجب .. ضرورى .. ومش أصول اننا نكسر بخاطر البنت فى الظرف ده ..

لم يجب الرجل ، لم يقل لا .. ولكنه لم يقل نعم فتركته الزوجة ودخلت إلى المطبخ تحمل صينية القهوة وغابت لحظة كانت تغسل خلالها الفنجان والكنكة ثم عادت إلى زوجها تواصل الحديث :

— مش أصول ناخد لها حاجة معانا ؟

عاد الرجل يتطلع إلى زوجته بغضب ويقول بصوت عال فيه أثر مرضه :

— أنا قلت مش رايح .. مش ح أروح .. مش عاوز أشوفها ..

— طيب ياسيدى أروح أنا

— مع السلامة . . ومتكلمنيش فى الموضوع ده تانى .. أنتى عاوزه تموتيني ..

— بعد الشر عليك ياسيدى .. أنا غلطانة ..

ونهضت الزوجة إلى غرفتها وارتدت ملابس الخروج وفوقها البالطو الأسود وجلست أمام زوجها معتذرة صامتة تريد أن تقول شيئا ولاتجرؤ على الكلام ، فنظر الرجل إليها بنفس التكشيرة ولكنه قال دون أن ينظر إليها :

— المحفظة عندك فى الجاكتة . . خدى اللى يكفيكى وهاتى اللى عاوزه تجيبيه وروحى للبنت ياست .

نظرت له الزوجة والفرح يجعلها تكاد تطير والدموع تنهمر من عينيها . . ثم مالت على يد زوجها تريد أن تقبلها ، لكن الرجل راح يستغفر ربه ويدارى عينيه فى الجريدة الموضوعة أمامه ويقول :

— روحى بقى .. وإذا احتجتى تباتى هناك باتى . . خدى بالك منها ..

فخرجت الأم وهى لاتدرى ماذا تفعل من فرط السعادة فقد اعترف الرجل بابنته وزواجها بعد غضب طويل فهل يتنازل ويزورها فى بيتها !

* * *

كان محمد قد تلقى رسالة من الأسطى حسنين أرسلها إلى بيته مع أحدعمال مصنعه أمره فيها أن يسلمها له أو إلى أمه واخبره فيها أن (حسنى) أصيب بطلقة فى إحدى العمليات وأمكن نقله إلى القاهرة وهو موجود فى مستشفى (الدمرداش) ، ويريد أن يقابلك بسرعة ، فذهب محمد على الفور إلى المستشفى وسأل عنه ودهش لأنه لم يجد أحد يدله عليه حتى قابله وهو يبحث عن مكان صديقه فصحبه معه وفى طريقهما قال له الأسطى حسنين أنهم أدخلوا حسنى إلى الدمرداش بالواسطة ، وأن المستشفى تعمد عدم إفادة أى شخص عنه حرصا على سلامته فالبلد غير مأمونة وعيون الانجليز تملأ كل مكان والمبالغة فى الاخفاء فقد غيروا اسمه إلى (حمدى) حتى تتجنب المستشفى أى مسئولية فيما إذا حدث تطور فى الأمر .. وراح محمد يستفسر

— أمن أجل رصاصة يحدث كل هذا .. لابد أن المسألة أكبر بكثير .. (لكن الأسطى حسنين قال أن حسنى سيشفى باذن الله ويعود إلى جهاده مرة أخرى) .

ولما وصلا إلى الغرفة النائية التى وضعوا فيها حسنى لاحظ محمد لأول مرة أن الأسطى حسنين لا يرتدى القميص والبنطلون كعادته منذ فتح

المصنع ولكنه يلبس (جلابية بلدى) ويبدو على هيئة (حانوتى) فى كل حركاته فقال الأسطى حسنين وهو يضغط الطاقية على رأسه و يلف حولها (التلفيعة) أن هذا التغيير ضرورى حتى لا يلتفت إليه الفضوليون فسكت محمد اعجابا فلم يكن يصدق أن الأسطى حسنين يمكن أن تخرج منه كل هذه التصرفات وهو الرجل العملى البسيط ، ولكن لاشك أن كل إنسان فيه جوانب كثيرة لا تكشفها إلا الأحداث والظروف .

وعندما دخلا الغرفة وقف محمد لحظة يتطلع إلى الراقد أمامه غير مصدق أنه الصديق الذى كان دائما يراه حيا ونشطا .. صاحب عزيمة لا يفلها الحديد مهما صلب . عزيمة أذكتها التجربة والأيام ثم اندفع إلى الصديق الذى لم ير منه إلاوجهه وراح يقبله وينهال عليه بأسئلته الكثيرة مما اضطر الاسطى حسنين إلى رفعه عن صاحبه وقل :

— بالراحة يامحمد — حسنى عاوز راحة .. خللى بالك ..

ثم جاس بجواره يتأمل أهذه هى الرصاصة التى قال عنها الأسطى حسنين .. أنها قنبلة بلا شك فكل جسمه مربوط بالشاش إلى الرأس ولم يبق من حسنى إلا الوجه الأسمر الهادىء الواثق والعينان اللتان مازالتا تشعان برغم النومه على الفراش .

— خير .. ياحسنى .. إيه الحكاية ؟

ابتسم حسنى لصديقه يريد أن يطمئنه ثم قال بهدوء :

— متخافش كده يا محمد . . متخوفنيش على نفسى

فقال الاسطى حسنين :

— يخوفك ازاى ياحسنى . . ده انت بكره ربنا حيشفيك وترجع تانى وتحاربهم لحد ما تطردهم من مصر كلها إنشاء الله . .

نظر حسنى إلى الأسطى حسنين وقال له . .

— ده الحلم يا اسطى

فقال محمد :

— وانشاء الله يبقى حقيقة . . لكن ايه الحكاية ؟

— أبداً . . دخلت معسكر من المعسكرات الانجليزية عشان أرمى قنبلة ف مستودع الذخيرة بتاعهم . . لقيت مكان الذخيرة مواد حارقة وزيوت وحاجات سريعة الاشتعال . . ولعت المعسكر كله نار . . شفت الانجليز بيجروا وهم بيصرخوا زى النسوان . . عجبنى شكلهم فوقفت أضحك . . نسيت نفسى لحد ما كت ح اروح . . معرفتش اخرج إلا بصعوبة وبسرعة قبل الدنيا ما تهدا عمل لى الجماعة الاسعاف السريع ونزلت ف عربية (شمام)

— وليه مقعدتش فى المستشفى هناك لحد ما تخف بدل ما تنزل بنارك كده ؟

ابتسم حسنى وقال :

— عشان أشوفك يامحمد

ولكن الأسطى حسنين أستدرك قائلا :

— يقعد ازاى هناك . . دول زمانهم قالبين البلد تفتيش ، ولكانوا شافوه كان خد تعذيب لحد ما يعترف ويكشف أصحابه كلهم .

نظر محمد إلى الأسطى حسنين سعيداً لذكائه وقال .

— حقيقى . . أزاى فاتتنى دى ؟

دخل الطبيب الشاب ومعه ممرضة وامامهما عربة فيها أدوات العلاج وعلبة كبيرة فيها مادة شبيها بالفازلين وراح الطبيب يفك الأربطة ويدهن جسمه منها ثم أعطاه جرعات كثيرة من الدواء . . وقال له بثقه وود :

— بسيطة يا بطل . . كل الجروح سطحية . . مسألة أيام ويرجع كل شيء لطبيعته

قال الجميع بصوت واحد

— إنشاء الله

وشكروا الطبيب الذى قال قبل أن يخرج

— ياحسنى . . لازم تسمع كلام الممرضة عشان العلاج يجيب نتيجة وتخف بسرعة . .

فنظر حسن إلى الممرضة بعتاب لكنها قالت :

— ده عشان مصلحتك

عندما خرج محمد من المستشفى واتجه إلى بيته كان يفكر في حسنى وحاله .. هذا الشاب الذى كاد أن يودى بحياته فى سبيل تحرير بلده .. ترى أهو أكثر وطنية .. فلماذا يفعل هو كل هذا وابقى أنا فى مكانى ؟ أليس هو الذى دفعنى دفعاً إلى العلم .. مع ذلك حينما أدرك أن المدرسة ليست مكانه المناسب تركها وذهب يجاهد فى الساحة الكبرى فأى إنسان هذا .. لم لا أكون مثله ..،

فى هذه اللحظة .. كان الناس يجرون من كل مكان إلى أى مكان كأنها جماعات مذعورة الكل يردد كلمة واحدة .. حريقة .. حريقة.. ولما حاول أن يسأل عما يجرى لم يجد إذنا صاغية ، ولكنه سرعان ماأدرك السبب ، فقد كانت النار تلهب الفضاء أمامه حتى تحولت السماء إلى جحيم من النار والدخان الكثيف .. ماذا جرى !! القاهرة تحترق ..

كيف .. لماذا .. من فعلها ؟

لم يسمع شيئاً .. كان الناس يقولون كثيراً .. ولم يقولو شيئا ..

« تمـــــت »

عبد البديع عبد الله

بيت صغير في المدينة



فيلا ٧ شارع مصطفى فوزي
المنطقة الأولى - مدينة نصر - القاهرة

الغـــلاف بريشة الفنـــانة

شريفـــــــه أبو سيف

للمؤلف

.. صدرت :

« حكاية الطين الأخضر » مجموعة قصص قصيرة ١٩٦٩

« بيت صغير فى المدينة » رواية ١٩٨٠

.. تحت الطبع :

« قبلة قديمة على وجه فتاة يهودية » مجموعة قصص قصيرة

« مسألة حياة » روايه

« رحلة الخروج والعودة » رواية

« قطار الشرق السريع » أدب رحلات

« السيف والكلمات » مسرحية

« ما بعد الواقعية فى الرواية المصرية » دراسة ماجستير

« المؤثرات الأجنبية فى الرواية العربية الحديثة » دراسة دكتوراة

أودع بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم

٥٠٨١ لسنة ١٩٨٠

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧

تم طبع هذا الكتاب فى



السيدة زينب تليفون : ٢١٢١٨